الامبراطورية الرومانية

تأليف : أ . ب . تشارلز ورث
ترجمة : رمزى عبده جرجس
مراجعة : د. محمد صقر خفاجة

الامبراطورية الرومانية

مهرجان القراءة للجميع
للطفل. للشاب. للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

الامبراطورية الرومانية

تأليف : أ. ب. تشارلز ورث

ترجمة: رمزى عبده جرجس . مراجعة : محمد صقر خفاجة

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

هذه ترجمة كتاب :

The Roman Empire

تأليف

M. P. Charlesworth

مقدمة المؤلف

يهدف هذا الكتاب إلى عرض بعض جوانب الحيــاة وما يجرى فيها ووصف بعض الأفكار والأحوال التى كانت سائدة خلال القرون الثلاثة الأولى من هذا النوع من الحكومات التى اصطلح الناس على تسميتها بالإمبراطورية الرومانية . ولقد أغفلت كثيراً من الموضوعات مثل التفاصيل الخاصة بالنظرية الدستورية ونظم الإدارة المدنية والاقتصاد ، لأنى لا أعرفها كما يجب . ولقد حاولت أن أقدم للقارئ المثقف العادى صورة مجملة ، تضم نصوصاً مقتبسة وفيرة حول ما كان يدور فى خلد سكان الإمبراطورية وما كان يجرى على ألسنتهم . فإذا ما اكتشف هذا القارئ بعض الصلات التى تربطه بهؤلاء السكان فى حياتهم ومشاكلهم اليومية ، وإذا ما اكتشف فى نفسه هوى وميلا إلى هذه الفترة بالغة الأهمية ، فحسبى أن أكون بذلك قد حققت ما أنشده .

وليس بوسعى أن أعرب هنا عما أدين به من فضل عظيم لأولئك الأصدقاء الذين قدموا لى يد العون فى نواحى عدة وهم الأستاذ ف . ا . آدكوك F. E. Adcock وعميد «براسينوز» والكولونيل ت . موريس T. Morris والأستاذ ا . د . نوك A. D. Nock والأستاذ ا . ا . رتشموند I. A. Richmond ، بيد أن من يعرفونهم عن كثب يمكنهم تصور مبلغ تقديرى لهم . كما ينبغى أن أسجل هنا أولا وقبل كل شىء ، عميق امتنانى للدكتور ن . ه . بينز N. H. Baynes لاهتمامه بى وتشجيعه لى بهمة لا تعرف الكلل خلال السنوات الطوال التى قضيتها

فى التفكير فى هذا الكتاب وتأليفه . وإنى لا أنكر أنه كان بالوسع أن يظهر هذا الكتاب فى ثوب أتم بهاء ورونقاً ولكنى مع ذلك آمل أن يكون جديراً ببعض ذلك الفضل العظيم ، الذى أسبغه علىّ هؤلاء الأصدقاء الذين ذكرتهم أو أولئك الذين أهديت كتابى إليهم .

١٩٥٠ — م . ب . تشارلزوورث

تمهيد

منذ ألف وثمانمائة سنة مضت ، كانت جميع الأراضي التي تتاخم البحر الأبيض المتوسط ، وكثير غيرها من المناطق التي تقع فيما وراءه ، تنعم في ظل حكومة واحدة بالسلام وسيادة القانون والنظام والرخاء . وكانت إيطاليا نفسها ، وشبه جزيرة أيبريا وساحل شمال إفريقيا ومصر وسوريا وتركيا واليونان جزءاً في هذه الإمبراطورية العظيمة ، بيد أنه إلى جانب هذه البلاد ، كانت هناك شبه جزيرة البلقان وجانب كبير من المنطقة التي تشغلها الآن رومانيا والمجر ، ثم فرنسا وسويسرا والنمسا وألمانيا الجنوبية وهولندة (جنوب نهر وال) وانجلترا وويلز بالإضافة إلى الأراضي الواطئة في اسكتلندة — كل هذه قد أخذت بنصيبها في السلام الذي كان سائداً والثقافة التي انتشرت .

وفي مثل هذه الإمبراطورية الشاسعة المتباينة الأجزاء التي تضم أشتاتاً من الشعوب واللغات والتقاليد ، لم يكن هناك أدنى شك فيمن تكون له السيادة ، تكون للمواطنين الرومان الذين استطاعوا أن يقهروا في بضعة قرون ، هذه الدول المختلفة جميعها ، الواحدة تلو الأخرى ، حتى عرفت المنطقة جميعها باسم « نفوذ حكم الرومان [1] » (Imperium Romanum) .

ولكن على الرغم من أن روما كانت صاحبة السيادة ، بلغتها وقانونها ودياناتها وعاداتها ، على هذه الرقعة المترامية من الأراضي ، إلا أن الأجناس من دونها ، لم تكن تلقى منها عنتاً أو مهانة . فقد نظر الرومانيون الفاتحون إلى اليونانيين ذوي التراث العريق ، نظرتهم إلى نظراء لا يقلون عنهم مرتبة ،

(١) رغم أن عبارة « الإمبراطورية الرومانية » المألوفة ، تعد سهلة المأخذ ، فهي لا تؤدي معنى صحيحاً ، إذ أن كلا من اللفظتين اللاتينية imperium والعربية « إمبراطورية » تحملان في الواقع معان مختلفة .

وأهم من ذلك أن اليونانيين أنفسهم بانوا ، بمضى الزمن ، على أتم استعداد لأن يعتبروا الرومان أنداداً لهم ، بعد أن كانوا ينظرون إليهم شذراً ، ويسمونهم « البرابرة » وسارت الأمور على هذا النحو حتى أن سكان الإمبراطورية الشرقية الذين كانوا يتكلمون اليونانية ، كانوا يشعرون بفخر عظيم ويسمون أنفسهم « بالرومايوى » Rhomaioi أى بالرومانيين « Romans » .

وكانت توجد أجناس أخرى غير هذه ، فقد انتشر الكلتيون إبان هجراتهم فى منطقة شاسعة فى أوربا الوسطى ، وخضع الكلتيون الغربيون فى إسبانيا وفرنسا للحكم الرومانى ، فى حين أن نظراءهم فى الشرق كونوا عنصراً هاما من عناصر سكان أراضى نهر الدانوب . وكان من اليسير على الرومان ، بث الحضارة والتقاليد الرومانية فى هؤلاء الكلتيين الذين كانوا بمثابة غزاة يحكمون شعوبا وطنية عريقة فى كثير من الولايات ، وذلك لأن الكلتيين انحدروا من سلالة هندية أوربية ، ولأنهم كانوا يتكلمون لغة لها صلة باللغة اللاتينية . ولكن الحال يختلف عن هذا بالنسبة للأجناس الأخرى ، فكان سكان تراقيا Thracians فى شرق شبه جزيرة البلقان وفريجيا Phrygians وكابادوكيا Cappadocians فى آسيا الصغرى والسوريون والمصريون الوطنيون (تمييزا لهم عن الجمهور اليونانى الكبير الذى استقر بمصر إذ ذاك) كانوا جميعا أصعب قيادا من غيرهم فى تمثل الحضارة الرومانية . ورغم كل ذلك ، وعلى الرغم من أنه كان يحق للرومانى أن ينظر إلى هذه الشعوب باعتبارها شعوبا لا تحتل سوى مرتبة دنيا من مراتب الحضارة ، فلم تظهر قط فكرة تدل على الغطرسة كالفكرة الحديثة التى تقول بوجود « جنس سيد » . فلم يكن لدى روما ما تواجه به هذه الشعوب جميعها التى اتصلت بها ، سوى تجربة واحدة ، وهى أنها دائما ترحب بمنح هذه الشعوب ، حقوق المواطنة ، إذا ما أبدت استعداداً للتعاون المثمر معها ، دون النظر إلى الجنس أو اللون أو اللغة أو الدين .

والحقيقة أن براعة الحكم الرومانى تظهر فى أن القائمين به قد أدركوا منذ أقدم العصور الحكمة من منح حقوق المواطنة تقديراً لمن كان يبذل جهداً متصلا فى سبيل نيلها ، ويعاون روما على أداء رسالتها . وقد يختلف الباحثون فى تعريف هذه الرسالة غير أنه يحق لنا أن نتساءل فى هذا المجال عن الصورة التى كان يرسمها الرومان لأنفسهم . تروى الأساطير بما تنطوى عليه عادة من نغمة وطنية طنانة ، قصة رومولوس Romulus مؤسس روما وملكها الأول ، سليل الإله مارس Mars ، الذى طرح فى البرية وما زال طفلا ، ورضع هو وأخوه التوأم من ثدى ذئبة ، وبذلك انحدر الرومانيون من سلالة هذه الآلهة ، فاتصفوا بالصرامة والجلد والاستبسال فى القتال . غير أن الأساطير قد حفظت لنا ذكرى أحد المشرعين العظام والمفسرين للحكمة الإلهية ، وهو ملك روما الثانى ويدعى نوما Numa . وهكذا نشأ الشعب الرومانى وانحدر من سلالة الأشداء الكادحين ، الراغبين فى القتال فى استماتة دفاعاً عن حقوقهم ، إذا ما استلزم الأمر ، لكنهم يحترمون القانون ولا يعتدون على حقوق غيرهم . وقد أنعمت عليهم الآلهة — وكبيرهم جوبيتر Jupiter — بالفتوحات المطردة والنصر المؤزر ، تقديراً لشجاعتهم النادرة وعزمهم وتصميمهم وورعهم أولا وقبل كل شيء ، فاتسعت رقعة ملكهم ، واشتدت قوتهم وازداد ثراؤهم وعظم نفوذهم . فما لبثت الدولة الرومانيسة التى كانت مجرد بلدة صغيرة على نهر التيبر Tiber ، أن أصبحت ، ولم تمض سوى قرون معدودة ، تضم إيطاليا جميعها . وفى هذه الأثناء نشرت روما ألوية القانون والتسامح على القبائل التى قهرتها ، كى تنال نصيبها من السلام الرومانى . وكان شعب هذه الجمهورية ينتخب بنفسه حكامه الذين يسمون قناصل Consules أو برايتوريس Praetores ، والذين خولت لهم سلطة الحكم imperium وكانت هذه السلطة مطلقة (إلا فى حالة الحكم على أحد المواطنين بالإعدام) وجرت العادة أن يشغل هؤلاء الحكام بعد انتهاء خدمتهم المقاعد الشاغرة فى مجلس الشيوخ (Senate) الذى أصبح بدوره حصناً للحكمة

والحنكة السياسية . وضمت روما ، شيئاً فشيئاً ، خلال القرنين الأول والثانى قبل الميلاد ، البلاد الواقعة فى الشرق والغرب فدانت لها إسبانيا واليونان وآسيا الصغرى ، وكانت ترسل الحكام أو الحكام السابقين لتولى مقاليد الحكم فى هذه «الولايات» provinciae (وهى لفظة كان يقصد بها أصلا منطقة نفوذ الحاكم لا مساحة الأرض وحدودها) وتمنحهم سلطة كسلطة القنصل consul أو البرايتور praetor تسمى (imperium proconsulare) ، وكانت هذه السلطة المخولة للحاكم تجعل منه حاكما مطلقاً لا معقب على قضائه . ومع أنه لم يكن ليمارس هذه السلطة إلا داخل ولايته ، إلا أنه كثيراً ما أساء استخدامها . وفى القرن الأول استطاع قائدان بارزان : بومبى Pompey الكبير ويوليوس قيصر Julius Caesar أن يضما إلى الإمبراطورية أجزاء من أراضى آسيا الصغرى وسوريا كما ضما بلاد الغال Gaul الخصبة . بيد أن سلسلة من الحروب الأهلية قد نشبت خلال القرن ذاته وهددت باستنفاد قوة الرومان من الرجال ، وأنذرت بخلق حالة من الفوضى وإضعاف مستوى حياة الرومان الأدبية والدينية . وقد تحقق خلاص العالم الرومانى من هذا الخطر المحدق على يد ابن يوليوس قيصر[1] الذى بدأ بهزيمة خصمه

---

(١) ولد جايوس اكتافيوس Gaius Octavius فى روما فى ٢٣ سبتمبر سنة ٦٣ ق.م. وكانت أمه ابنة أخت يوليوس قيصر . وفقد أباه فى حداثته فكفله زوج أمه لوكيوس ماركوس فيليبوس L. Marcus Philippus . وفى سنة ٤٤ ق . م . كان يدرس فى أبولونيا التابعة لمقاطعة إليريا Illyria عندما علم بأنباء اغتيال قيصر . فعاد إلى روما على الفور ، حيث علم بنبأ تبنى قبيلة جوليا Julia له . ولهذا السبب اتخذ اسم جايوس يوليوس قيصر أكتافيانوس Gaius Julius Caesar Octavianus . كما علم أيضا باختياره وريثا لقيصر . ولكن ماركوس أنطونيوس والزعماء الجمهوريين أنكروا عليه وراثته ، إلا أنه حظى بتأييد قوات قيصر العتيدة وشق طريقه بأن استعان بجميع الطامعين فى الإمبراطورية دون أن يقف إلى جانب أى منهم . وما كان قيام الحكومتين الثلاثيتين فى عامى ٤٣ و٣٧ ثم اندحار بروتس Brutus وكاسيوس Cassius فى موقعة فيليبى Philippi عام ٤٢ إلا مراحل مهدت لانتصار اكتافيوس فى موقعة أكتيوم عام ٣١ ق . م وأصبح اكتافيوس منذ ذلك التاريخ ، فى نظر بنى وطنه ، مخلص البلاد وأملها الوطيد فى السلام (المترجم)

ماركوس أنطونيوس Marcus Antonius والملكة المصرية كليوبترا ، ثم استعاد وحدة الإمبراطورية ، ووطد السلام وبعث الأمل فى استتباب الأمن وفى إقامة حياة جديدة لجمهور المواطنين الذين أنهكتهم الحرب وذهبت بروحهم المعنوية .

كان من الممكن أن يروى مثل هذه القصة أى مواطن رومانى عادى ، عاش عام ٢٧ ق . م . مثلا . غير أن تغييرات كبيرة قد طرأت على الجمهورية فى ذلك العام . كان المواطنون حتى ذلك الحين يقومون فى مجموعهم بانتخاب حكامهم ، وكان مجلس الشيوخ يعمل (اسمياً) عمل الهيئة الاستشارية لهؤلاء الحكام . غير أنه لم يحدث قط أن قام ثمة توازن بين الجمعية الشعبية وبين مجلس الشيوخ ، كما أن الاضطرابات الدائمة والحروب المتصلة التى اجتاحت الأجيال الثلاثة الماضية ، أوعزت بأن نظام الحكم أصبح فى حاجة إلى من يمسك بناصيته ويتحكم فى قياده . وقد قام قيصر الصغير بهذا الدور فعـــلا . فقسمت إدارة الإمبراطورية جميعها بينه وبين مجلس الشيوخ ، وإن بقيت بعض المناطق (وبخاصة الممالك الشرقية) خاضعة لحكامها بما يشبه الاستقلال الاسمى ، وأطلق عليها اسم « الممالك التابعة » . وكان هذا حال ممـالك تراقيا Thrace وكبادوكية Cappadocia وإسرائيل Judaea تحت حكم هيرودس Herodes الأعظم وكذلك مملكة الألب التى كان يحكمها الأمير الصغير كوتيوس Cottius . وقد أثمر هذا النظام المبتـكر فى البداية ، لأنه أتاح للملوك أن يهدئوا من المشاعر القومية وأن يحولوا دون قيام حركات مناهضة لروما ، وأن ينشروا أساليب الحياة المتمدينة الحـديثة ، غير أن هذه الممالك ما لبثت أن اندمجت شيئاً فشيئا فى نظام الولايات .

ولقد زعزعت الحروب الأهلية المتلاحقة الرهيبة ، التى نشبت ثلاث منها خـلال الفترة بين عامى ٩٠ و٣٠ ق . م ، زعزعت أركان المجتمع الرومانى ، فعمت الفوضى ، وزايلت الثقة النفوس ، واســـتولى على قلوب الناس يأس لا يعرف مداه . وكان علاج هذا الأمر ، هو قيـام حكومة تتصف بالصرامة

والعدل فى آن واحد ، وإعداد جيش قوى قادر على القتال فى ظل قيادة سليمة ، وتأمين الناس على ممتلكاتهم من الأرض أو المتاع ، وضمان حرية الانتقال وهذا ما حققته بالفعل للعالم الرومانى حياة قيصر الصغير الطويلة . فقد تولى مقاليد الأمور فى الفترة ما بين سنة ٣١ ق . م . و١٤ م . (أى ما يقرب من ٥٠ سنة) . وكان للإمبراطورية أن تتنفس الصعداء فى النهاية ، وأن تنعم باستقرار الأحوال بها من جديد ، وأن تبرأ من عللها ومن ثم تسنى لها أن تأمل فى استتباب الأمن والسلام اللذين قدر لها أن تستمتع بهما . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نعتبر قيصر الصغير مؤسس الإمبراطورية الرومانية ، ولكنى أود هنا قبل أن أتناول بالدراسة الأوجه المختلفة للحياة فى ظل الإمبراطورية خلال ثلاثة قرون ونصف من حياتها ، أن أقدم عرضا موجزاً لتاريخها السياسى فى خطوطه الرئيسية ، وسوف لا أذكر فى هذا الموجز سوى الأسماء البارزة والأحداث الهامة .

لم يكن لأوغسطس Augustus — فسوف أدعو قيصر الصغير من الآن فصاعدا بالاسم الذى خلع عليه عام ٢٧ ق . م . — لقب من الألقاب التى يحملها الحكام ، بالرغم من السلطات الواسعة المتعددة التى كانت قد خولت له . فلقب عائلته هو قيصر ولقب تمجيده أوغسطس Augustus ، كما كان يلقب أيضاً بلقب إمبراطور Imperator باعتباره قائداً أعلى ، غير أن الصفة الوحيدة العامة التى كانت تطلق عليه هى «الرئيس» Princeps . وكانت السلطات المخولة له محدودة زمنياً من الوجهة الرسمية ، ويتحتم دائما طلب تجديدها ، كما لم يكن لديه أى ضمان فيما يختص باختيار خليفة له عند موته ، ولكنه كان بطبيعة الحال حريصا على أن يخلفه فى منصبه وريث من صلبه . بيد أن السلسلة المتصلة من الكوارث العائلية المفجعة التى نزلت خلال السنوات الخمس والأربعين من حكمه ، لم تلبث أن انتزعت منه ذلك الأمل . أما عن تيبريوس ، ربيبه المتقدم فى السن ، الذى خلفه فى النهاية عام ١٤ ، فرغم مقدرته على الحكم ، كان يفتقر إلى دربة أوغسطس

ومكانته . أما جيوس Gaius (كاليجيولا) Caligula الإمبراطور الذى خلفه ، فقد كان مصابا بجنون العظمة وما لبث أن أدت به نزواته إلى اغتياله ، ثم جاء كلوديوس Claudius ليتبوأ عرش روما من بعده ، بيد أن هذا الأخير مع أنه كان يكن شيئاً من الاحترام لتقاليد الأولين وبالرغم مما كان عليه من الحنكة السياســية ، إلا أنه لم يكن يتمتع بالقوام الذى يليق برئيس الإمبراطورية Princeps ، أما ربيبه نيرون Nero الذى خلفه عام ٥٤ ، فقد أثار غضب النبلاء لاضطهاده إياهم ، وأثار سخط الجيش والشعب بإعراضه إعراضاً تاماً عن الاهتمام بشئون الجيش وبشغفه الكبير بالفن اليونانى والحضارة اليونانية . وكان انتحار نيرون فى شهر يونية من عام ٦٨ بمثابة خاتمة مفجعة لسلالة أوغسطس ، ولم تكن نتيجة ذلك سوى نشوب الحرب الأهلية .

أما فسباسيان Vespasian الحاكم الذى خرج من هذا الصراع مظفراً ، ليقيم أسرة مالكة جديدة ، فإنما يمثل شيئا آخر مختلفاً جد الاختلاف . لقد انحدر عن أصل ريفى عريق مهيب ، فنشأ باسلا كفئا ، ميالا إلى البساطة ، نزاعا إلى الفكاهة والظرف ، وبث فى المجتمع الرومانى روحا جديدة ، وأحاله إلى مجتمع طابعه الاتزان وحب الادخار والقدرة على العمل . ولكنه رغم مابذل من جهد كبير فى تنظيم الإمبراطورية على نحو جديد ، إلا أن ولده الحدث دوميشيان Domitian جلب على نفسه السخط والكراهية لاستبداده وريبته . وهكذاهوت أسرة مالكة أخرى فريسة للاغتيال والقتل (عام ٩٦) .

غير أن آراء جديدة حول ما ينبغى أن يكون عليه رئيس الإمبراطورية ، لم تلبث أن ظهرت فى الأفق منــذ ذلك الحين . شرع أهل الفكر فى المطالبة بضرورة التخلى عن مبدأ اختيار الإمبراطور من أسرة واحدة ونادوا بأن يتم الاختيار من بين جماعة المواطنين بأسرها ، على أساس مدى لياقة كل منهم وقدرته على تولى الحكم ، وكان لتطبيق هذا المبدأ أن حكم البلاد ، مدة تقرب

من مائة عام ، نفر من الحكام المحنكين المخلصين المستنيرين . ولعل ما يميز الرومانيين عن غيرهم من الشعوب ، ويصور جانباً بارزاً من حياتهم أن الإمبراطور القائم بالحكم ، إرضاء لإحساسهم بأهمية الرباط العائلي ، كان يتبنى من يختارونه من بينهم ، فبرزت إلى الوجود أسماء لامعة : تراجان Trajan وهادريان Hadrian وانتونينوس بيوس Antoninus Pius وماركوس أوريليوس Marcus Aurelius . بيد أنه مما يؤسف له أن ماركوس الذى يعد فى تاريخ روما الطويل أوفر من تقلدوا المناصب العامة نشاطاً وأعظمهم إخلاصاً فى العمل ، قد رجع إلى مبدأ الوراثة من جديد بأن ترك الخلافة لابنه كومّودوس Commodus الذى كانت شخصيته وميوله على النقيض تماما من شخصية أبيه الفيلسوف وميوله . ومرة أخرى ، فى عام ١٩٢ سمعت روما بمصرع أحد الأباطرة ، ومرة أخرى واجهت خطر نشوب حرب أهلية ، ثم ما عتمت أن جابهت حقيقتها المروعة سافرة .

أما الرجل الذى كانت له الغلبة على خصومه ، ألا وهو سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus (١٩٣ — ٢١١) الذى كان مواطنا رومانيا من أبناء إفريقية ، فقد كان يمثل بوضوح انحطاطا ظاهراً عن مرتبة النبلاء المثقفين الأكفاء الذين ظهروا فى القرن الثانى . وقد كان لتدربه على المحاماة (كما تقول إحدى الروايات) واقعيا فى نظرته إلى الأمور ، بينما حملته خبرته العسكرية على الإيمان بالأساليب التعسفية . وربما كان سبتيميوس يدرك جسامة الخطر الكامن على الحدود ، غير أنه قد بالغ ، دون شك ، فى الاهتمام بالجانب العسكرى ، وبذلك خرج خروجا تاما عن التقليد الرومانى السليم الذى كان يقضى بالاهتمام بكل من التدريبين المدنى والعسكرى على حد سواء . كما أحال العرش ، عن طريق مصادرته لممتلكات أعدائه وخصومه على نطاق واسع ، إلى كنز زاخر ومطمع للطامعين ، ساعة أن كان البرابرة يحشدون قواتهم للهجوم على الأراضى الغنية المسالمة التى بدت إذ ذاك أمام أنظارهم ، فكان على الجيل

التالى أن يتبين — وبئس ما تبين — النتائج التى تترتب على تولى العسكريين الذين يفتقرون إلى الخبرة المدنية ، مقاليد الحكم . وكان انتصاف القرن الثالث نذير أزمة مروعة فى حياة الإمبراطورية ، إذ تدفقت أعداد غفيرة من القبائل البربرية ، فى ظل قيادات حاذقة فى أغلب الأحيان ، عبر الدانوب ، كما شق القوطيون (Goths) طريقهم صوب الجنوب منحدرين من موطنهم فى السويد إلى البحر الأسود ، بل وتوغلوا أيضا فى بحر إيجة . واستطاعت بلاد فارس الواقعة على الحدود الشرقية ، تحت قيادة أسرة مالكة جديدة من أمراء الساسانيين شديدى البأس ، أن توقع الهزيمة بالفرق الرومانيــة فى معركة سافرة ، بل تمكنت من أسر الإمبراطور فاليريان Valerian أيضا . واستفحلت الأخطار التى تهددت الإمبراطورية من الخارج ، بقيام ثورات وفتن فى الداخل ، ولكن من العجيب جداً أن هذه الإمبراطورية الممزقة الأوصال ، المتداعية البناء لم تصب فعلا بانهيار تام . والفضل فى بقائها يرجع فى الواقع إلى استماتة الأباطرة الرومان من أمثال فيليب Philip وديكيوس Decius وجاليانوس Gallienus فى الدفاع والذود عنها ، ويرجع أولا وقبل كل شىء إلى « المنقذين » العظيمين والجنديين الباسلين أوريليان Aurelian وكلوديوس الثانى Claudius II إذ عمدت روما إلى تعديل معدات جيوشها وأساليبها الحربية إلى إدخال التحسينات عليها مستفيدة ، كما هى عادتها دائما ، من خبرات أعدائها . فأمكن صد البرابرة ووقف زحفهم ، وسد الثغرات فى خطوط الدفاع وإعادة الطمأنينة إلى قلوب الأهلين الواجفة ونشر ألوية الوحدة عليهم من جديد . ولو أن هذا العمل كان عملا مجيداً فذاً ، إلا أن ثمنه كان باهظا . فخلال القرون الثلاثة التى تلت تولى أوغسطس الحكم ، انتقلت السلطة العليا شيئا فشيئا من يد طبقة النبلاء الرومانيين إلى يد الطبقات الأرستقراطية فى إيطاليا وفى الولايات ، ومن هؤلاء إلى القواد العسكريين فى الولايات ، وهؤلاء القواد يمثلون عادة فئة غير مثقفة تتصف بالوحشية والفظاظة ، ولكنها تتميز بأن اليأس لا يتطرق قط إلى نفوس بنيها ، وأنها

لا تنثنى عن الدفاع عن قضيتها . ووقع العرش فى النهاية ، فى عام ٢٨٤ فى يد حاكم إدارى عسكرى من إلّيريا ، هو دقلديانوس . فقسم الإمبراطورية رغبة منه فى مجابهة مقتضيات الموقف الجديد ، إلى أربعة أقسام ، وبذلك أصبح يشارك ثلاثة أشخاص آخرين فى الاضطلاع بأعباء القتال والحكم ، وكان عهده فاتحة مرحلة جديدة هامة فى نظام الحكم فى الإمبراطورية (انظر الفصل التاسع) .

وإذا تساءلنا ، كما يحق لنا ، عما أقام صرح الإمبراطورية المتداعى خلال فترة السنوات الخمسين العصيبة التى مرت بها بين عامى ٢٣٥ و ٢٨٥ ، فعلينا أن نذكر هنا عوامل ثلاثة على أقل تقدير . الأول والأهم هو الوعى التدريبى العميق — وقد دعاه الرومانيون باسم disciplina — وهو الوعى الذى نما وتطور خلال العصور المختلفة ، والذى أمد المواطنين الرومانيين ، سواء فى المسائل المدنية أو العسكرية أو الدينية ، بدربة كبيرة وبث فى نفوسهم الثقة فى قدرتهم على حسن التصرف حيال الظروف المحيطة بهم . والعامل الثانى هو وحدة الشعور ، التى لا شك فى وجودها ، والتى كانت تربط بين المواطنين بعضهم البعض ، على اختلاف أوطانهم وقبائلهم . إذ كانت روما تمنح الأمم المغلوبة حياة متمدينة منظمة رخية ، كما كانت تقطع لهم الوعود بمنحهم حقوق المواطنة الكاملة فى نهاية الأمر . وعلى العكس من هذه المزايا التى انفرد بها الرومان ، لم يكن لدى البرابرة الغزاة «نظام جديد» يمكنهم أن يلوحوا به لمواطنى الولايات ، إغراء لهم بالخروج عن ولائهم لروما . والعامل الثالث هو الاعتقاد الراسخ والشعور العميق بأن هذا الكيان الهائل المتسق للإمبراطورية ، التى صمدت لعوادى الزمن واطردت فى النمو طوال هذه القرون ، لابد وأن مرجعه رضاء الآلهة عنها ، وأن هذا هو الشىء الوحيد الثابت الخالد فى عالم شهد ضعف كثير من الدول وانهيارها ، فلا شك بعد ذلك أن روما لن تقهر أبداً . فما دام

مواطنوها يتبعون أساليب الحياة ، ومناهج التدريب ، التي خلفتها لهم ، وما داموا مستمسكين بوحدتهم قائمين على ولائهم للإمبراطور ، وما داموا يراعون الطقوس الدينية ، ويهتمون بأدائها ، فيقينا أن الآلهة ستظل راضية عنهم ، وبذلك تصبح روما بحق جديرة بالتسمية التي شرع الناس فعلا في مناداتها بها أي « المدينة الخالدة » (urbs aeterna) . ويظهر أن أحداث القرن الثالث عشر قد أثبتت ذلك بالبرهان القاطع ، فعلى الرغم من أن الموقف كان خطيراً للغاية ، فإن قدرة الآلهة وشجاعة مواطني روما قد دعما صرح الإمبراطورية المتداعي . وما إن أوشك القرن الثالث على الاقتراب من نهايته ، تحت حكم دقلديانوس ، حتى تجدد الأمل وكثر الحديث عن الإصلاح والتجديد Restauratio, Renovatio . ولعل ذلك انطوى من ناحية على عاطفة لا يقرها المنطق والعقل ، إلا أنه كان من ناحية أخرى تفكيراً عمليا سليما . فإن مدينة صمدت لأحداث الزمن طيلة عشرة قرون — إذ احتفل الإمبراطور فيليب عام ٢٤٧ بذكرى العيد الألفي لقيام روما احتفالا مهيبا — لا يمكن أن تقهر في يسر ، ولقد أيدت حقائق التاريخ الناصعة مثل هذا الشعور الوطني العميق .

الفصل الأول
الإمبراطور
شخصه - مركزه - معاونوه

لعله من الممكن أن نرجع تاريخ قيام الإمبراطورية الرومانية إلى شهر يناير سنة ٢٧ ق . م ، أى عندما طلب مجلس الشيوخ من القنصل القائم بالرياسة: جايوس يوليوس قيصر أوكتافيانوس C. Julius Caesar Octavianus أن يضطلع بقدر أعظم من الواجبات ، وذلك بأن يتولى شئون الولايات الواقعة فى بلاد الغال وإسبانيا وسوريا ، كما قلده المجلس قيادة القوات المسلحة فى تلك البلاد . ولكن هذا الرجل لم يلبث — مع تطور الموقف عاماً بعد عام — أن أصبح بالفعل القائم بالحكم فى الولايات المتاخمة للحدود ، والمناطق المضطربة القلقة فى الإمبراطورية ، عن طريق مندوبين يسمون Legati يختارهم بنفسه ، وبات أيضاً القائد الأعلى Generalissimo للجيوش الرومانية ، ومن ثم أصبح كافة الجنود والضباط العاملين يقسمون يمين الولاء أمامه لا أمام رئيس الجمهورية . وفضلا عن ذلك ، فإن لقب التشريف « أوغسطس » Augustus الذى خلع عليه فى الشهر عينه ، رفع من شأن مركزه وقدره ، لأن لفظة أوغسطس كانت تعنى شيئا قد خصص وكرّس لخدمة الآلهة وليكن معبداً أو آنية خاصة بالطقوس الدينية أو طقساً مقدسا ، وبذلك أحاطه هذا اللقب بهالة ترتفع به عن مستوى البشر إن لم تكن تضفى عليه صفة الألوهية . على حين أن مجلس الشيوخ قد احتفظ بحكم تلك الولايات التى كانت غالبيتها تتاخم البحر الأبيض وتتميز بانصياعها وسلس قيادها . وكان المجلس يعين سنويا ، من بين أعضائه ، قناصل

أو برايتوريس سابقين حكاما لهذه الولايات عادة لمدة عام ، أو ثلاثة أعوام على أكثر تقدير . وهكذا قام هناك ما يشبه التوازن بين سلطات مجلس الشيوخ وسلطات أوغسطس ، فمجلس الشيوخ كان يدير الولايات الداخلية المستقرة التى يسودها السلم بينما كان أوغسطس يضطلع بحكم المناطق المتاخمة للحدود والبلاد الأشد اضطرابا ، وكان يحمى هذه وتلك بالقوات الخاضعة لإمرته ، المرابطة فى تلك المناطق .

بيد أن هذا التوازن لم يكن إلا توازنا ظاهريا ، ذلك لأن أوغسطس لم يكن قائداً أعلى فحسب ، بل كان فى مقدوره التدخل تدخلا فعالا فى كل مرفق من مرافق الدولة . فعلى الرغم من أنه تخلى عام ٢٣ ق . م . عن منصب القنصلية ، إلا أنه منح السلطة البروقنصلية Imperium Proconsulare المعهودة التى تخول له حكم الولايات ، وإن كانت هذه السلطة imperium قد وضعته أيضا فى مصاف نواب القناصل Proconsuls ونواب البريتوريس Propraetors (لا أكثر من ذلك) فإنه قد نص صراحة على أن هذه السلطة أرفع من مثيلاتها . وثمة ثلاث حقائق أخرى ، وهى استحواذه على سلطة التربيون ، وتمتعه بالسلطة المعروفة بالـ auctoritas ووجوده فى روما ، أكدت جميعها عظمته وعلو شأنه دون منازع . ذلك لأن سلطة التربيون جعلت فى مقدوره أن يعترض ، إذا ما اقتضت الضرورة ، على أى إجراء ، كما خولت له حق العفو فى القضايا التى يفصل فيها خارج إيطاليا ، أما تمتعه بالأكتوريتاس فمعناه أنه كان يقام لمشورته وآرائه وزن كبير ، وأن من الحكمة ألا يحاول الحكام عصيانها ، كما كان أوغسطس فى العادة محور كل ما يدور فى روما ، فهو دائما رهن الإشارة ، قابض على دفة الأمور دواما . وبمضى الزمن ، لم يعد لعاقل أن يتجاسر على معارضة رئيس الإمبراطورية ، الذى كانت تستند مكانته السامية إلى سلطاته الدستورية الواسعة ، والذى كانت تخضع لإمرته ثلاثون فرقة تقريبا .

وهكذا نرى أنه وإن كان قد قدر أن يشارك أوغسطس مجلس الشيوخ فى الاضطلاع بمهام الحكم فى الإمبراطورية الرومانية ، فلم يكن هناك أدنى شك فيمن كانت له السيادة من الشريكين . بيد أن الحاجة لم تدع قط إلى إثارة الخلاف حول هذه المسألة ، ذلك لأن أوغسطس الذى يعد أيضا العضو الأول فى مجلس الشيوخ ، لم يكن محبا للظهور ، كما أنه عمد دائما إلى إخفاء سلطاته عن الناظرين ، فكان يؤثر أن ينظر إليه على أنه مواطن يعيش بين إخوانه المواطنين ، وكان يتجنب الظهور — حيثما كان — بمظاهر الأبهة والسلطان ، كما أنه وضع نفسه قريبا من الناس ، وكان بطبيعته وديعا متواضعا ، وقد أثار دهشة الكثيرين من زوار روما ما كانت عليه داره من بساطة ورقة حال .

ومع أنه سعى جاهدا لكى يظهر فقط فى ثوب المبرز بين أقرانه ، إلا أن مظاهر التكريم والتمييز التى أحيط بها دعمت وأبرزت مكانته الرفيعة السامية . فأمام داره المتواضعة ، علق إكليل من أغصان شجرة البلوط ، وهو الوسام الذى يمنح عادة لمن أبدى شجاعة فى إنقاذ حياة أحد المواطنين ، وكان يعلو واجهة الدار سقف هرمى ، يجعلها قريبة الشبه بالمعابد الدينية . كما قام مجلس الشيوخ والشعب عام ٢٧ بإهدائه درعا ذهبيا يحمل نقشا يقول « إن هذه الهدية قد قدمت لتكون شاهدا على شجاعته ورحمته وعدالته وورعه » . ومنذ ما يقرب من أربعة قرون مضت شغل الفلاسفة والمفكرون بالتأمل فى الفضائل التى ينبغى أن يتحلى بها الحاكم المثالى ، بيد أن هدية الدرع هذه ما لبثت أن أعلنت للملأ أن الحاكم المثالى قد حل فى هذه الساعة واللحظة ، الحاكم القوى الجبار عن رحمة ، والعادل المنصف فى معاملاته ، والصادق الصالح أمام الآلهة والناس . كان الإقدام والشجاعة صفتين لازمتين للقائد الرومانى . وإذا كان أوغسطس على رأس الجيش فإن القواد من دونه يستمدون القوة منه ، ويظفرون بالانتصارات بشفاعته ، والحقيقة أن النصر كان حليفه دائما حيثما ذهب ، ولا غرو فإن تمثالا ذهبيا لإلهة النصر

كان يقوم دواماً فى حجرة الإمبراطور الخاصة . والرحمة والعدل فضيلتان لازمتان لأى حاكم . أما الورع ، أو ما كان يعرف عند الرومان باسم Pietas فالمقصود به العلاقة الصحيحة بين الآلهة والناس . وإن بقاء روما على قيد الحياة ليتوقف دواما على سلامة الصلة بين الآلهة — بين تلك الكائنات العلوية غير المرئية التى تقوم بحماية الدولة — وبين المواطنين المرئيين على الأرض ،إذلا يتم توطيد السلام الإلهى Pax Deoum ، إلا إذا آمن المواطنون الرومانيون قاطبة بآلهتهم الرومانية وعبدوها وأقاموا لها الطقوس الواجبة على أكمل وجه.وكان الإمبراطور — كما يستدل من لقبه « أوغسطس » — بمثابة وسيط بين الآلهة والناس ، كما كان مثلا يحتذى فى الورع . وقد تولى أوغسطس ومن جاء بعده الرئاسة العليا للكهانة فى الدولة الرومانية ، وكانوا جميعاً رعاة لعذارى الإلهة فستا Vestal Virgins ، اللائى كن يقمن بإذكاء النيران التى لا تطفأ فى معبد إلهتهم التى تمثل إلهة موقد الدار الرومانية فستا Vesta . وهكذا كانت الديانة الرومانية والإمبراطور الرومانى ، مرتبطين ببعضهما البعض أوثق ارتباط .

إن الشجاعة والرحمة والعدل والتقى ، وإن كانت بالطبع صفات الحاكم المثالى، فإنها أيضا ترسم الفضائل التى يجب أن يتحلى بها أى فرد من عامة الناس ، محب للقتال ، عادل لطيف المعشر ، والحاكم ليس بإله بل مواطن مبرز بين إخوانه المواطنين . وعلى الرغم من أن تغييرات كثيرة طرأت خلال القرون التالية ، إلا أننا نرى أن قسطنطين Constantine قد تقبل — بعد مضى ثلاثمائة وخمسين سنة على هذا التاريخ — فى رضا بالغ هدية الدرع الذهبى والفضائل الرومانية المنقوشة عليه . أما الشرق اليونانى الذى ألف قيام الملكيات الكبيرة، فقد كان ينظر إلى أوغسطس نظرة واقعية ، إذ كان يعده ملكا وينادى به كذلك، وينتظر من الأباطرة أن يعلنوا ويبرهنوا على حبهم لبنى البشر Philanthropia واستعدادهم لتقديم يد المساعدة للرعايا الذين يخضعون لحكمهم ، ورغبتهم فى

العمل لصالحهم ، ومن هنا جاء اللقب الشائع Euregetes أى «المحسن» الذي يطلق على الأباطرة . وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان هناك ميل كبير إلى اعتبار الإمبراطور، وهو لايزال على قيد الحياة ، إلها (theos) أو إلى مساواته بالإله المحلى كمساواة نيرون بإله الشمس فى جزيرة رودس . أو تشبيه هادريان بالإله زيوس الأولمبي Zeus of Olympia الذى يعبده الإغريق قاطبة . أما فى روما وإيطاليا فكان من المتعذر اعتبار أى إمبراطور على قيد الحياة بين آلهة الدولة لأن مجلس الشيوخ كان وحده صاحب الحق فى إضافة آلهة جديدة إلى مجموعة الآلهـــة الرومانية، ومجلس الشيوخ إن هو إلا ذخر للعادات والتقاليد .وهذا هو السبب فى مشاعر السخط والنفور التى لقيها كاليجولا ونيرون ودميشيان وكومّـودس لمحاولة كل منهم الخروج على هذا التقليد بدرجات متفاوتة .

كما اختفت بشكل ملحوظ ، منذ بداية النظام الرياسى أيضا، الأبهة والعظمة التى كانت تصاحب عادة الملكيات القديمة . فأوغسطس، رغم احتفاظه بحرس خاص من الجنود الجرمانيين ، ورغم أنه كان يظهر فى المناسبات الرسمية بصحبة اثنى عشر حاملا للعصى lictores ، كان حريصا على تجنب المباهاة والظهور، وقد رأى ذات مرة أن يدخل المدينة ليلا حتى يوفر على الأهلين مئونة الاحتفال به والاحتفاء بمقدمه ، كما كان يظهر بشخصه فى المحاكم العامة عند استدعائه إليها ، بل إنه طلب من شاك خجول أن يمد يده بشكواه فى جسارة لا أن يفعل «كمن يقدم فلساً لفيل» .ولقد أمّـنت هذه المكانة وهذه الشعبية أغسطس على حياته ، فانقطعت عادة تفتيش الزوار قبل الدخول عليه . غير أنه لم يعد هناك مفر بعد تزايد سلطات رئيس الإمبراطورية ، وتطورها ، واستقرار النظام نفسه واستلفاته الأنظار، من أن تزداد مظاهر الأبهة والرونق . فكان نيرون ، بما عرف عنه من شغف بالتظاهر وولع شديد بتسليط الأضواء على شخصه ، أول من أدخل نظام الجوقات التى تدرب تدريبا محكما على التهليل لمقدمه وتحيته بهتافات قصيرة فى

نغمات إيقاعية ، كما لم يكن هناك مفر من أن تتأصل جذور هذه العادة شيئا فشيئاً حتى يصبح من المقرر فى أواخر القرن الثانى ، أن يتقدم موكب الإمبراطور دائماً حملة المشاعل وحملة الشموع والفتية الذين يلوحون بالمباخر ، وسط الهتاف والدعاء اللذين يرتفعان على أنغام الموسيقى . وإن العرض المهيب الشديد التعقيد والمراسيم التى تقام فى أثناء المآتم الإمبراطورية العظيمة (كما وصفها المؤرخ اليونانى هيروديان Herodian) لتصور لنا بعض ما كان يجرى فى هذه الاحتفالات الضخمة والمهرجانات الكبيرة ، يقول هيروديان : «وعلى مذبح عظيم الارتفاع وقد تمثال من الشمع ، مكسو بملاءات موشاة بالذهب وأغطية ثمينة نادرة ، يلتف حوله رجال ونساء من علية القوم فى لباس الحداد ، وبعد انقضاء أيام سبعة ، نقل التمثال فى موكب حافل يضم جوقات الفتيات والفتيان الذين ينشدون له التراتيم الحزينة الباكية ، نقل إلى الفوروم Forum ومنه إلى « ميدان مارس Field of mars » ، حيث أقيم بناء خشبى يرتفع إلى أربعة طوابق ، مزين بالأكسية الموشاة بالذهب والتماثيل العاجية والنقوش والرسوم . وكان المذبح مقاماً بالطابق الثانى ، وقد غمر بالعطور والتوابل والأعشاب ذات الرائحة الزكية ، كما أخذت كوكبة من الفرسان فى التحليق حول المحرقة فى سير بطىء . وفى النهاية عندما أشعلت النيران فى المحرقة ، أطلق نسر من الطابق العلوى لحلق مرتفعا فى الفضاء حاملا روح الإمبراطور الراحل إلى السماء » .

وكان من الطبيعى أن يصحب هذا الميل إلى مظاهر الأبهة والعظمة ، اهتمام متزايد بمظاهر التقديس فى شخص الإمبراطور . فباعتباره رئيس الدولة ، لم يكن هناك بد من أن ينظر إليه على أنه يمثل الجمهورية ويحتل مكانة خاصة بالنسبة للآلهة (انظر الفصل الثامن) ، وثمة تقليد كان يقضى بأن تقام احتفالات عظيمة كل مائة عام (Ludi Saeculares) ، إيذاناً بانقضاء عهد من العهود وبدء قرن جديد فى ظل عناية الآلهة ورعايتهم . وقد أقيمت مثل هذه الاحتفالات

بصورة رسمية توحى بالرهبة تحت رعاية أوغسطس ، وذلك عام ١٧ ق . م . لتكون إيذاناً بانقضاء فترة الحروب الأهلية المروعة ، وما جرّته من اضطراب وفوضى ، وفاتحة لعهد جديد يسوده السلم والنظام والعدل . وكان اسم أوغسطس على رأس القائمة التى ضمت أسماء من حضروا الحفل . ولكنه ما إن توالت السنون وتلاحقت الأعوام ، حتى أخذ الإمبراطور وزوجه — وهذا هو الأهم — يلعبان دوراً كبيراً فى شئون البلاد ، فكانت تقام من أجلهم الصلوات العامة للدعاء بسلامتهم وبصون دورهم وأسرهم . والواقع أن الأمر قد ذهب إلى أن أصبح الإمبراطور يتمثل فى نفسه ، رويداً رويداً ، جلال الشعب الرومانى ، ويحمل سمة القوة والإرادة الإلهيتين اللتين صانتا — بصورة تدعو إلى الإعجاب — هيبة روما ودعمتا سيادة تلك « المدينة الخالدة » كما أصبحت تدعى . وما من شك فى أن أى فرد ، بغض النظر عن مدينته أو موطنه ، وبغض النظر عن الآلهة الوطنية التى يتعبد لها — لابد وأن يتعرف على قوة إلهية Numen تعمل عملها فى الإمبراطور الحاكم ، ذلك الإنسان الذى يحظى برضاء الآلهة وينعم ببركتهم ، ولا يختلف فى ذلك اثنان ، أما الإمبراطور ، فسواء أكان يقيم فى قصره فى روما أم كان يطوف بولاياته ، فهو يمثل فى شخصه المنظور الكريم الجبار ، تلك القوة الإلهية التى تقيم دعائم مدينة روما وتحفظ كيان شعبها . وما لبثت أسرة أوغسطس وعائلته أن اكتسبت بمضى الزمن صفة القدسية فأضحت Divina domus (١) وأصبح الانحدار من أوغسطس بمثابة سند وتكأة لتولى العرش ، وعلى الرغم من أن الأسر المالكة التى تربعت على عرش الإمبراطورية من بعده ، وهى أسر فلافيوس Flavius وأنتونينوس Antoninus وسيفيروس Severus ، لم تكن تمت بأية صلة لأسرة أوغسطس الأولى ، فإنها منحت لقب أوغسطس واتخذت اسم قيصر ، وبذلك أضفت على

---

(١) الترجمة الحرفية « بيت مقدس » ، مجازاً « عائلة أو أسرة مقدسة » .

نفسها مثل ذلك البريق، وتلك الأحقية الشرعية التى كانت ترتبط بذلك الاسم الكبير . وإذ كان الإمبراطور يمثل بصورة ظاهرة ما هو خفى من قوة روما العتيقة السرمدية فإنه شاركها بدرجة ما فى مثل ما كان لها من خلود ، ومن ثم أصبح من الممكن بمضى الزمن أن يخاطب هكذا : « يا صاحب الخلود » ، أو بألقاب مأخوذة عن تلك الفضائل التى يتوق العالم إلى أن يراها ممثلة فى حكامه ، مثل « يا صاحب الرحمة » و « يا صاحب الحكمة » و « يا صاحب الجلالة » و « ياصاحب الغبطة » . ولقد جنحت هذه الألقاب ، وكثير غيرها — التى بقى لنا منها لقب واحد على أقل تقدير — جنحت إلى تمجيد الحاكم باعتباره المصدر الأوحد للحق والقوة .

ورغم كل ما سبق ، فإنه لا يحق أن يعامل الإمبراطور أو يخاطب — وهو على قيد الحياة — على أنه إله (deus) ، وذلك باستثناء بعض الحالات الشاذة المذهلة مثل جنون كاليجيولا ، أو غرور نيرون واستهلائه أو استبداد دوميشيان الشديد أو الهوس الدينى الذى أصيب به إلاجابالوس Elagabalus ، هذا رغم الإيمان بأنه قد وهب من قبل الآلهة ، وأنه يمضى على هديها ، ورغم أنه من الممكن أن يقابل بمظاهر التكريم التى تقارب فى الشبه — ولا تماثل — تلك التى يحاط بها الآلهة . ولن تعتبر معاملة الإمبراطور على النحو السالف ، سوى خروج سافر على كل ما جرى عليه الرومان منذ القدم . بيدأنه كان يعد من اللائق عند وفاة الإمبراطور أن يضمه مجلس الشيوخ إلى قائمة من تعبدهم الدولة رسمياً ، اعترافا بما حققه من أعمال مجيدة وما جلبه من خير عميم ، وتقديرا لخدماته ، (meritum) وكانت هذه هى الجائزة التى نالها أوغسطس وكلوديوس وفسپاسيان وتيتوس ونيرفا وتراجان وهادريان وأسرة انتونينوس وبيرتيناكس Pertinax وسبتيميوس سيفيروس Septimius Severus وكثيرون غيرهم . واحتفظ بعضهم بهذه القدسية خلال عدة قرون ، فذكرى أوغسطس المؤله Divus Augustus ، باعتباره

مؤسس الإمبراطورية ، ظلت ثابتة متأصلة فى عقول شعبه وأفئدتهم ، وكذلك الحال مع تراجان أيضا ، والحال مع ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (الذى سادت عبادته حتى القرن الرابع تقريباً) غير أنه قد قدر لواحد أو اثنتين منهما أن يطويهما النسيان ، أو يخليا موضعيهما لآخرين ، وهذا ما حدث لكلوديوس الذى طغت على عبادته ، فيما يبدو ، عبادة بيرتيناكس . وقد أمر أحد الأباطرة ، ويرجح أنه ديكيوس Decius ، رغبة منه فى إذكاء المشاعر الوطنية ، وتذكرة للشعب بمفاخر الماضى ، وذلك قبيل الاحتفال بمرور ألف سنة على تأسيس روما ، أمر بأن تضرب مجموعة من النقود التذكارية لإحياء ذكرى الأباطرة المؤلهين ، من أوغسطس إلى سيفيروس الإسكندر Severus Alexander ، تمثل أحد عشر إمبراطوراً ، كما أننا نسمع أيضاً فى وقت متأخر عن قائمة منتخبة من الأباطرة المختارين لعبادتهم ، ولدينا ما يؤكد أن فسباسيان وتراجان وهادريان وماركوس أوريليوس وسبتيميوس سيفيروس ، وعلى رأسهم أوغسطس ، قد احتفظوا بمكانتهم أبدا .

كان هذا هو وضع الإمبراطور : فإن مهام إدارة هذه الرقعة المترامية التى تحتلها الإمبراطورية قد قسمت بين مجلس الشيوخ (ص ١٨) الذى كان يبعث إلى ولاياته بحكام من بين الموظفين السابقين يختارون بالقرعة (تحاشيا للتحايل والرشوة) وبين الإمبراطور الذى كان يختار لحكم الولايات الهامة رجالا من مرتبة أعضاء مجلس الشيوخ ، ويختار فرسانا لتعيينهم فى المقاطعات القليلة الأهمية ، وكان كل من هؤلاء الحكام يتقاضى مرتبا مجزيا ثابتاً ويبقى فى منصبه حسبما يرى الإمبراطور . وهكذا نرى أن حكام الولايات كانوا يجندون فى الأصل من بين أفراد الطبقة التى كانت تمثل الثراء والعلم والخبرة الإدارية الطويلة ، ألا وهى طبقة الشيوخ . ولما كان فى وسع الإمبراطور ، لا أن يوصى بانتخاب من يشاء لتولى المناصب العامة فحسب (ومعنى ذلك أن مثل

هؤلاء كانوا يفوزون بالتزكية) بل كان يخول له أيضا ، كما جرت العادة ، الحق فى خلق أسر جديدة من النبلاء ، وأن يضم إلى مجلس الشيوخ أعضاء من أصول غير عريقة وإن كانوا ممن يشهد لهم بالجدارة والتفانى فى الخدمة ، فإزاء ذلك أصبحت طبقة مجلس الشيوخ تستمد أعضاءها الجدد ، بصورة مطردة ، من بين الطبقات الدنيا ، وبذلك أمكن سد الثغرات التى تحدثها أرزاء الحروب الأهلية وبلاياها . وأصبح أيضا فى وسع أبناء هذه الطبقة أن يدخلوا ، عند بلوغهم الثامنة عشرة من العمر ، فى سلك الوظائف العامة التى تتناوب فيها فترات العمل فى الوظائف الإدارية الصغيرة مع فترات الخدمة العسكرية ، فيتيسر لهم بذلك إعداد أنفسهم لتولى المناصب العليا .

ذلك لأن الترقى أصبح فى النهاية وقفا على من هم على استعداد بالفعل للاضطلاع بالأعباء الملقاة على عاتقهم . ولو انتقلنا إلى ما بعد هذا التاريخ بجيلين أو ثلاثة فإننا نجد أن الأمل قد يداعب الجندى العامل نفسه ، الذى يتميز على أقرانه شرفا ومرتبة ، فى أن يرى أبناءه وقد ارتقوا إلى مرتبة الفرسان أو ربما يتجاوزون هذه المرتبة أيضا ، والمعروف أنه كان من الميسور ترقية الفرسان إلى مناصب عليا . ومثال ذلك أنه قد حدث من جراء الحرب الأهلية التى نشبت عام ٦٩ ، أن ظهرت فجوات بصفوف الطبقة الأرستقراطية الحاكمة ، فاضطر فسباسيان إلى أن يختار من بين طبقة الفرسان من يتولون قيادة فرقه ، وفضلا عن ذلك فإنه أعاد النظر خلال عامى ٧٤ و٧٥ ، باعتباره رقيبا ، فى قائمة أعضاء مجلس الشيوخ ، فضم إليها عدداً كبيراً من الأعضاء الجدد ممن برهنوا . بتفانيهم فى خدمتهم العسكرية (والقتال إلى جانبه) على حماسهم وجدارتهم ، والحقيقة أن كانت هناك دورة متصلة : فثمة أسر تأخذ فى الارتفاع شيئا فشيئا ، وفى تدعيم مركزها إلى أن تنضم فى النهاية إلى الطبقة الأرستقراطية ، فى مجلس الشيوخ ، تلك الطبقة التى كان يغبطها الجميع ، وبذلك

تحل محل الأسر العريقة التى انقطعت ذريتها أو هوت مكانتها . وقد حدث فى القرن الثانى أن ادعت إحدى الأسر ، وهى أسرة أكيليوس جلابريونيس Acilii Glabriones أنها من سلالة أينياس Aeneas ، غير أنه لا يرجح وجود أسر كثيرة من هذا القبيل . ولم يشهد القرن الثانى أحداً من سلالة أوغسطس يشغل منصباً بارزاً ، وربما كان هذا هو الحال أيضاً بالنسبة لأسرة فلافيوس ، ولكن هذه الأسر العريقة قد أفسحت مكانها لأسر كبيرة ارتفع شأنها بين أهل الولايات . ومن ثم انحدر كل من تراجان وهادريان وانتونينوس وماركوس أوريليوس من أسر كبيرة عظيمة النفوذ كانت تقطن إسبانيا وجنوب فرنسا ، كما لم يعد الإمبراطور ، فى ذلك الحين ، ليتردد قط فى ضم يونانيين من بلاد آسيا الصغرى إلى مجلس الشيوخ وفى أن يبعث بهم لتولى قيادة الفرق الرومانية أو لحكم الولايات التى كانت لهم بها دراية خاصة . ولم يكن هؤلاء اليونان لينالوا حقوق المواطنة أو ليظفروا بالانضمام إلى مجلس الشيوخ ، إلا بعد مرورهم بامتحان عسير ، ذلك لأنه لم يكن من السهل قط كسب رضاء الإمبراطور أومستشاريه . ولعل من أعظم ماحققته الإمبراطورية أنها لم تكتف بالسماح لغير الرومان بنيل حقوق المواطنة من أجل الخدمات التى يؤدونها ، وتقلد هؤلاء الرومان الجدد المناصب العامة ، بل لقد وفقت أيضا إلى اختيار التوقيت الزمنى المناسب لقبولهم فى الطبقة الممتازة المسئولة

كان يقوم — كما رأينا — بأعباء الحكم فى كل من الولايات التابعة لمجلس الشيوخ وتلك التابعة للإمبراطور ، أناس على قدر كبير من الحنكة وفى مرتبة أسرية رفيعة ، ولعله من الغريب حقا أن هؤلاء الحكام ، كانوا لا يبعثون إلى الولايات التى كانت لهم بها خبرة سابقة فى أثناء توليهم قيادة القوات هناك ، ولو أن ماحدث فى بريطانيا يعد استثناء بارزا لا يتفق والفكرة السالفة ، بيد أنهم كانوا يشدون رحالهم إلى الولايات بمجرد أن يتم تعينهم ، مستندين إلى خبرتهم فى القيادات العسكرية والمناصب المدنية ، مصطحبين معهم أيضا أصدقاءهم

ممن كانوا يعتمدون على خبرتهم ودرايتهم فيتخذونهم أعواناً مقربين لهم . ويصحبون معهم ، فضلا عن هؤلاء ، هيئة إدارية وتنفيذية تتألف من ثلاثين شخصا ، وضابطا أو اثنين من الضباط برتبة قواد مائة وموظفين للمراسلات ومحاسبين وكتبة ، وخدما وحشما، وطائفة أخرى من الموظفين ممن يمكن تسميتهم باسم موظفى الشرطة ويطلق عليهم باللاتينية questionarii, speculatores وكان لهم فى الولايات السلطة على المواطنين الرومانيين المقيمين بها ، وعلى سكانها الوطنيين أيضا، ولكن كان عليهم أن يراعوا وجوب احترام الحقوق والامتيازات والعادات السائدة فى المدن القديمة الشهيرة مثل أنطاكية Antioch وأفسس Ephesus وميليتس Miletus وطرسوس Tarsus . وكان أعيان المواطنين فى الولايات يقومون بدور المستشارين القانونيين للحاكم ، عند النظر فى القضايا، كما كان للمواطنين الرومانيين ذلك الحق الشهير المعروف باسم «العياذ بقيصر»، وفيما عدا هذا الحق ، فقضاء الحاكم مطلق . وكان من بين واجبات الحاكم القيام بحملات التفتيش ، وحضور الاحتفالات العامة والمراسيم المدنية حيث يسهب الخطباء فى الغالب فى خطبهم ويكثرون من الإشارة إلى مفاخر الماضى وأمجاد العصر الغابر، ويمعنون فى إطراء الحاكم وتملقه، وهو فى ذلك مكره على الإنصات، حريص على ألا تبدر منه بادرة سأم أو ملال . وكان عليه أن يتبين وجه الحق وسط حشد من الخطباء المفوهين البارعين ، كما كان عليه أن يدرك بالفطرة السبيل إلى مواجهة المواقف الدقيقة وإلى تجنب نشوب ثورات شعبية ،وتحاشى الأخطار المحدقة بشخصه أيضاً ، فإن حاكما لا يحظى بحب الجماهير ، تحدثه نفسه بالخروج فى بعض الولايات بلا حراسة مشددة ، لهو ملق بنفسه فى التهلكة . وقد وجد موظفو الإمبراطورية فى كافة الأباطرة ، حتى الفاسدين منهم ، قضاة قساة يأخذون بالشدة كل من أساء التصرف ، ويروى أن تيبريوس Tiberius قد استدعى أحد عمال الخراج للمثول بين يديه ، فما كان من عامل الخراج هذا

وقد استولى عليه الذعر والهلع إلا أن آثر تجرع السم على أن يواجه قضاءه المحتوم. بيد أن الشواهد تدل على أن إدارة الولايات فى القرنين الأول والثانى ، كانت فى مجموعها إدارة محكمة أمينة ، ولو أن ما حدث فى ولاية اليهود يعد الاستثناء الصارخ الوحيد لهذه القاعدة ، أما عن حسن اختيار الأباطرة لولاتهم ، فهاك الدليل : لقد بلغ تيبريوس يوليوس سيفيروس Tiberius Julius Severus ، اليونانى الأصل الذى ولد فى كبادوكيا Cappadocia ، فى عام ١٥٠ تقريبا ، من ذيوع الصيت لعدالته وحكمته فى إدارة مقاطعته فى بيثينيا Bithynia ، درجة بقيت معها ذكراه عاطرة يلهج بها الشعب مدة تجاوزت الثمانين عاما .

وكان أمام أهل الولايات سبلا مختلفـــة للإفصاح عن مشاعرهم ، سواء انطوت على سخط أو رضا ، فكان فى وسع المجالس البلدية فى المدن التى يزخر بها الشرق أن تصدر قرارات التقدير والتكريم ، بينما كان فى مقدور الأهلين عند اجتماعهم بالمسارح أن يبلغوا الحاكم توا بشكواهم أو مطالبهم . أما فى الولايات الغربية ، فقد أدخل أوغسطس تقليدا يقضى بعقد « مؤتمر عام » يجتمع مرة كل عام فى عاصمة الإقليم ، ودعم خلفاؤه هذا التقليد من بعده ، فكانت تقام فى هذه المؤتمرات التى كانت تعقد فى أحد المعابد أو حول مذبح موهوب « لروما أوغسطس» المراسيم الدينية التى تتركز حول ديانة الإمبراطور ويؤديها كاهن معين يتبع عقيدة « روما وأوغسطس » ، وذلك مرة كل عام ، ولكنه ما إن تنتهى هذه المراسيم حتى يشرع الرؤساء والأعيان المجتمعون ، فى مناقشة المسائل ذات الأهمية بولاياتهم وربما تقدموا ، إذا ما دعت الحاجة ، بشكاوى ضد الحاكم أو ضد تابعيه .

ولعل أعظم نفع عاد به الحكم الرومانى على الإمبراطورية الرومانية الشاسعة ، هو تطبيق نظام عالمى موحد لنشر العدالة ، يقوم على أسس راسخة من قانون عريق مر بأعقد التجارب ، ألا وهو القانون الرومانى الذى نما وتطور على مر

العصور . وهو وإن كان رومانيا قلبا وقالبا ، إلا أن طابعه الرومانى الخالص نفسه هو الذى قضى بضرورة الاعتراف بأهمية ما أقره العرف وجرت علية التقاليد لدى غير الرومانيين من الشعوب والأمم . وعلى ذلك فقد كان فى وسع الحاكم أن يتخفف من حرفية القانون استنادا إلى العادات المحلية كما يفسرها أقطاب الأهلين فى البلاد ، وبذلك ظل النظام كله مرنا طيعا لا جفاء فيه . كتب أحد الأباطرة إلى قائد من قواده يقول : « وإن كنت فى شك فعليك باتباع القانون المحلى للمدينة » . وكان من المبادئ الرومانية السليمة أن العادة هى أفضل مفسر للقانون Optima est legum interpres consuetudo . وقد قام الأباطرة والمشرعون بعمل مجيد فى سبيل نشر المساواة .والتعاطف الإنسانى والعدالة . وإليك بعض الأمثلة القليلة : كان السيد فى الأزمنة القديمة أن يترك عبده المريض طريح معبد أسكليبيوس Asclepius ، أملا فى أن يشفيه الإله . فماذا لو لم ينعم عليه الإله بالشفاء ؟ لم تطق نفس الإمبراطور كاوديوس الكريمة السامية هذا النكران الفاضح لواجب إنسانى مقدس ، فقضى بأن يعتق هذا العبد لساعته ، لو منّ عليه بالشفاء . وسار هادريان شوطاً آخر فقضى بأنه من الممكن أن توجه إلى السيد تهمة القتل . لو لقى العبد المطروح حتفه ، كما لم يتردد هادريان فى أن يحكم بالنفى على سيدة ثرية عاملت عبدها بقسوة ووحشية . وكان القانون فى القرن الأول يقضى بأن المرأة الحرة التى تتصل بعبد سيد آخر (مع رضاء ذلك السيد) تظل حرة بينما يعتبر ابنها عبدا ، ولكن هادريان أعاد قانون القبائل(Ius Gentium) « بعد أن تأثرت نفسه للإجحاف الذى ينطوى عليه الأمر ولمجافاة القانون للمنطق inelegantia iuris » فقضى بأنه مادامت الأم حرة فإنه ينبغى أن يكون ولدها حرا . كما أن المشرعين لم يقصروا اهتمامهم بالشروح فحسب بل ابتدعوا أفكارا جديدة مثل فكرة النية . فقيل : « إنه يتحتم النظر عند الفصل فى الجرائم ، إلى النية لا إلى النتيجة » . وقد يكفينا للدلالة على ذلك مثال واحد : كان القانون يقضى فى عهد الجمهورية بأنه إذا

ما استأجر شخص من شخص آخر قطعة من الأرض لقطع الأحجار فيها ، فقد يحدث أن يقطع الأول الأحجار منها بالطريق المشروع وأن يعدها للنقل، فإذا به يفاجأ باعتراض الأخير على هذا العمل بحجة أنه لم يسمح للأول بنقل أحجاره بالعربات على أرضه ، وهنا لابد من أن يسقط فى يد المستأجر ويعجز فى ظل هذا القانون عن اتخاذ أى إجراء ضد المالك. غير أن عقلية أولبيان Ulpian الراجحة تبينت ماينطوى عليه هذا التصرف من ظلم وسوء قصد ، فأصلح هذا الخطأ بأن جعل من حق مستأجر الأرض الطعن فى احتجاج المالك . وعلى هذا القياس أيضاً ، فإن أزال شخص أو طمس عن جهل أو بطريق الخطأ ، حداً حجريا ، فيكفى أن توقع عليه عقوبة مخففة ، أما إذا كان فعل الإزالة مقصوداً فيجب أن يتناسب العقاب مع مرتبة الجانى ، ودرجة ذكائه . فقد يحكم على الثرى أو النبيل بالنفى ، بينما يقضى بالجلد أو الحبس الجنائى مدة سنتين ، على من هم أدنى مرتبة وأقل شأنا ممن كانوا مجرد أداة لتنفيذ أوامر رؤسائهم . وكان من الواضح أن هناك ميلا متزايدا إلى حماية الفقراء الضعفاء من الأغنياء الأقوياء ، ومما يثير العجب أن الفوارق الطبقية بين من هم فى المراتب الدنيا ومن هم فى المراتب العليا لم تسفر فيما يبدو إلا عن معاقبة أهل المراتب العليا بأشد العقوبات . ولم يكن يسمح لأى شخص بأن يستغل مركزه لإلقاء الرعب فى قلب خصمه ، وإذا ما أعلن متقاض أنه قد تعذر عليه إيجاد موكل عنه ، فإنه يتعين على القنصل أن يوفر له من يقوم بالدفاع عنه ، لأن القاعدة تقول : « ولا ينبغى أن يغلب شخص على أمره نتيجة لما يتمتع به خصومه من نفوذ ، لأن ذلك لن يعود على الحاكم إلا بالخزى والعار » .

بيد أنه مهما بلغت نصوص القانون من إحكام ، فإن النجاح فى تطبيقه تطبيقاً صحيحاً يتوقف دون شك على طبيعة الأشخاص الذين يوجهون السياسة. فعلى الرغم من أن العقوبات التى كانت تفرض على المواطن الرومانى لم تكن

بالعقوبات الصارمة ، كما كان فى وسعه أيضاً أن يروغ منها بأن يعمد إلى النفى الاختيارى قبل صدور الحكم بإدانته ، فإنه لم يكن من سبيل ، فى عهود الأباطرة المتخوفين أو المتهورين، إلى تجنب القسوة والعنف ، عند النظر فى قضايا الخيانة العظمى ، ولما لم يكن لدى الدولة مدعون عموميون فقد تحتم عليها أن تعتمد على المبلغين العاديين ، وكان من حق المبلغ إذا ما أفلح مسعاه أن ينال حصة من ممتلكات المتهم المصادرة . لقد كان الأباطرة من أمثال أوغسطس أو تراجان أو انتونينوس ، آمنين متسامحين ، بيد أن إمبراطوراً متخوفاً متخاذلا مثل كلوديوس ونيرون أو حاكم عقد العزم على سحق كل معارضة مثل دوميشيان أو سبتيميوس سيفيروس لفى مقدوره أن يتسبب فى أفدح الأضرار، بتشجيعه المبلغين وإقراره لاتهامات تافهة باطلة . ونتيجة مثل هذه الاتهامات أمام مثل هذا الضرب من الحكام ، مؤكدة معلومة ، فهى الموت مع ما يترتب على ذلك من مصادرة ممتلكات المتهم . ولكن يجب علينا أن نفطن إلى أن الاتهام بالخيانة العظمى لا يوجه فى العادة إلا للأثرياء أو النبلاء البارزين فى روما ، أما فى الولايات فيندر أن يوجه مثل هذا الاتهام إلى أحد ، وقد تنطوى العقوبات وبخاصة بالنسبة للطبقات الدنيا على شىء كبير من الصرامة والقسوة . فإذا ما صدر الحكم بإدانة واحد من ذوى المكانة الرفيعة ، فقد يحكم عليه بالنفى أو بالإبعاد عن البلاد ، وغاية الأمر أن تضرب عنقه (وفى وسعه أن يتجنب هذا المصير بالانتحار) . أما أفراد الطبقة الدنيا فعاقبتهم أدهى وأوخم ، فقد تكون عقوبة من تثبت إدانته منهم ، الجلد أو الأشغال الشاقة التى تقضى فى المناجم والمحاجر ، بل قد يصلب أيضاً . كما كان القانون صارماً إلى أقصى الحدود بالنسبة لمن ينادى أو يمارس طقوساً مبتدعة أو طقوساً سحرية، فقد يحكم على من يمارسونها بقتال الوحوش المفترسة فى الملاعب العامة ، أما الكهنة أنفسهم فقد يقضى عليهم بأن يحرقوا أحياء . وتقضى الشرائع فى بعض الأحيان وحيث تسود القوانين العتيقة البالية ، بتطبيق عقوبات بشعة مثل فض بكارة

العذارى قبل الموت ، أو دفن المذنبين أحياء ، وقد يحدث ، حين تنتشر موجات الرعب بين الجماهير ، أن يصر مجلس الشيوخ على تنفيذ تلك العقوبة البشعة ذات التاريخ السحيق ، التي كانت تقضي بقتل جميع العبيد في الدار التي اغتيل فيها سيدهم .

إن مثل هذه الضروب من الجور والقسوة ، كانت قائمة بالفعل ، ولا يمكن الصفح عنها ، ولكنه مسخ للحقيقة أن تزعم أن هذه كانت الطبيعة السائدة للأشياء . ولنا أن نتذكر جيدا أن عادة إعدام المجرمين شنقاً أمام الجماهير ، وعرض ذلك كما لو كان مشهداً شعبياً لم تتوقف إلا بعد القرن الثامن . وخلاصة القول ، أن العدالة الرومانية والقانون الروماني إنما يثيران إعجابنا من حيث إنهما يتسمان بروح عامة من الإنصاف والمرونة والسماحة . فكانت العدالة الرومانية ملكا للمواطنين جميعاً ، لا يمكن إنكارها عليهم ، وإن هذا هو المعنى الذي تنطوي عليه عبارة المساواة أمام القانون aequum ius . فقضى القانون الروماني بضرورة اطلاع المتهم على التهمة المنسوبة إليه ، وبأن يواجهه أيضا أصحاب الاتهام . « ليس للرومانيين عادة أن يسلموا أحداً للموت قبل أن يكون المشكو عليه مواجهة مع المشتكين فيحصل على فرصة للاحتجاج والشكوى » (أعمال الرسل ٢٧ : ١٦) . كما كان محظورا أن ينتزع مزارع أو عامل مشغول بجمع محصول أرضه أو كرمه ، من مصدر رزقه ويقتاد إلى المحاكم . وقضى القانون بألا يكون للنفوذ المحلي أو للأهواء الشخصية أي اعتبار . كما نص على أفضلية الشهادة الشفوية على الأسانيد المكتوبة وحدها ، لأن على الحاكم ألا يعتبر بما يدلي به ، قدر ما يعتبر بشخصية المتحدث نفسه ومدى ما هو عليه من صدق . وقضى بأن تحترم التقاليد والعادات الوطنية على الدوام . وإنا لنلمس هنا نظاماً للعدالة يتصف بالمرونة والحزم في آن واحد ، ويتسم بالإحكام وروح التسامح أيضاً ، وإنه لمن أعظم ما يحمد من معالم القرنين الثاني والثالث ، ما أبداه

الأباطرة ومستشاروهم القانونيون من رغبة فى إلغاء النصوص القاسية الشاذة من القانون ، والحث على وضع شروح إنسانية له .

غير أن القصاص والعدل لم يكونا يمثلان سوى ناحية بعينها — وإن كانت أهم النواحى فيما يبدو — مما يضطلع به الحاكم وما يقوم به من واجبات . إذ كان عليه أن يعمل على حماية مصالح الشعب الذى ترك فى رعايته ، وأن يحول دون وقوع الجور على أهل الولاية أنفسهم من جانب الدائنين الرومانيين أو الموظفين الماليين أو جباة الضرائب . كتب تيبريوس إلى حاكم اشتط فى الجباية يقول : « الراعى الصالح هو من يجز صوف غنمه لا من يسلخ جلودها » . وعليه أن يحمى ولايته من قطاع الطرق وأن يطارد اللصوص والمجرمين ، وأن يعمل على ألا يتوقف النشاط التجارى أو يقف دولاب العمل فى المدن نتيجة المظاهرات والاضطرابات ، وأن يتوقى المجاعات (انظر الفصل السابع) وأن يضطلع بألف عبء وعبء آخر . وما من شك فى أن بعض الحكام لم يثبتوا جدارتهم فى القيام بالمهام التى نيطت بهم ، بيد أن غالبيتهم العظمى فيما يبدو قد بلغت مستوى لائقاً من الكفاءة ، وبعضهم ظل شعبه يذكره بالفضل زمناً طويلا (راجع ص ٣٠) . ويعد النجاح الذى لاقاه الحكام فى تدبير شئون مقاطعاتهم ، خلال القرنين الأول والثانى ، مصداقا على امتياز النظم الرومانية التقليدية ، الخاصة بالتدرب على الإدارة المدنية . ولكن نجاحهم يدل من جهة أخرى على أن الهيئات الاستشارية المختلفة التى كانت تحيط بالإمبراطور ، والتى لم يصل إلينا من أخبارها إلا القليل ، كانت تضم رجالا يتمتعون بقدرة فائقة على اكتشاف المواهب الخفية وعلى الحكم الصادق على شخصية وقدرات الشبان الذين يتقدمون لشغل وظائف الدولة . وتحقق التعاون بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ ، منذ عهد نيرفا ، إذ أصبح مجلس الشيوخ يمثل أرفع مواطنى الولايات شأناً ، ومن ثم فقد بات كما يقول هيو لاست Hugh Last ممثلا « للرأى العام » فى الإمبراطورية . ولم يطرأ أى

تعديل جوهرى على طريقة التجنيد والتدريب المعهودة ، حتى تلك الفترة المشئومة التى تحدد بأواسط القرن الثالث ، حين جر النظام الجديد إلى وقوع انفصام حاد بين الوظائف المدنية والوظائف العسكرية . بيد أن هذا التغيير لم يأت طفرة بل سبقه ما مهد له منذ زمن بعيد ، فقبل قرن مضى،رغب هارديان فى أن يمنح طبقة الفرسان Equites وظائف مدنية بحتة ، بأن أدخلهم فى سلك الخدمة المدنية فى الدولة . وما لبثت أن ظهرت عام ٢٥٠ حاجة الإمبراطورية إلى رجال ذوى عزم وتصميم ، لا رجال من القابعين خلف المكاتب ، وقد أدرك جاليانوس Gallienus هذه الحقيقة ، وسارع إلى العمل بموجبها . ولهذا السبب يغلب فى التآريخ القديمة أن يظهر جاليانوس فى ثوب بطل الرواية المجرم بيد أن الحقيقة هى أن عهده كان كئيباً مظلما محفوفا بالمخاطر ، فإن النظام الذى وضعه أوغسطس بات (بعد مضى ما يقرب من ثلاثمائة عام من النمو والتقدم) فى أشد الحاجة إلى تعديل شامل كيما يواجه الموقف الذى كان قائما على الحدود والذى كان يختلف جد الاختلاف عن الموقف الذى كان سائدا فى العهد الذهبى لسلام أوغسطس paxaugusta .

ذلك لأن سلام أوغسطس هذا ، الذى يمثل ذلك العهد الذى شهد فيه الناس نهاية الحروب الأهلية ، ومطلع عهد جديد ، سادت فيه العدالة واستتب النظام وعمت فيه الحرية ، وأتيح فيه للدولة الرومانية أن تمضى قدما من جديد فى رعاية الآلهة الرومانية وبركتهم ، بعد أن نالت رضاءهم ، هذا السلام كان فى واقع الأمر نعمة كبرى ظاهرة للعيان ، عمت سكان الإمبراطورية قاطبةً سواء أكانوا مواطنين رومانيين أم كانوا من أهل الولايات . وقد قدر لهذا السلام الذى حققه أوغسطس أن يدوم مدة تزيد على مائتى سنة (لم تقطعها سوى حرب أهلية واحدة لم تستغرق زمنا طويلا) وقدر له أيضاً أن تعم خيرا مساحة شاسعة من العالم الغربى . ومؤسس هذا السلام ، هو دون أدنى شك -

ذلك المواطن العظيم المبرز ، أوغسطس ، « أبو الوطن (pater patriae) » .
وقد حدث فى أخريات حياته أن كان مارا بثغر بتيولى Puteolis ، فتقدم إليه بحارة وركاب إحدى السفن القادمة من الإسكندرية والتى لم تكن قد رست فى الميناء إلا منذ فترة قصيرة ، تقدموا إليه عندما علموا بوجوده ، وهم فى أبهى حللهم تتوج رءوسهم أكاليل الزهر ، وأطلقوا البخور ولهجوا بالدعاء له ، مثنين عليه صارخين :

« بك نعيش
بك نجوب البحار
بك ننعم بحريتنا وثرواتنا »

كانت هذه لفتة صادقة واعترافا بالفضل جميلا ، وكان أوغسطس جد جدير به . لقد حطم يوليوس قيصر الكثير ، بيد أن ابنه أقام صرحاً ثابت الأركان ، وقد صرح مرة مجاهراً : « أود لو مت أن أحمل معى أملا فى أن تبقى دعائم الدولة التى أرسيتها ثابتة لاتتزحزح من موضعها » . وكان أن تحقق له أمله . فالواقع أن الأساس قد أرسى بصورة تضمن له الثبات والدوام ، كما أنه رغم أن تغييرات وإضافات أدخلت على بنائه العلوى ، إلا أنه ظل راسخا لا يتزعزع . ولعله يمكن القول بصورة أخرى أن الكيان الذى خلقه أوغسطس كان يمثل كائناً حياً متكاملا قادراً على النماء والتطور .

الفصل الثانى
الدفاع
الجيش والأسطول

إن الواجب الأول لحاكم أى شعب هو أن يوفر لهذا الشعب أسباب السلامة والأمن ، بأن يخصص لحمايته العدد الكافى من القوات ، بينما يعمل ما من شأنه الحيلولة دون تحول هذه القوات المسلحة عينها إلى خطر يتهدد الشعب الذى تقوم بحمايته . ويوضح هذا الرأى على نحو ما ، أحد المبررات التى خولت لأوغسطس تولى مثل هذه السلطات الواسعة ، فقيل إن تقليد القيادة العليا لقائد واحد ، هو السبيل الأمثل إلى تنسيق الدفاع عن الملك ، ومنع الطموحين من القواد من تزعم الثورات والفتن . وعلى ذلك ، فقد تولى أوغسطس (وكل من خلفه من الأباطرة) القيادة العليا للجيش الرومانى والقيادة العليا للأسطول الرومانى الذى لم يكن على شىء كبير من الضخامة . وكان من واجباته الدفاع عن الإمبراطورية ، وتزويد القوات المقاتلة بالسلاح والعتاد وتوفير أسباب إعاشتها والقيام برسم خطة انتشارها ، فضلا عن إخضاعها لسيطرته ، واتخاذ الحيطة أيضاً خشية أن تخضعه هى لسيطرتها . وإن قيام الجيش بمسئولياته فى الدفاع طيلة هذه المدة ، وعلى هذا القدر من الكفاءة ، ليقيم — إلى حد ما — الدليل على ما كان عليه قواده من مقدرة وسعة حيلة . ويمكن أن نتتبع فى تاريخ الجيش الرومانى ، أربع حقب على وجه التقريب .

بدا أول الأمر كما لو أن تقدم شعب فتى سليم البنية ، لا يعرف حدوداً يقف عندها . إذ يقول جوبيتر فى ملحمة فرجيل Virgil عن روما : « نطاق حكم لا يحده

زمان أو مكان Imperium sine fine dedi » . ولو أن هذه العبارة تكشف عن عظمة وسؤدد ، إلا أنه لم يكن هناك مفر من أن تنشأ عوامل معوقة . فالجيش القائم إن هو إلا عبء مالى ثابت . ومثل هذا العبء يستلزم الاضطلاع به على نحو ما . ثانيا : هناك أطماع القواد وانتصاراتهم التى لا يحق أن تخلق منافسين للإمبراطور ينازعونه سلطانه ، كما لا يجب أن يسمح لمجد ما أن يطغى على مجد رئيس الإمبراطورية ومجد أسرته . فللإمبراطور وحده ولأفراد أسرته دون سواهم أن يقوموا بالحملات المظفرة وهم آمنون على أنفسهم . ثالثا : رغم أن السعى فى سبيل الظفر بالمجد الحربى كان من بين التقاليد الرومانية الثابتة ، إلا أن حاجة الإمبراطورية — لما كانت عليه من وهن وضعف عام ٢٧ — كانت هى الخلاص من الحرب وضمان قيام حكومة رشيدة ، أى الحاجة إلى السلم والعدل . ورغم ذلك فقد نمت الإمبراطورية نموا مطردا مدة تقرب من ١٥٠ سنة ، حتى وفاة تراجان . صحيح أن عهد أوغسطس شهد تقهقرا عظيما : إذ تحتم سنة ٩ ميلادية الجلاء عن الأراضى الواقعة بين الألب والرين ، وهى الأراضى التى كانت تحتلها الفرق الرومانية والتى كانت تعسكر فيها صيفاً خلال مدة تقرب من عشرين عاما ، بعد هزيمة منكرة لحقت بفرق رومانية ثلاث على يد الجرمانيين ، كما أن أوغسطس نصح فى شيخوخته ، بعدم إحراز فتوحات جديدة . غير أن القدر كان أقوى من نصح أوغسطس ، ففى خلال القرن الذى أعقب وفاته ، دخلت منطقة الدانوب ضمن حدود الإمبراطورية ، وضمت إلى الإمبراطورية الأراضى التى تشغلها الجزائر ومراكش فى الوقت الحاضر ، وحالف الرومانيين التوفيق فى احتلال بريطانيا ، وأمكن الاستيلاء على نطاق جديد من الأراضى الجرمانية ، وما لبث أن توج تراجان هذه الفتوحات بضمه داكيا Dacia (وموضعها الآن ترانسيلفانيا Transylvania على وجه التقريب) وأرمينيا Armenia وبلاد ما بين النهرين . وكان من الطبيعى أن يصحب هذا التوسع الإقليمى توسع فى الجيش اللازم لحماية الفتوحات الجديدة ، فزاد عدد

فرقه من خمس وعشرين فرقة تقريباً كحد أدنى إلى ثلاثين فرقة على الأقل ، وذلك فى عهد تراجان .

بيد أنه قد حلت بعد ذلك فترة تدبر وروية . فقد تخلى هادريان (١١٧-١٣٨) فعلا عن فتوحات سلفه فى أقصى الشرق ، وساد الاعتقاد إذ ذاك بأن الإمبراطورية قد بلغت حدودها الطبيعية (إن لم تكن قد تجاوزتها) ، وأن الوقت قد حان لأن يبحث حكامها عن خطوط ثابتة وحدود مرسومة . وجدير بالملاحظة أن هادريان الذى يوصف دائما بميله إلى التوفير ، احتفظ — كما هو مؤكد — بموقعين أماميين أحدهما فى الشمال الغربى والآخر فى الشمال الشرقى ، أى فى بريطانيا وداكيا . وبدئ منذ ذلك الحين فى تخطيط الحدود بإقامة سلسلة من المواقع الدفاعية الصناعية ، من الأحجار أو الطين — مثل الأسوار والجسور والخنادق — ونشر القوات بدقة وعناية على طولها . وبالرغم من ذلك فقد أخذت قوات البرابرة قرابة عام ١٧ فى إثبات وجودها ، ولذلك قرر ماركوس أوريليوس بعد سلسلة متصلة من الحملات أن ينشئ مقاطعتين إضافيتين فى الشمال وهما ماركومانيا Marcomannia وسارماتيا Sarmatia اللتان كان ينتظر أن تدخلا بذلك كلا من تشيكوسلوفاكيا وبوكوفينا Bukovina فى خطة الدفاع عن الإمبراطورية ، ولكن وفاته عام ١٨٠ قضت على المشروع . وتنتهى هذه الحقبة على وجه التقريب بالإمبراطور سبتيميوس سيفيروس الذى تكهن بالأخطار المحدقة بالإمبراطورية فحارب بارثيا Parthia حماية لحدوده الجنوبية والشرقية ، وقاتل لكى يحول دون وقوع بريطانيا فى أيدى جيرانها فى الشمال . وبات كل شىء مرهونا الآن باستبسال الجيوش وثباتها وبما يتوفر للخطط الدفاعية من دقة وإحكام .

أما الفترة الثالثة وهى التى تمتد من سنة ٢٢٠ إلى سنة ٢٨٥ ، أى إلى ما يزيد عن نصف قرن ، فإنها لم تعد فترة سعى وراء المغانم ، بل كانت الإمبراطورية خلالها تقاتل قتالا مريرا من أجل بقائها . فقد عاث البرابره

الشماليون فسادا فى الأراضى الغنية المسالمة التى تقع إلى جنوبهم ، وتوغل القوطيون الغربيون Visigoths حقيقة فى إسبانيا ، كما أوقع الجوثيون الهزيمة بالرومان برا ، بينما أشاعت أساطيلهم التى أنشأوها مؤخرا الدمار والخراب فى مدن البحر الأسود ومدن شمال بحر إيجة . وفى نوبة من الخوف والذعر ، سارعت المدن التى ظلت منذ زمن طويل خالية من الحصون إلى إقامة أسوار مرتجلة ، كما أصبحت روما نفسها بعد قرون نعمت فيها بالأمن ، فى حاجة إلى التحصينات ، تلك الحاجة التى أوفى بها أوريليان بإقامة سور عظيم . وفى الولايات ذاتها ، نشبت الثورات بزعامة بعض المدعين لأحقيتهم فى العرش . وبدا كما لو أن انهيار الإمبراطورية التام أصبح وشيك الوقوع فى غضون سنوات قلائل . أما أن روما قد ظلت على قيد الحياة ، فالفضل فى ذلك يعود إلى « الأباطرة المقاتلين » واستماتتهم فى القتال ، وإلى الصفات الرفيعة التى كان يتحلى بها الجيش الرومانى ، كما يرجع أيضا إلى الحقيقة الماثلة فى أن أهل الولايات أنفسهم كانوا حريصين على البرهنة على انتصارهم لروما ، وعلى إثبات جدارتهم بحقوق المواطنة التى نالوها على يد كراكالا Caracalla عام ٢١٢ (انظر الفصل التاسع) . وهكذا اجتازوا الأزمة بفضل الشجاعة الرومانية[١] Romana virtus . غير أن محنة السنوات الخمسين قد لقنت الرومان دروساً قيمة ، ووعت روما هذه الدروس خلال الفترة الرابعة ، وكان من أثر ذلك ، التعديل الذى أجرى على كيان الإمبراطورية ونظمها عام ٢٨٤ ، حين نال دقلديانوس الإليرى السلطة العليا ، فأجرى تغييرا شاملا وإصلاحاً تاماً للنظام العسكرى كى يتفق ومقتضيات العصر ولكى يتسنى له استيعاب أساليب جديدة . بيد أنه يحسن أن نرجئ الحديث عن هذا الإصلاح إلى موضع آخر .

---

(١) هذه الكلمة تعنى مجموعة الفضائل الرومانية من بسالة وسمو وشجاعة . . . الخ (المترجم)

ولنعد من هذه العجالة إلى الجيش نفسه . ثبت فى النهاية خطأ واحد من الافتراضات التى كان يعمل بموجبها الحكام الأوائل الذين كانوا جد متفائلين ومؤدى هذا الافتراض أن البرابرة كانوا أشد غباء وغفلة من أن يتبينوا قيما توحيد صفوفهم والقيام بهجمات من جهات عدة فى وقت واحد . ولكن هذا الافتراض بدا منطقياً معقولا فى مبدأ الأمر ، فقد كان فى استطاعة ماركوس أوريليوس ، فى زمن متأخر كالقرن الثانى ، أن يواجه الخطر فى نقطة ما بأن يحسر القوات عن نقطة أخرى من نقط الدفاع بصفة مؤقتة .

حرصت خطط الدفاع الرومانية منذ البداية على أن تجنى أعظم الفائدة من استخدام الطرق الداخلية ، ومما زاد فى نفع هذه الطرق مد تلك الشبكة الرائعة من الطرق الاستراتيجية الرومانية (انظر نهاية هذا الفصل وما بعدها) بالإضافة إلى طرق المواصلات البحرية الآمنة فى البحر المتوسط الذى تم تطهيره كلية من القراصنة . ونظراً لأن مهمة إقامة جيش كبير تتطلب تكاليف باهظة ،فقد كان على أوغسطس أن يكتفى بأقل عدد من القوات ، بالقدر الذى لا يعرض سلامة الدولة للخطر ، وكان عدد الفرق الرومانية فى أول الأمر ثمانيا وعشرين فرقة تقريبا ، زيدت فى عهد هادريان إلى اثنتين وثلاثين فرقة ، أما فى عهد سيفيروس فقد تطلب اتساع رقعة الإمبراطورية تكوين خمس وثلاثين فرقة ، بينما ازداد عدد الفرق بحلول عهد دقلديانوس إلى حد كبير .

وكانت صفوة الأسلحة فى مثل هذا الجيش الكبير هى ، دون شك الكتائب التسع التى تؤلف الحرس البريتورى Praetorian Guards الذى كان يمثل حرس الشرف الملازم للقائد الأعلى ، وإن كان لا يعد حرساً خاصاً له ولقد وجد أوغسطس ، فى سعيه لتكوين حرسه الخاص ، ضالته المنشودة فى فرقة خاصة من القوات الجرمانية ، روعى فى اختيارها قوة أفرادها وولاؤهم أما فرق الحرس البريتورى فقد كانت تقوم بالحراسة ليلا ونهاراً على مقر

الإمبراطور سواء فى روما أو فى الخارج ، وكان الإمبراطور هو الذى يبلغ كلمة السر إلى قواد هذه الفرق . وكان الحرس البريتورى يخضع فى الأصل لقيادة ضابطين برتبة « بريفيكتوس » praefectus ، وكانت ست كتائب منه ترابط فى نقط مختلفة تنتظم كافة أنحاء إيطاليا ، بقصد المحافظة على الأمن إلا أنه فى عهد تيبريوس Tiberius ، أفلح سيجانوس Sejanus ذلك القائد الطموح . فى أن يقنع سيده بتوحيد القوة جميعها فى معسكر واحد يرابط خارج أسوار روما مباشرة وبأن يترك له وحده أمر قيادتها ، وعلى الرغم من أن حيل سيجانوس أدت إلى سقوطه وإعدامه عام ٣١ ، إلا أن إصلاحاته كتب لها البقاء ، وباتت قوة الحرس البريتورى ونفوذه فى تنصيب الأباطرة ، قوة هائلة رهيبة ، إلا إذا خضع الحرس لحاكم قوى . وكانت مدة خدمتهم العسكرية قصيرة (ست عشرة سنة فقط) ورواتبهم كبيرة ، وكانوا يدربون على أعنف ما تقضى به تقاليد الحرب الرومانية ؛ ولذلك فقد جرت العادة بتقليدهم قيادات صغيرة فى الفرق الرومانية . وبذلك أصبح الحرس البريتورى ، خلال القرنين الأول والثانى ، بمثابة مدرسة أولية للضباط ، وذخرا لقواعد الضبط والربط ونظم التدريب العسكرى الرومانية الخالصة . ولما كان من حق البريفيكتوس praefectus أن يفصل فى بعض القضايا المرفوعة إليه ، فقد تطور الأمر تطوراً غريبا حتى أصبحت العبرة فى اختيار البريفيكتوس ليست بمؤهلاته العسكرية ، بل بمسوغاته التشريعية ، ولهذا نجد أن من بين أعاظم المشرعين فى الإمبراطورية ، نفرا ممن تقلدوا هذا المنصب ، أمثال أولبيان Ulpian وبابينيان Papinian .

ويأتى بعد هذه القوات ذات الحظوة ، جنود الفرق الرومانية الفعليون ، وهم الذين كان يتم تجنيدهم عادة بطريق التطوع ، ومدة خدمتهم عشرون سنة مع احتمال اختيارهم لخمس سنوات أخرى . ولما كان جنود الفرق مواطنين رومانيين منذ البداية يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية كاملة ، فقد كانوا يجلبون أول

الأمر من إيطاليا وحدها ، ولكنه أمكن بعد مضى جيلين أو ثلاثة أجيال أن يلحق بالفرق المواطنون الرومانيون من أهل الولايات التى اصطبغت أكثر من غيرها بالصبغة الرومانية مثل مقاطعتى أسبانيا والغال ، أما بعد صدور قانون كارا كالا العظيم عام ٢١٢ (أنظر الفصل التاسع) فقد أمكن بطبيعة الحال جلب جنود الفرق من كافة الولايات ، والواقع أنه ما إن حل ذلك الوقت حتى كان جنود الفرق يجلبون عادة من الولايات نفسها التى ترابط فيها . ولم يكن من المسموح به للجندى أن يتزوج أثناء خدمته ، أو على الأصح ، لم يكن فى وسعه أن يعقد قرانا رومانيا شرعيا تاما من جميع الوجوه ، غير أن سبتيميوس سيفيروس رفع هذا القيد فى عهده ، فأصبح من حق الجندى أن يحتفظ بزوجه فى دار قريبة من المعسكر ، مما جنح بدوره بالفرق إلى أن تصبح أشبه بنقط حراسة محلية .

بيد أن جنود الفرق لم يكونوا وحدهم جنود الجيش الرومانى ، بل كانت هناك أيضا الوحدات المساعدة (auxilia) . وكانت هذه القوات ذات طابع يحق لنا معه أن نسميها « القوات الوطنية » . وكان من المسموح به فى أول الأمر ، أن يتم تجنيد هذه القوات ، كما يمضى جنودها الخدمة العسكرية ، كل فى وطنه الأصلى ، وتحت قيادة ضباط من بنى جلدته . غير أن هـذا قد جر بطبيعة الحال إلى ألوان من المتاعب ، فأصبحت القاعدة ألا يقضى هؤلاء خدمتهم العسكرية فى مواطنهم الأصلية ، كما تولى قيادتهم ضباط من المواطنين الرومانيين . وكان هناك بالطبع الكثيرون من الشبان من أبناء الولايات ممن كانوا على استعداد تام للإقبال على حياة تبشر بالمغامرة والجد ، فضلا عما تحمله من أمل فى نيل حقوق المواطنة الرومانية عند انتهاء مدة الخدمة العسكرية التى كانت تقدر بالنسبة لهم بخمس وعشرين سنة ، كما أصبح من الممكن فى الغالب وبمضى الزمن سد النقص فى صفوفهم بالوطنيين من أبناء الولايات التى يرابطون فيها .

وبالإضافة إلى ذلك ، أخذت القبائل المستقلة أو شبه المستقلة المنتشرة على الحدود فى الإسهام ، منذ عهد هادريان ، بقوى مقاتلة نافعة تنتظمها وحدات تسمى numeri ولم يتجاوز المجموع الكلى لقوات الجيش فى أى وقت من الأوقات نصف مليون من الجنود : وثمة عوامل ثلاثة كانت تتوقف عليها قوته وكيفية انتشاره ودرجة تدريبه ومستوى الروح المعنوية لديه .

ويمكننا الاستدلال على المصدر الرئيسى للخطر ، كما كان يبدو خلال العصور المختلفة ، من خطة توزيع قوات الفرق والقوات المساعدة . ففى أول عهد الإمبراطورية ، عندما كان يخشى بأس الجرمانيين والبارثيين ، كانت تسع فرق تحرس الراين وسبع تحمى خط الدانوب وأربع ترابط عند دجلة والفرات . أما قرابة عام ١٠٠ فبالرغم من أن أربع فرق كانت ما تزال تراقب سوريا ، وثلاث فرق تطلبتها الأحوال فى بريطانيا ، فإن الغالبية العظمى من الفرق رابطت على امتداد نهرى الرين والدانوب، أما بقية الولايات مثل أسبانيا ودلماشيا Dalmatia وأفريقيا فلم تكن أى منها فى حاجة إلى أكثر من فرقة واحدة لصيانة الأمن بها . وكان نصيب المنطقة الوسطى من الدانوب حوالى عام ٢١٥ عشر فرق من بين ثلاث وثلاثين فرقة ، كما كان نصيب المنطقة الشرقية من الحدود عشر فرق أخرى ، وجرمانيا أربعا وبريطانيا ثلاثا ، بينما انتشرت الفرق الباقية فرادى فى مختلف الولايات الأخرى . فكان لبعض الولايات — وخاصة ولايتى إليريا Illyricum والغال — عندما حلت غزوات البرابرة الكبرى ، من الجنود والقواد والروح المعنوية العالية ، ما يكفل لها أمر الدفاع عن نفسها ، غير أن التجارب المريرة قد كشفت عن حاجة المدن الكبيرة والصغيرة على حد سواء ، إلى تحصينات سليمة ، وعن حاجة الإمبراطورية أيضا إلى جيش من طراز جديد . ولقد هدفت إصلاحات دقلديانوس إلى تكوين قلب للجيش سهل الحركة ، وإعداد جيوش للولايات تعسكر فى مدن محصنة .

كان تدريب جندى الفرق يهدف إلى خلق الطاعة العمياء فى نفسه بالإضافة إلى تحقيق مستوى عال من الكفاية وسرعة الخاطر . ومما كان له عظيم الأهمية ، وإن كان غير ظاهر ملموس ، تلك العناصر الروحية التى كانت تربط الجندى بخدمته ، يقول سينيكا Seneca (٣٥ و ٩٥ من رسائله) « إن الرباط الأول هو احترام الجندى لقسمه وحبه لألويته وخوفه من الفرار » . بيد أنه لاسبيل إلى بث هذا الشعور إلا بالمران والتجربة ، ولذا كان للتدريب المقام الأول . فكان الجندى الحديث يتدرب على السير والجرى والقفز والسباحة وركوب الخيل واستخدام أسلحته فى الهجوم والدفاع واستعمال الفأس والجاروف والبلطة والمنشار وحصد القمح وقطع الأخشاب ، أى يتدرب بصفة عامة على أن يصبح رجلا متمرساً بكل شىء . وكانت الفرقة التى يدرج اسمه فيها تتألف من ٦٠٠٠ جندى على وجه التقريب تحت القيادة العليا لضابط برتبة legatus ، ومن دونه من الـ tribuni ، أما الستون centuriae التى كانت تنقسم إليها الفرقة ، فيرأس كل منها centurio ، أو قائد مائة ، وكان هذا على قدر من الخبرة والكفاية والدربة يؤهله لمثل المرتب الكبير الذى كان يتقاضاه (إذ بلغ مرتبه فى بعض الأحيان عشرة أضعاف مرتب النفر) . وكانت كل فرقة من الفرق تمثل وحدة متكاملة ، يؤتمن لواؤها الذى كان يمثل نسرا فضيا ، لدى أحد قواد المائة الكبار ، كما كان لها رقمها الخاص واسمها وشاراتها وأوسمتها . وثمة منافسات شريفة كانت تقوم بين كثير من هذه الفرق العسكرية المنسقة .

ولعلنا قد لاحظنا من خلال ما سبق ، عظم المهام الإدارية والعسكرية التى كانت منوطة بقواد المائة ، بيد أنه لا يجب أن نغفل أيضا ذكر القواد الكبار . كان تعيين القائد الأعلى legatus يتم من قبل الإمبراطور ، وكان بقاؤه أيضا فى هذا المنصب مرهونا برضائه . وكان فى العادة من سلالة الأسر التى شغل عمداؤها مقاعد بمجلس الشيوخ ، يزيد عن الثلاثين من العمر بقليل ، على أن يكون قد شغل خلال حياته العملية بعض الوظائف المدنية والعسكرية الثانوية وأظهر

فيها قسطاً من الكفاية . ويليه فى المرتبة ستة ضباط برتبة tribuni militum ، ويبدو أن مهامهم كانت مهام إدارية فى معظمها ، وقد يشغل أبناء أسر الفرسان أو أسر أعضاء مجلس الشيوخ من الشبان عددا من هذه المناصب خلال تقلبهم فى الوظائف العامة ، غير أنها كانت فى أغلب الأحيان وقفاً على من أثبتوا جدارة فائقة أثناء توليهم مناصب قواد المائة . وبالإضافة إلى هؤلاء كان لكل معسكر ضابط يدعى نقيب المعسكر (praefectus castrorum) ، وكان فى العادة قائد مائة مرقى ، يعهد إليه فى الغالب بالإشراف على الإمدادات والخدمات الخاصة . ولعل أدق مشكلة إدارية كانت تصادف حاكم الولاية هى السبيل إلى توفير المؤن ووسائل المواصلات والقلاع والثكنات لضمان قيام القوات المسلحة الخاضعة لإمرته بواجبها على أتم وجه ، فى الوقت الذى يوفر فيه للسكان الوطنيين كمية كافية من الغذاء والطاقة ، تجنبه سخط الجماهير غير الواجب وما يترتب على السخط من قلاقل أو ثورات . وكان حل هذه المشكلة الذى اهتدى إليه الرومانيون هو أن يكون نقيب المعسكر ، الذى يقابل فى الفرق الرومانية ضابط الإمدادات والتموين فى الجيوش الحديثة ، مسئولا أمام حاكم الولاية وليس أمام قائد الفرقة . وأتاح هذا النظام لحكام الولايات من الوجهة النظرية على أقل تقدير الاهتداء برأى مستشارين ذوى كفاية وخبرة فى شئون الجيش ، وجعل فى وسعهم الحد من نفوذ قواد الفرق ، والإشراف على كل من الجهازين الاداريين المدنى والعسكرى . ومن المرجح أنه كان هناك نظام معين للتقارير السرية ولعلها كانت ترسل إلى كاتم السر العام لدى الإمبراطور ، وتتعلق بشخصية وكفاية هؤلاء الموظفين على اختلافهم ، ولكنه وإن كان من المعقول افتراض وجود هذا النظام ، إلا أنه يتحتم القول هنا بأنه لم تصلنا عنه أية معلومات مفصلة .

وكان من بين القواعد الثابتة لدى الأباطرة ، وجوب شغل الجنود بصفة

دائمة حتى وقت السلم ، فإذا لم تكن لدى الفرقة مناورات أو طوابير سير أو أعمال تفتيش فقد يناط بها بناء سد بحرى أو حفر قناة أو قطع الأحجار من المحاجر . وكان للمعسكرات والقلاع تصميمات ثابتة يراعى فيها تخصيص أنسب الأماكن لمبانى مركز القيادة ، ولمعبد الألوية وللخزانة التى تقع بالقرب منه ، وللثكنات ومواقف الخيل ولمخازن الغلال والمطابخ والأفران ودورات المياه وخيمة المستشفى ومصنع العتاد . وما إن أخذت الفرق فى الاستقرار فى معسكرات دائمة حتى حلت المبانى الحجرية محل المبانى الخشبية ، أما خارج أسوار المعسكر فكانت توجـــد الحمامات والمدرجات والمستشفيات فى بعض الأحيان ، على أنه كانت تقوم فى العادة على طول الطريق ، مجموعة متفرقة من المحلات والمظال canabae ، قريبة الشبه بالأسواق الشرقية ، حيث يمكن للجندى أن يشترى عوضاً عما يكسر من أكوابه وصحافه ، وأن يبتاع التعاويذ والأحجبة والجواهر والحلى ، أو أن يستمتع بالطعام أو الشراب فى أحد المقاهى . وجدير بالذكر ، أن مثل هذه الأبنية جميعها كانت تقع خارج المعسكر ، أما فى الداخل فكان يراعى الاقتصاد التام فى شغل مساحة الأرض، كما لا يسمح بغير المبانى العسكرية .

بيد أن للجندى حاجته أيضاً إلى قسط من الراحة والترفيه . وإنه لمستطيع أن يجد بغيته فى ذلك ، بدرجة ما ، فى المظال المصطفة على طول الطريق (canabae) . هذا إلى أن فى وسع الضباط والجنود أن يستمتعوا برياضة الصيد ، كما فعلوا مثلا فى أحراش بيوكاسل Bewcastle فى شمال كمبرلاند Cumberland ، ومن المؤكد أنه كانت لديهم ألوان متعددة من الرياضة مثل مسابقات القفز والسباحة والجرى والمصارعة ، وقد كتب جندى من القوات المسلحة من باتافيا Batavia على شاهد قبره يفاخر ببراعته فى الرماية وبعبوره الدانوب بكامل سلاحه . ولفت العملاق الطراق ماكسيمين Maximin الأنظار إليه بقوته الخارقة واحتماله الكبير فى

المصارعة ، وكان الأمل يراود كل مجند (سواء بدافع من طموحه أو بناء على نصيحة أبيه) فى أن يثبت مهارته وقدراته أمام ناظرى قائده . ولم يكن فى مقدور الجنود ، فى الحمامات العامة الساخنة ، الاغتسال فحسب ، بل كان فى وسعهم لعب الميسر والتحدث فى مختلف الشئون ، أما فى المسارح ففى وسعهم الاستماع إلى مسرحياتهم الإيمائية والتهليل لمن يروقهم .

ويجدر هنا أن نؤكد نقاطاً ثلاثاً فيما يتعلق بالصحة والخدمات الصحية . غالباً ما يغيب عن أذهاننا أن الجيش الرومانى لم يكن ليبلغ ما بلغه من نجاح ما لم يكن جيشاً نظيفاً ، ولكننا نجد أن الدعاة الخلقيين يحملون ، لسبب خفى حملة شعواء على حمامات روما فى عهدها القديم ، ويستنكرون سعتها وترفها على نحو جنح إلى بنا أن ننسى ما للاغتسال عموماً من آثار صحية طيبة . لقد ساعدت الحمامات فى خلق الجندى الذى يجمع بين النظافة واللياقة ، وحسبنا أن الأوساخ والأمراض التى انتشرت بأوربا عند ما كانت غفلا من حمامات العصر الرومانى المنصرم ، قد جرت إلى أفدح الخسائر فى الأرواح . أما فى حالة إصابة جندى بجراح أو وقوعه فريسة للمرض ، فهناك عدد صغير من الجنود المدربين على الإسعافات الأولية (medici ordinarii) ، على استعداد للإسراع بعلاجه . ويظهر مثل هذا المشهد فى اللوحة المنقوشة على عمود تراجان ، كما تدل آثار « مستشفيات القاعدة » (التى اكتشفت فى نيوس Neuss وكسانتين Xanten) على ما كانت عليه من نظافة وكفاية ، فهى مبان حجرية كبيرة تحوى قاعات للاستقبال وحجرات للعمليات ومساكن للأطباء وعنابر للمرضى رحبة ممتدة ، مقسمة إلى حجرات تسع كل منها سريرين . أما الممرات الفسيحة التى يبلغ عرضها ثمانية عشر قدماً ، فقد كانت توفر الضوء والهواء وتسمح بنزول عدد إضافى من المرضى فى الأحوال الطارئة .

أما وجبة الجندى الثابتة ، فهى وإن كانت خليقة بأن تبعث على السأم إلا

أنها كانت وجبة طيبة تتألف من الخبز والحساء والخضروات والسلطات والنبيذ والزيت . ولم يكن اللحم من بين الأصناف المعتادة ، إلا بالنسبة لجراية جنود الشمال ، غير أن جميع الفرق كانت تحتفظ بالقطعان والماشية الخاصة بها لتقديم الضحايا والقرابين . وكان الجنود يحصلون بعد كل تقدمة كبيرة على الذبائح التى يتناولون بها وجبة طيبة . وكانت توجد بكثرة بالإضافة إلى ذلك ، حيوانات الصيد والطيور البرية . كما يمكن للجندى أن يضيف إلى هذه الوجبـــة السمك والمحار (وكان بلح البحر والمحار من الأطعمة المفضلة فى بريطانيا) ولحم الصيد بعد رحلة صيد موفقة . أما المظال canabae خارج المعسكر ، فكانت تقدم للجندى المشروبات المرطبة والساخنة ، وأصناف الطعام الشهية والفطائر والحلوى .

ومن البديهى أن الأمر كان يتطلب إيجاد نظام للنقل دقيق محكم ، والنقل يجب أن يتم أولا بطريق البحار أو الأنهار ، حيث يتيسر ذلك ، ثم يأتى دور العربات . ولذلك فإننا نجد دائماً إلى جانب الجنود المقاتلين ، طائفة كبيرة من الأشخاص الذين يقومون بمهام خاصة ، فهناك هيئة دائمة من الكتبة ، وهناك المحاسبون ، والمراجعون وهناك الرعاة والصيادون ، وهناك السعاة وجنود المراسلة وهناك المساحون والكشافة . ويستقى بلينى Pliny من خبرات هؤلاء الكشافة (exploratores) هذه الفكرة الطريفة ، وهى أنه إذا ما تعذر وجود الصوان والحروق ، فإن أفضل الأخشاب التى تولد النار بالاحتكاك هى أخشاب الغار والحلبلاب ، إذ يعمل خشب الغار الصلب عمل القادح . وكان يبعث بالفصائل للقيام بواجبات مختلفة ، منها الحراسة وخفر المدن ومراقبة المجرمين فى المناجم والمحاجر . ومن المؤكد لدينا أن قوائم الجيش وحساباته كانت تدون بعناية كبرى ، وتكشف بعض المدونات العسكرية التى آلت إلينا بوضوح ، عن العدد الكبير من مختلف الواجبات التى قد توكل إلى الجندى . وهكذا نستدل من مدونة فرقة من فرق القوات المساعدة ، تتألف من أسبان وترابط فى مويزيا الدنيا Lower Moesia (بلغاريا) على أنه قد أرسلت ، من بين جنود الفـرقة

البالغ عددهم ٥٣٦ جندياً ، بعض القوات إلى اليونان لجمع الملابس العسكرية وأرسلت قوات أخرى إلى ما وراء نهر مارجوس Margus (موراڤا Morava) لجلب الخيل ، وكان جند آخرون يزرعون القمح بينما ألحق جنديان بالحامية المرابطة فى تيراس Tyras (أكرمان Akkerman) وضم كاتبان إلى مركز القيادة ، وبلغ بمرض بعض الجنود ووفاة واحد غرقاً ومقتل آخر على يد قطاع الطرق .

وكانت هذه الخدمة العسكرية تبلغ بالنسبة لجندى الفرق عشرين سنة وبالنسبة لجندى القوات المساعدة خمساً وعشرين سنة ، غير أنه كان يحصل على حقوق المواطنةالرومانية فى ختامها .. واختلفت معدلات الرواتب خلال العصور تبعاً لارتفاع الأسعار ، بيد أنها كانت فى القرن الأول تقل بعض الشىء عن دينار denarius فى اليوم للجندى العامل : ويساوى هذا على وجه التقريب أجر العامل المتوسط فى اليوم . وقد تجرى استقطاعات فى مرتب الجندى — مقابل طعام أو تعويضات أو أوامر جديدة أو غذاء الكتيبة — ولكن فى استطاعته إيداع الباقى أمانة ، وتدلنا قائمة حساب أحد الجنود أنه تمكن من أن يدخر أكثر من نصف راتبه . ولكنه بالإضافة إلى ما كان يتقاضاه الجندى من راتب منتظم ، فقد كان له أن يتطلع إلى الحصول على نصيب من الغنائم بعد القيام بحملة موفقة . كما قد تأتيه منح من الإمبراطور بين آن وآخر . وللجندى عند تقاعده أن يتقاضى معاشاً من الخزانة العسكرية ، كما أنه عند التقاعد لا يكون على درجة من الشيخوخة تقعده عن الدخول فى الحياة المدنية ، وهكذا نجد أن جندياً متقاعداً من جنود البحرية شاء أن يصبح تاجراً للجمة فى هولنده ، وما من شك فى أنه استطاع أن يحصل على طلبات من زملائه القدامى . ولجندى الفرق ، إذا ما أثبت كفايته ونشاطه واستقامته ، أن يتطلع إلى ترقيته إلى رتبة أعلى ، كأن يرقى إلى قائد مائة أو بريموس بيلوس primus pilus ، وذلك قبل بلوغه سن التقاعد ، وفى هذه الحالة ، سيدخل فى عداد الأثرياء ذوى الحول والطول . وبرغم أن العادة قد جرت بمقارنة قواد المائة بصف الضباط إلا أن هذه

المقارنة تبعدنا عن الواقع . فقد كانت واجباتهم تقابل على أقل تقدير واجبات قائد الكتيبة الحديث وكان البريموس بيلوس أقرب شبها بالبكباشى أو ضابط أركان حرب عظيم . وإذا نظرنا إلى فئات الرواتب وإلى واجباتهم فإننا سنجد أن رتبهم توازى فى الأهمية رتب الملازمين والمقدمين على أقل تقدير . وعلى الرغم من أن راتب قائد المائة اختلفت نسبته مع راتب النفر بدرجة ملموسة خلال العصور المختلفة ، فإنه بلغ فى بعض الأحيان عشرة أضعاف راتب الجندى النفر (انظر ص ٤٦) ، وقد يتقاضى البريموس بيلوس مرتباً أعلى من ذلك ، ومامن حكومة تعرض مرتبات طيبة ولا تطلب مقابلها خدمات خطيرة . وربما كان الضباط من رتبة البريموس بيلوس هم الضباط ذوى الخبرات الخاصة ، فقد أرسل أحدهم — على سبيل المثال — لمسح خليج كورنثوس تمهيدا لحفر إحدى القنوات ، كما بعث نيرون بضابطين من الرتبة نفسها لاكتشاف مياه أعالى النيل . وقد يرقوا إلى قواد فرق كالتى ترابط فى مصر ، كما جرت العادة أن يولوا قيادة أعداد كبيرة من القوات . وهكذا قلد تراجان ضابطا برتبة بريموس بيلوس قيادة ٣٠٠٠ من قدماء المحاربين المرابطة فى قورينة (برقة) Cyrene ، كما ضم آخر وهو لوكيوس أرتوريوس كاستوس L. Artorius Castus إلى قيادته بعض وحدات الفرق البريطانية لقمع ثورة فى بريتانى Brittany ، وكان يحق لثالث هو جايوس فيليوس روفوس G. Velius Rufus أن يفاخر بأنه أتى على رأس وحدات اختيرت من بين ثمانى فرق ترابط فى بريطانيا وجرمانيا للمساعدة فى الحرب ضد الداكيين Dacians . ولا يمكن لامرئ القيام بمثل هذه المهام الخطيرة بحذق وكفاية ما لم يكن قد أثبت قدرته لا على القيادة وبث الروح العالية بين الجنود فى المعركة فحسب، بل برهن على قدرته أيضا فى تصريف شئون الأعداد الكبيرة من القوات والتحكم فيها بمهارة ، لاسيما أنها لا تقدم فروض الطاعة لأحد كما لا ترضى أن يتولى قيادها سوى رجال من ذوى الخبرة الطويلة والشخصيات القوية الأخاذة . والحقيقة أن قواد المائة كانوا يمثلون القلب الصلد

القوى للجيش كله ، كان بعضهم دون شك قاسياً فظاً غير أن الغالبية العظمى كانت تتصف بالاستقامة والاتزان ، وتتمتع بمستوى عال من الدربة وحسن التصرف فى مواجهـــة الأحداث الطارئة والمواقف الدقيقة ، والخلاصة أنهم قاموا بدور مجيد . وترتب على ذلك أن أتيح لقواد المائة أو الضباط من رتبة البريموس بيلوس ، أن يحتلوا ، بعد التقاعد ، مكانة بارزة فى مدنهم التى انحدروا منها وغالباً ما كانوا يدخلون فى عداد المصلحين المحسنين ، والأمثلة كثيرة على ما كان يقوم به مثل هؤلاء الرجال من إهداء إخوانهم المواطنين الحمامات أو المكتبات أو المنشآت العامة ، كما كان هؤلاء القواد والجنود المتقاعدون يمثلون صخرة صلدة ثابتة الدعائم من الولاء والنبل فى شتى أنحاء البلاد .

ولننتقل من الحديث عن الجيش إلى الحديث عن الأسطول . لم يكن للأسطول فى نظر الرومان من الأهمية ما كان للجيش ، كما يستدل من الحقيقة الماثلة فى أن بحارته لم يكونوا يجندون من بين المواطنين الرومانيين ، بل ذهب الأمر إلى حد السماح للعبيد المعتقين بتولى قيادته . وكانت واجبات الأسطول فى الغالب هى الحراسة والنقل وحفظ الأمن فى البحار عموماً . وكانت قاعدتا الأسطول فى بداية الأمر تقعان فى رافينّا Ravenna للإشراف على البحر الإدرياتيكى وميزينوم Misenum لتفقد البحر التيرانى . ولكن الأمر قد اقتضى بناء أساطيل إقليمية، لاتساع رقعة الإمبراطورية وازدياد أعبائها ، فالقمح الذى كان ينقل بحرا من الإسكندرية ثم من شمال إفريقيا (فيما بعد) كانت تقوم بحراسته سفن أساطيل الإسكندرية وأساطيل شمال إفريقيا التى كانت تتميز بصغرها ، وكان للنهرين الشماليين العظيمين ، الرين والدانوب ، الأساطيل الصغيرة الخاصة بهما ، كما خصصت للبحر الأسود وحدة بحرية قوامها أربعون سفينة تقريباً قاعدتها فى ترابيتزوس Trapezus (تريبيزوند Trebizond)

كما كان يقوم بحراسة بحر المانش والتطواف فيه ، بعد أن أصبحت بريطانيا ولاية رومانية ، الأسطول البريطانى Classis Britannica وقاعدته فى بولونيا .

وقامت هذه الوحدات من الأساطيل ، لفترة طويلة من الزمن ، بمهامها العادية فى صيانة الأمن ومراقبة البحار . ولم يكن ينظر إليها إطلاقاً على أنها وحدات مقاتلة ، والحقيقة أنه لم يقصد بها قط أن تكون كذلك ، ومن ثم فقد كان أن سددت إليها غزوات البرابرة فى أواسط القرن الثالث ضربة قاصمة . فإن القوطيين ، بعد أن بلغوا البحر الأسود ، بعد سنة ٢٥٠ ، وجهوا ما يشبه الإنذار المبكر ، بأن حملوا رعيتهم وعبيدهم الجدد على بناء أسطول بحرى . وما إن حل عام ٢٦٧ حتى كان القوطيون يهاجمون بيثينيا Bithynia وليديا Lydia ، وفى عامى ٢٦٨ و٢٦٩ استطاعوا أن ينحّوا السفن الرومانية عن سبيلهم دون عناء ، وشقوا طريقهم داخل المضايق وألحقوا الدمار والخراب بالمدن الغنية الواقعة فى غرب آسيا الصغرى وعاثوا فساداً فى جزر البحر الإيجى ، بل إنهم قد بلغوا أثينا أيضاً . وهكذا جاء دور الأسطول فى أن يعاد تنظيمه بصورة شاملة كما حدث للجيش ، على يد دقلديانوس . فقسم الإمبراطور الأسطول — ليوفر له مزيداً من خفة الحركة — إلى وحدات صغيرة مستقلة تتخذ كل منها ميناء واحداً قاعدة لها ، ولا تستخدم إلا فى حراسة منطقة بعينها . وثمة حقيقة غريبة تبرز لنا وسط هذه الفترة التى يكتنفها الغموض وهى أن الأسطول البريطانى ظل محتفظا بكيانه حتى النهاية ، فلم تفت فى عضده ، نظرا لتدريبه القاسى ، تلك القوى التى أوهنت وحدات البحر الأبيض المتوسط ، والحقيقة أن دقلديانوس أناط قيادته بأحد البلجيكيين وهو كاروزيوس Carausius ، وأمره بأن يصد الغارات التى أخذ الفرنجة والساكسونيون فى شنها على الشواطئ البلجيكية والبريطانية ، وبمطاردة المغيرين وتفريق شملهم . وفى سنة ٢٨٦ أعلن كاروزيوس راية العصيان على الإمبراطورية ، وأقام هو وخليفته ألكتوس

Allectus ، مدة عشر سنوات، مملكة بريطانية غالية يساندها الأسطول البريطانى.
واستطاع كونستانتيوس كلوروس Constantius Chlorus . والد قسطنطين قمع
هذه الثورة ، بيد أن خطر البرابرة ظل ماثلا ، ولكى يدرأ هذا الخطر أقام
القلاع على الشاطئ الساكسونى فيما حول الشاطئ الجنوبى الشرقى لانجلترا ،
ممتدة من « واش » Wash إلى جزيرة وايت Wight ومن دنكرك Dunkirk إلى
شبه جزيرة كوتنتين Cotentin وإلى ماوراءها . ومن المؤكد أن وحدات الأسطول
كانت تتخذ هذه القلاع قواعد لها ، ولكننا لا ندرى كيف كان يتم ذلك . وإلى
القرن الرابع ، لا نعدم أن نجد بعض اللمحات العابرة عن الأسطول البريطانى،
فيبدو أن كانت هناك حتى سنة ٣٧٤ قاعدة لتموين الأسطول بالقرب من
ليدنى Lydney على نهر سيفرن Severen ، ويرجح أن كانت بعض سفنه ترابط
على طول شاطئ ويلز الشمالية من كارجيبى Caer Gybi (هوليهيد Holyhead)
إلى تشستر Chester لصد هجمات القراصنة الإيرلنديين . ويبدو أن بعض سفن
الاستكشاف الصغيرة ، كانت تتخذ قاعدتها فى هذه الموانى ، كما يذكر
فيجيتيوس Vegetius، مختفية بطريقة بدائية من طرق التمويه، إذ كانت أشرعتها
وحبالها مصبوغة باللون الأخضر كما كان بحارتها يرتدون زياً فى لون اخضرار
البحر . وحسبنا أن نقف عند هذا التاريخ .

كانت غزوات القرن الثالث محكا قاسياً لنظم الرومان العسكرية، إذ استولت
على الأباطرة والقواد خلال الفترة العصيبة بين عامى ٢٥٠ و ٢٧٠ حمى ارتجال
الأساليب الجديدة للدفاع وابتكار أسلحة جديدة ، وجمع مزيد من القوات .
ولم تكن روما لتأبى قط الأخذ بأساليب أعدائها والاستفادة من خبراتهم .
لقد ولت العهود الخوالى التى كان فى استطاعة الجيوش الدائمة أن تواجه فيها شتى
المواقف ، وأصبح لزاماً على المدافعين عن الإمبراطورية أن يكونوا على أهبة
واستعداد فى جميع النقط ، وعلى ذلك فإن النظام الذى اصطنعه دقلديانوس

كان يقوم على أساس إنشاء عدد كبير من القلاع والمواقع الدفاعية المنيعة ، حيث ترابط الحاميات بصفة دائمة ، بينما يقف جيش أو أكثر من الجيوش السريعة الحركة تحت قيادة واحد من الأباطرة الأربعة ، على أهبة الاستعداد للاندفاع بالإمدادات إلى أية نقطة مهددة بالخطر .

ولم يعد فى وسع دقلديانوس وزملائه الثلاثة — كما سيأتى فى الفصل التاسع — أن يتخذوا روما ، قصبة البلاد القديمة ، عاصمة لهم ، بل إن عاصمة أى إمبراطور ، أصبحت نظرياً الموضع الذى يتفق أن يرابط فيه هو وجيشه المتنقل . بيد أنه يمكن القول بوجه عام أن عاصمة القسم الغربى كانت فى تريفيس Trèves ، وعاصمة القسم الإيطالى والألبى كانت ميلانو Milan ، وعاصمة قطاع البلقان كانت سيرميوم Sirmium (متروفتسا Mitrovitza على نهر سيف Save) وعاصمة القسم الشرقى نيكوميديا Nicomedia (أزميد Ismid) . وعلى حين كان المشاة فى الماضى هم العنصر الرئيسى فى الجيش ، إلا أن ذلك لم يعد بكاف ، فقد كانت الحاجة تدعو إلى توفير قدر أكبر من خفة الحركة ، وإلى طائفة أكبر من القوات المدربة على أنواع معينة من الأسلحة ، وإلى مزيد من رماة السهام والرماح والمشاة الراكبة . وقد أخذوا عن البارثيين إحدى المستحدثات البارزة ، أى سلاح الفرسان المدرعة cataphracts الذى سمى بهذا الاسم نظراً لأن كلا من الفارس وجواده ، كان يحتمى بالسلاسل الواقية التى كانت تغطيهما تماماً . وكان لافتقار الأباطرة إلى الرجال أن اضطروا إلى استئجار وتجنيد قوات من البرابرة بأعداد متزايدة . ومع هذا الجيش الجديد ، وتلك الأساليب المستحدثة ، حلت تشكيلات وألقاب جديدة مثل comes و dux محل الفرق والكتائب وقواد الفرق والكتائب فى القديم . وفى الوقت ذاته أصبحت الحدود عبارة عن سلسلة متصلة من المواقع الصغيرة المنيعة ، اختيرت لأهميتها (مثل مواقع القنفذ فى العصر الحديث) . وهكذا أمكن التغلب على التفوق العددى الذى تميز به البرابرة المغيرون ، وأصبحت

القلاع تزود بالفرسان والرماة الراكبين لمناوشة العدو وتمزيق صفوفه . وتقرر أيضاً استخدام الفرق الوطنية ، على نطاق مطرد الزيادة . لقد عقد دقلديانوس وخلفاؤه العزم على الوقوف فى وجه حشد من المغيرين جاء من كل حدب وصوب ، وسدد هجماته من البر والبحر ، بأن لجئوا إلى كل وسيلة ممكنة ، بتكوين تشكيلات جديدة واتخاذ معدات مستحدثة ، واستخدام آخر ما وصلت إليه أسلحة المدفعية ، وتعديل جبهات الحدود عن طريق إقامة قلاع جديدة أو استصلاح حصون قديمة ، وبالاستفادة من خبرات أعدائهم . لم يتطرق اليأس قط إلى نفوس الأباطرة خلال الفترة بين ٢٥٠ و٢٧٥ ، أما الأباطرة الذين تبوءوا العرش فى الفترة ما بين ٢٧٥ و ٣٢٥ فقد استطاعوا فعلا أن يردوا الغزاة على أعقابهم وأن يثبتوا أقدامهم فى الأراضى القديمة وأن يشرعوا فى تنفيذ خطط التجديد والإصلاح . كانت لفظتا الإصلاح والبناء علماً على ذلك العصر ، فاستعيد بنيان الإمبراطورية الهائل ، لفترة من الزمن ، ولو أن ثمن ذلك كان باهظاً ، وخلال هذه الفترة ، شرع شيوخ العشائر فى التعرف ثم التفهم ثم الإعجاب بعظمة السلام الرومانى وجلاله .

ولعل أعظم ما حققه الجيش هو أنه صان الإمبراطورية ومد فى عمرها إلى الأجل الذى حمل قاهروها على أن ينقلبوا نادمين على شهوة التخريب والتدمير التى استولت عليهم ، وإلى محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه مما استأثر بإعجابهم من تراث روما ، فأبقوا على ديانة الرومان وقوانينهم ونظمهم . ولكنه ما كان الجيش بمستطيع قط أن يؤدى رسالته لولا مهارة المهندسين الرومانيين الفائقة وحذقهم فى مد وصيانة تلك الشبكة الهائلة من الطرق التى شملت كافة الولايات ، والتى يسرت سبل الاتصال السهل السريع ، لا بين الولايات المتجاورة فحسب ، بل بين الشرق والغرب . وكانت هذه الطرق تختلف فى الاتساع وعمق الأساس المقامة عليه تبعا لأهميتها . فقد يبلغ عرض الطريق بالنسبة للطرق

الرئيسية العظيمة الممتدة عبر بلاد الغال أو إيطاليا أو على طول حدود بلاد ما بين النهرين أو فى سوريا ، أربعا وعشرين قدماً ، تتكون أسطحها من ألواح حجرية كبيرة ترتكز على أساس من الأحجار والدقشوم والحصى المدكوك الذى يبلغ فى السمك أربع أقدام ، مع استعمال الأحجار المدببة لربط وتثبيت السطح ، بينما تحفر على جانبى الطريق خنادق على شكل رقم ٧ بما يهيئ تصريفاً جيداً للمياه . ولا يزيد عرض الطريق بالنسبة للطرق الريفية والمدقات على ثمانى عشر أو اثنى عشر قدماً ، كما أن أسسها لا تصل إلى هذا التعقيد فى البناء ، وقد يحدث فى بعض الأحيان ألا يتطلب الأمر سوى تغطية طريق محلى قديم . وبرغم أن الفكرة السائدة عن الطرق الرومانية والتى تقول إنها تقطع البلاد من أقصاها إلى أقصاها فى خطوط مستقيمة لا اعوجاج فيها ، دون النظر إلى ما قد يصادفها من عقبات ، فكرة غير صحيحة — لأن المهندسين الرومانيين كانوا أحصف وأدرى بفنهم من أن يقعوا فى هذا الخطأ — فهذه الطرق كانت تأخذ اتجاهاً مستقيما فى العادة ، وتفيد من طبيعة تضاريس الأرض أعظم الفائدة ، فكانت العقبات تعالج بمهارة فائقة ، كما كثر استخدام الجسور والخنادق ، أما الأنهار فقد أقيمت على ضفافها قناطر حجرية مقوسة جميلة — وما زالت هناك نماذج منها قائمة فى شمال إيطاليا وأسبانيا والبرتغال ، وتخترق المستنقعات بإقامة الطرق عليها على قوائم خشبية ، أما النتوءات الصخرية فكانت تحفر خلالها الأنفاق .

وثمة عمل فذ يثير أبلغ الإعجاب وهو إقامة طريق على طول المنطقة الصخرية شديدة الانحدار على نهر الدانوب عند اتصاله بخانق كازان Kuzan ، إذ قام المهندسون فى عهد تيبريوس ثم فى عهد تراجان من بعده بنحت سلسلة من الفجوات فى الصخور الصلدة الصماء فى الناحية الجنوبية ، ثبتت فيها جذوع شجر لتكون بمثابة دعامات ترتكز عليها الألواح الخشبية التى تحمل الطريق . ولم

يقصد بهذا الطريق قط أن يتحمل ثقل الفرق الرومانية الزاحفة ، بل كان الغرض منه هو أن يكون ممراً تسحب من فوقه — بوساطة الحبال — السفن والصنادل التي تحمل شحنات ثقيلة . وهو على هذه الصورة أيضاً يعد عملا مجيداً حقيقاً بالإعجاب ، لحتى يومنا هذا لم تمد خطوط للسكك الحديديه هناك ، أما الطريق الحديث الوحيد فيقع على الضفة الشمالية . ويقدم نهر الدانوب أيضاً قطعة هندسية رائعة أخرى ، ألا وهي ذلك الجسر العظيم الذي يمتد عبره بالقرب من تورناسيفيرين Turna Severin ، والذي أقيم في عهد تراجان على يد أبولودوروس الدمشقي Apollodorus ، أعظم مهندسي عصره . ويستطرد المؤرخ ديوكاسيوس Dio Cassius ، في روايته عن حملة تراجان على داكيا ، إلى الإعراب عن إعجابه بأرصفتها الحجرية الاثنى عشر العظيمة وصفوف بواباتها الخشبية (التي ترتفع بعضها إلى ما يزيد على ١٠٠ قدم) ثم ارتفاعها إلى ستين قدماً فوق سطح النهر .

وكان من الطبيعي أن يتركز هذا النظام الدقيق للمواصلات في روما ، وأن يتخذ نقطة بدايته التقليدية عند « الحجر الذهبي » الذي أمر أوغسطس بإقامته في صدر الفورم ، عند ما تولى رياسة الطرق ، هذه الطرق بما تميزت به من تحقيقها الغرض المنشود منها ، ولامتدادها الرهيب في خطوط مستقيمة كأنها جحافل جيش زاحف متقدم لا يلوى على شيء ، كانت إحدى عجائب العالم القديم ، بل إنها كانت حتى في أواخر أيامها مصدر إعجاب لأهل العصور الوسطى الذين نسبوا هذه الأعمال الرائعة إلى أحد الأبطال الخرافيين ، بل ظنوها من عمل الشيطان نفسه ، إن عبارة الطريق العام في اللغة الإنجليزية ، « أو الطريق العالي » كما تترجم حرفيا لتحملنا على التفكير فيما شاهده الإنجليز الأوائل بأعينهم وأدركوه بإحساسهم ، فهو الطريق الروماني الذي كان يرتفع عن مستوى الأرض . وما زالت بعض القناطر الحجرية قائمة حتى يومنا هذا في هضاب تركيا الشرقية ، لم يصب بناؤها الحجري بعد بأي تغيير يذكر ، كما

شوهدت من الطائرة آثار لها فى صحراء سوريا فى أماكن تبعد كثيراً عن الأجزاء الآهلة بالسكان ، أما فى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وانجلترا فعادة ما ترتكز الطرق العامة الحديثة على أسس الطرق الرومانية القديمة . وليس هناك ما هو أبدع وأروع من مجموعة الطرق الرومانية والحائط الرومانى و « المتراس » Vallum التى تقع فى نورثمبرلاند Northumberland وكمبرلاند Cumberland وهى آثار للجيش الرومانى إن دلت على شىء فهى تدل على براعته فى التصميم والعمل والبناء .

الفصل الثالث

الشعوب والولايات

لم تكن تلك الرقعة المترامية من الأراضى التى كانت تتألف منها الإمبراطورية الرومانية تضم شعبا متجانسا . ولعل أقدم العناصر التى كانت بها وأكثرها تخلفا ، هى تلك الشعوب غير الهندية الأوربية مثل الفسكونيين Vascones فى شمال غرب أسبانيا (وما زال هؤلاء يعيشون تحت اسم البسكيين Basques بلغتهم الغريبة الغامضة) والليجوريين Ligurians على الريفييرا الإيطالية والماطيين وغيرهم من القبائل القوقازية والأناضولية المختلفة التى تقطن الجزء الشمالى الشرقى من الإمبراطورية . بيد أن معظم سكان الإمبراطورية ، بغض النظر عن المصريين الوطنيين والشعوب السامية فى شبه الجزيرة العربية ، كانوا يتبعون سلالة الشعوب التى تتكلم اللغات الهندية الأوربية مثل الكلتيين والإيطاليين والجرمانيين والقراقيين واليونانيين وغيرهم . وعلى الرغم من انعدام الوحدة الجنسية بين سكان الإمبراطورية إلا أن لغة واحدة كانت هى اللغة الرسمية السائدة فى جميع أنحاء هذه المنطقة ، وهى اللغة اللاتينية التى يتكلمها المواطنون الرومانيون . وما من شك فى أن المواطنين الرومانيين سواء أكانوا مواطنين بالوراثة أم ممن اكتسبوا حقوق المواطنة بمنحة من إمبراطور أو حاكم ، كانوا مميزين مكانة ومنزلة عن سائر السكان ، غير أن هذا لا يعنى قط أنهم كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم « الشعب المتفوق أو السيد » (Herrenvolk) كما تقال فى الألمانية ، بل كانوا على الأرجح يعتبرون أنفسهم أعضاء مبرزين ، وقد كانوا بطبيعة الحال يعدون أنفسهم فئة مهذبة نبيلة (وهل سلمت أمة من ذلك ؟) بيد أنه كان ثمة تقليد عريق مصون يقضى بأن

تفتح روما باب التمتع بحقوق المواطنة الرومانية لكل من أثبت بعمله من أجلها جدارته بهذا الحق . وقد ألمع أحد ملوك مقدونيا فى زمن مبكر يعود إلى القرن الثالث قبل المسيح ، إلى هذا الموقف الكريم منها . كما لم يتردد أى من بومبى وقيصر فى منح حقوق المواطنة للنبلاء الوطنيين الذين كانوا على استعداد للانضمام إلى صفوفهما ، وأعرب قيصر عن تقديره لحذق بعض اليونانيين فى ميادين الطب والهندسة المعمارية والآداب بأن وهبهم منحا مماثلة . وربما كان وقع الأسماء الرومانية مثل جيوس يوليوس G. Iulius مقرونة بأسماء كلتية مثل إمبوسترو فيدوس Emposterovidus غريبا على الأسماع ، ولكن الواقع أن جيلا رابعا من المواطنين الرومانيين الغاليين ، ممن تلقوا تعليمهم وتدريبهم وفق النظم الرومانية ، أتيح له فى أواسط القرن الميلادى الأول أن يدخل مجلس الشيوخ وأن يتقلد مناصب الحكام . لذلك فلم يكن هناك أدنى قسط من المبالغة فى قول القائد الرومانى الذى كان يخطب عام ٧٠ فى جمهور من الغاليين : « أنتم تتولون بأنفسكم — فى كثير من الأحيان — مقاليد الحكم فى ولايات رومانية ، أو تناط بكم قيادة فرق رومانية ، فما من شىء مبعد عنكم أو محرم عليكم » . وما إن حل القرن الثانى حتى بات مجلس الشيوخ يرحب بانضمام اليونانيين والشرقيين إليه ، كما أصبح هؤلاء يختارون لتولى القيادات بالجيش ، ومثال ذلك المؤرخ الشهير آريان Arrian وقدر لهذا الاتجاه أن يبلغ مداه عام ٢١٢ على يد كاراكالا (انظر الفصل التاسع) .

ورغم أن أعداداً كبيرة من المواطنين الرومانيين كانوا منتشرين فى شتى الولايات ، خلال القرن الثانى ، فلم يكن لهم كما لم يكن لأهل الولايات ، حكومات نيابية ، بيد أنه كان فى وسعهم أن يعلنوا عن رغباتهم ومشاعرهم بطرق شتى . ففى العهود الأولى كان هناك ظل من نظم الانتخابات الشعبية تخلف عن العهد الجمهورى — بل الواقع أن أوغسطس فكر ذات مرة أن يسمح للمواطنين الرومانيين المغتربين بإرسال بطاقات التصويت عن طريق البريد — بيد أن

مجلس الشيوخ كان المشرف على انتخابات الوظائف العامة . وإلى جانب ذلك ، فإنه لما كان من حق الإمبراطور أن يضم بناء على رغبته ، من ثبتت جدارتهم من المواطنين إلى مجلس الشيوخ ، كل فى مرتبته اللائقة ، فلم تلبث هذه الهيئة أن أصبحت تضم مواطنين من الولايات على جانب كبير من الثراء والهيبة ، وكان هؤلاء يختارون من الولايات الغربية فى بادئ الأمر ثم من الولايات الشرقية فيما بعد ، وبذلك أصبحوا يمثلون « الرأى العام » . أما فى القرن الثانى فقد بات مجلس الشيوخ بمثابة « مجلس استشارى » لدى الإمبراطور ، وعلى الرغم من أن هذا المجلس قد سلب معظم سلطاته خلال القرن الثالث ، إلا أن مركز عضو مجلس الشيوخ لم يفقد قط مكانته وهيبته . ولما كان فى وسع المدن والمجالس البلدية فى الولايات أن تنتخب عضواً ذا نفوذ من أعضاء مجلس الشيوخ ليكون راعياً patronus لها ، فقد كان لها أن تطمئن إلى أن شكواها مما قد يقع عليها من غبن ستصل إلى مسامع المسئولين ومن ثم نزول أسباب الشكوى ، بينما كان فى وسع أهل الولايات ممن ليسوا مواطنين أن يرفعوا مسائلهم الهامة أمام «مجلس الولاية» الذى كان يجتمع مرة فى العام على الأقل فى عاصمة الإقليم .

وهكذا نرى أن المواطن الرومانى كان كائنا متميزاً ، حيثما أقام وحيثما حل، ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك ما حدث للقديس بولس ، إذ أنقذته رعويته الرومانية فى مرة من المرات (لا كل المرات) من الجلد ، وخولت له الحق فى التماس العفو من الإمبراطور نفسه . وفضلا عن ذلك فقد كان للمواطن الرومانى وحده الحق فى عقد قران رسمى مشروع ، وإنجاب ذرية شرعية ، والتصرف فى ممتلكاته بموجب وصية قانونية صحيحة ، وكانت له حرية الانتقال إلى حيثما يشاء (ولو أنه لم يكن مسموحاً لعضو مجلس الشيوخ بمغادرة إيطاليا إلا بإذن من الإمبراطور) . بيد أن ذلك لا يعنى أنه لم يكن فى استطاعة غير المواطنين أن يقوموا بما يقوم به المواطنون ، ولكن قيامهم بذلك لم يكن حقاً مشروعاً لهم .

ويمكن أن نقسم غير الرومانيين — بقصد التيسير — إلى فريقين ، أهل الشرق وأهل الغرب . أما أبناء الشرق فقد كانوا أكثر تمدينا وأعظم جداً ونشاطاً فضلا عن إيمانهم بتراثهم الحضارى العريق ، وضم الشرق شعوب مصر واليهودية وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان الأصلية ، وكانت هذه مجموعة متباينة عجيبة من الشعوب والألسنة زاد من غرابتها انتشار اليونانيين فى جميع أنحاء المنطقة ، إلى الحد الذى أصبحت معه اللغة اليونانية ، هى لغة طبقات الأثرياء والمثقفين والتجار ، فى حين أن السكان الوطنيين القدامى ممن هم دون هذه الطبقة ظلوا يستخدمون لهجاتهم المحلية ، فكانت هناك اللغات المصرية والأرامية والكبادوكية والليكاؤونية Lycaonian والفريجية والقراقية . وكادت روما فى عهد الجمهورية ، خلال القرن الثانى قبل الميلاد ، أن تقضى على الحضارة الهيلينية ، غير أن بومبي الكبير لم يلبث أن تبين هذا الخطر ، ودأب الأباطرة على تشجيع المدن اليونانية والمنشآت اليونانية فى جميع أنحاء الشرق . وبينما لمس الرومان مبلغ نفع المثقفين من اليونانيين ، وما يتمتعون به من ميزات محمودة فى الوظائف الإدارية ، أخذ اليونانيون أنفسهم يتحولون شيئاً فشيئاً عن نظرتهم المتعالية إلى روما ، وشرعوا فى النظر إلى أمجاد الرومان باعتبارها على قدم المساواة مع أمجادهم أو تقل عنها بقدر يسير ، فقد أقام معلم من سرديس Sardes فى القرن الثانى تمثالين نصفيين لديمستين Demosthenes وشيشيرون Cicero باعتبارهما قطبى الخطابة التوأمين ، وبلغ فرجيل من ذيوع الصيت أن ترجمت أشعاره إلى اليونانية ، وكتب بلوتارخوس Plutarch سلسلته المشهورة « السير المماثلة » حيث قارن بين سير بعض الساسة والقادة اليونانيين ونظرائهم من الرومانيين . وكان من المألوف بعد عام ١٠٠ أن يقوم « يونانيون » على حكم أو إدارة ولايات شرقية ، أو يتولون مناصب قيادية ثانوية ، وكان الأباطرة على استعداد دائماً للاستفادة من العلوم والمهارات اليونانية وتشجيع أهلها سواء فى الطب أو المحاسبة أو الاكتشافات الجغرافية .

لقد تم فى القرن الثانى الوفاق بين جنسين متباعدين ، وهكذا التأمت فى النهاية الجراح التى خلفتها الأحقاد القديمة .

وما من شك فى أنه لم يكن متاحاً للسكان الوطنين ، من غير طائفة اليونانيين أو المتكلمين باليونانية — وقد كانوا فى الغالب من الفلاحيين أو عمال المصانع والموانى — ما كان متاحاً لأفراد هذه الطائفة من فرص العمل والنجاح . وقد احتفظ الوطنيون بلغاتهم الخاصة (حتى تحتم على الرومان استخدام المترجمين حيثما دعت الحاجة) وظلوا على عاداتهم ودياناتهم وأعيادهم، فقد كانت روما على قدر من الحكمة والبصيرة يربأ بها عن حماقة التدخل فى مثل هذه الأمور . ورغم أنه كان فى وسع الأثرياء بلوغ كراسى الحكم فى النهاية واحتلال مراكز بارزة فى أوساطهم المحلية ، مما يتيح لهم التطلع إلى نيل حقوق المواطنة الرومانية، إلا أن مثل هذا المطلب كان فوق طاقة الغالبية العظمى ، التى كانت تواصل عملها فى جد ومثابرة قانعة بحالها راضية فى معظم الأحوال، إلا أن تفرض عليها ضرائب جديدة أو تحدق بها مجاعة ، فعند ذلك تتلاحق الشكاوى والملتمسات على الحاكم ، والأمر متوقف حينئذ على همة الحاكم وحكمته .

بيد أن الأمر لم يكن يخلو من المتبرمين الساخطين ، لأن روما لم تكن تؤيد القوميات السياسية ، ولكنها الطبيعة البشرية هى التى تقضى بإيثار الحكم الذاتى على الحكم الرشيد المستنير . ودأب الأباطرة والحكام على استلفات الأنظار دائما فيما يصدرونه من منشورات وبيانات ، إلى الخيرات التى تعود على الإنسانية من جراء حكمهم ، بيد أن ذلك لم يكن يفضى بالضرورة إلى الإقناع . وفى مصر بوجه خاص ، لم تختف بذور الثورة فى أى زمن من الأزمان ، فقد كان هناك ، أولا وقبل كل شىء ، السكان الوطنيون القدماء ، الغالبية العظمى منهم منصرفة إلى الكد والكدح على الدوام ، أو كانوا كهنة يقومون بإحياء الطقوس التقليدية القديمة ، وجميع هؤلاء وهؤلاء يكنون

الكراهية لليونانيين الغزاة المعتدين الذين وفدوا إلى البلاد مع الإسكندر الأكبر ، وهم على استعداد دائما لاستنكار المضار التى كان يلحقها الأجانب بمصر . أما السكان اليونانيون الذين كانوا يمثلون يوماً ما العنصر صاحب السيادة ، فقد كانوا يزدرون الوطنيين ، ويحقدون على الرومانيين الذين أزاحوهم عن مراكزهم ، وكانوا يتناقلون فيما بينهم نوعا غريباً من الأدب أطلق عليه الباحثون فى العصر الحديث اسم « أعمال الشهداء الوثنيين » . وتروى هذه الأعمال عادة كيف أن اليونانيين المقيمين فى الإسكندرية كانوا يساقون إلى الإمبراطور ، ويحاكمون أمامه بتهم باطلة ملفقة . ويظهر الإمبراطور فى هذه الأعمال — بطبيعة الحال — حقوداً قاسيا يحكم عن هوى ، ولا تختتم المحاكمة التى تنتهى بالإدانة عادة إلا بعد أن يكون المتهم قد فاه ببعض الأقوال الطنانة الأخاذة . لم يلمس الفلاحون الوطنيون أى تحسن طرأ على أحوالهم أو أعبائهم ، بانتقال الحكم إلى الرومان ، والأمر ببساطة لا يعدو أن الرومان كانوا أكثر حزما ودقة فى الإدارة من البطالمة المتأخرين . ففى مصر كان يقبع مخزن الغلال التابع لروما ، وما كان الرومانيون ممن يتهاونون فى فى المطالبة بحقهم كاملا . «كانت روما بمثابة مالك متغيب ، وكان جانب عظيم من القمح الذى يسلمه مستأجرو الأراضى الملكية إيجاراً لأرضهم ، أو يقدمه ملاك الأراضى ضريبة على أرضهم ، يرسل جميعه بالإضافة إلى الضرائب النقدية إلى روما لينفق لمصلحة الشعب الرومانى فتتمثل فيه خسارة تامة لمصر» .

ولم يكن للفلاحين إزاء هذا الاستغلال المنظم إلا أن يلجئوا فى النهاية إلى سلاح واحد هو سلاح التهديد بترك أرضهم دون زرع ، أى التهديد بالإضراب . وكانت ترد من وقت لآخر الأوامر والمنشورات من الحكام يهيبون فيها بالفلاحين الساخطين العودة إلى زراعة أراضيهم ومواصلة أعمالهم ، وإن قصة مصر الرومانية « لقصة مؤسفة تتمثل فيها ضروب من الاستغلال وقصر

النظر أدت فى النهاية إلى النتيجة الحتمية لهـــا وهى الانهيار الاقتصادى والاجتماعى(١) . ولا غرابة فى أن أصبح المصريون يكنون للحكومات دائماً أشد الحقد . وذهب الأمر إلى حد أن الإدارة الرومانية كانت تشدد الرقابة على الكهنة المصريين أنفسهم ، ولقد آلت إلينا وثيقة مؤثرة ،كانت بمثابة صرخة ألم أخيرة أطلقها مصرى عاش فى القرن الثالث ، كان يشعر أن اليونانيين والرومانيين يحطمون كل ما هو مصرى وكل ماهو مقدس وكل ما هو شائق طريف ويهوون به إلى هاوية الفناء والعدم . لقد كتب يقول : « سيحين الوقت الذى يبدو فيه أن مصر أكرمت آلهتها عبثاً طيلة هذا الزمن ، بدافع من ورعها وتقواها . سيترك الآلهة هذه الأرض ويعودون إلى سماواتهم . . . لأن الغرباء يملئون هذه البلاد وهذه الأرض ، ولن يطوى النسيان الدين فحسب ، بل الأدهى أنه سيحرم علينا باسم القانون وتحت التهديد بالعقوبات الرادعة ، كل ورع وعبادة ونسك . وهكذا ستمتلىء بالقبور والأموات هذه الأرض المقدسة كل التقديس ، الأرض التى كانت مهداً للهياكل والمعابد . أيا مصر ! أيا مصر ! لن يبقى من كل صلاحك سوى أحجار صماء ، لن يؤمن بها أبناؤك ولن تبقى غير ألفاظ منحوتة فى الصخر تحكى قصة أعمالك الصالحة . . . . » .

كذلك قام اليهود الذين انتشروا فى شتى الأصقاع ، بثورات مخوفة

(١) نقلت هذه الفقرة والفقرة السابقة من مؤلف السير هـ . ا . بل : « مصر منذ عهد الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى » .

(Sir) H. I. Bell, Egypt : from Alexander the Great to the Arab Conquest, Oxford, 1948.

صفحتى ٧٥ و ٧٦ الذى ترجمه إلى العربية الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد على والأستاذ الدكتور محمد عواد حسين .

رهيبة . ثار اليهود ضد الحكم الروماني مرتين : إحداهما من عام ٦٦ إلى عام ٧٠ والأخرى من عام ١٣٢ إلى عام ١٣٥ ، وقد كلف قمع هاتين الثورتين الحكومة الكثير سواء في الرجال أو المال ، كما كان لتشتت اليهود وانتشارهم أن كان هناك احتمال لنشوب ثورات تتجاوب مع هذه ، في ولايات أخرى . وكان بوسع اليهود فضلا عن ذلك أن يتطلعوا دائما إلى عون وتأييد إخوانهم الذين يعيشون عبر الفرات تحت حماية ملك بارثيا Parthia . ولقد ظهر العداء الذي كان اليهود يشعرون به تجاه الدولة التي قهرت أمتهم ونقضت هيكلهم وسعت إلى استئصال ديانتهم ، في صورة نوع آخر من التآليف الأدبية الغريبة التي أطلق عليها الباحثون عبارة « نبوءات اليهود السيبيلية » « the Jewish Sibylline Oracles » . وما من شك في أنه قد راجت وترددت في الولايات الشرقية من الإمبراطورية ، نبوءات تبشر بخلاص قريب ، وقد حرص الأباطرة الرومانيون على إعدام هذه الوثائق ومنع تداولها ، خشية أن تؤدي إلى التمرد والوعي القومي بين رعاياهم . وكانت هذه النبوءات اليهودية عبارة عن منظومات شعرية حسنة السبك سداسية المقاطع ، تحمل جميعها تقريبا رسالة واحدة ، يختلف مضمونها لتوائم كل زمن وكل بلد ، تعلن أن اليوم قريب حين يهب الشرق مرة أخرى تحت لواء قائد عظيم يطرد الرومانيين حتى الشاطئ أو يلقيهم في البحر . ثم يطلع فجر عهد تسوده العدالة والسلام والرخاء . وقد آلت إلينا نبوءة من هذه النبوءات كتبت فيما يرجح في موجة القلق والذعر التي اجتاحت البلاد في السنة التي ثار فيها بركان فيزوف ثورته العارمة فطمس معالم مدينتين إيطاليتين هما بومبي Pompeii وهيركولانيوم Herculaneum تحت وابل من الرماد واللافا ، وحين فر أحد المحتالين ، مدعيا أنه نيرون ، إلى ملك بارثيا وأوشك أن يحصل على معونته ، ويخرج الكاتب من ذلك بنبوءته بسقوط روما الوشيك . وكانت روما مضطرة ، شأنها شأن أية حكومة قديمة

أو حديثة ، أن تلجأ إلى أساليب القوة والعنف ، ولا شك فى أنه قد وقعت حالات من الظلم ، ولكننا لا يمكن أن نقطع بما إذا كانت الدوافع الرئيسية لنسج هذه النبوءات هى الحقد على حكومة ظالمة أو هى النفور من الحاكم الأجنبى أو هى الانتصار للمشاعر القومية الدينية .

ويعتقد البعض أنه كان يوجد إلى جانب المركزين: المصرى واليهودى ، مركز ثالث من مراكز مناهضة روما ، مصدره المسيحية . ولذا فإننا نقرأ فى أحد شروح فقرة جاءت فى رؤيا يوحنا اللاهوتى (الإصحاح ١٧ الآيات من ١ — ١٤) « إن الوحش الذى يحمل بابل العظيمة هو قوة الشعب المسمى باللاتين » . ولكن يبدو أن هذه ليست إلا مثلا شرودا لأن كتابات كل من تلاميذ السيد المسيح وآباء الكنيسة توصى بطاعة الحكام والموظفين فى الإمبراطورية « لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله » . والواقع أنه كان فى وسع المدافعين عن المسيحية فى القرنين الثانى والثالث أن يشيروا فى فخر إلى الحقيقة الماثلة فى أن المسيحيين لم يظاهروا قط أى مدع للعرش ، كما لم يساندوا أية حركة ثورية . ولم يرد ما يخالف هذا الرأى إلا فى إشارة واحدة مفردة ، تقول: إن بعض المسيحيين فى ولاية بونتوس Pontus رحبوا ، فيما يظهر ، بالقوطيين المغيرين وقدموا لهم يد المساعدة (انظر الفصل التاسع) ، وأنهم لقوا من جراء ذلك تعنيفا شـــديدا من أسقف أبروشيتهم : جريجورى ثوماتورجوس Gregory Thaumaturgus .

ويمكننا القول بأن الولايات الشرقية ، بغض النظر عن بعض المشاعر القومية التى كانت سائدة بين كل من المصريين واليهود ، وبغض النظر عن بعض العناصر الساخطة بين اليونانيين ، كانت راضية عن نظام الحكم الذى تلقته ، وأنها قد تقبلت هذا النظام إن لم تكن قد رحبت به فعلا . ذلك لأن روما احتملت وأباحت الكثير ، فأمن الناس على ممتلكاتهم ، ووضع حد لأعمال السلب

والنهب ، ولم تبذل أية محاولة لتحريم أو محو اللغات المحلية أو العادات الوطنية، أما الضرائب فلم تكن فوق الطاقة ، والواقع أنه قد يحدث فى كثير من الأحيان أن يلمس سكان الممالك التابعة الصغيرة التى تضم إلى الإمبراطورية بعض التخفف من الضرائب المفروضة عليهم نظراً لانقطاع مصاريف البلاط الملكى بزوال العرش وانضمامهم إلى الإمبراطورية . والكثرة من الناس ، على مر العصور، وبخاصة ممن يعملون فى فلاحة الأرض ، إنما هم على استعداد لأن يقضوا حياتهم ، راضين قانعين ، إذا ما تركوا وشأنهم يفلحون أرضهم فى أمن وسلام وإذا ما سمح لهم بالاحتفاظ بلغاتهم وتقاليدهم ودياناتهم ، مع مراعاة ألا تثقل كواهلهم بالضرائب . وقد انطبق هذا فيما يبدو بوجه عام على القرنين الأول والثانى . إن الأمر لا يعدو ماقاله أحد المؤرخين القدماء : « إن قلة من الناس فحسب هى التى تريد الحرية ، أما الغالبية العظمى فإنما تنشد الحكام المنصفين » .

أما الولايات الغربية فإنها تعكس صورة مخالفة تقف على النقيض تماماً من الصورة السالفة . فقد كانت القبائل الكلتية فى أقطار مثل أسبانيا والغال (وبريطانيا) أقرب إلى الرومان فى اللغة والعادات وطرائق الحياة ، من الشعوب الشرقية . فعلى حين أن اللغة اللاتينية لم ترسخ لها قدم فى الشرق ، فإنها قد تأصلت وامتدت جذورا فى الغرب وباتت أشبه « بالرطانة الشائعة » فى المكاتبات الرسمية والمعاملات، ومازالت اللغة اللاتينية هى القاعدة الأساسية للغات الفرنسية والأسبانية والبرتغالية ، كما أنها تمتد إلى حد فى جذور اللغتين: الويلشية والبريتونية . ورغم ذلك ، فإن انتشار الحضارة الرومانية كان تدريجيا ، لأنه لم يكن هناك مفر من أن يبدو القانون الرومانى بدعوته الصريحة إلى الفردية غريبا مغلقا على الأفهام ، فى نظر القبائل الكلتية التى كانت تؤمن بقوانين الأسرة والجماعة . ورغم ذلك ، فتمثل الغرب للطابع الرومانى ، كان أعمق من تطبع الشرق اليونانى به ، ويتضح ذلك من دراستنا لفنون الغرب ، ودرجة تمدينه ولغته .

بثت الإمبراطورية فى أنحاء الولايات الغربية الأسلوب التقليدى الكامل للفن اليونانى الرومانى . كانت روما نفسها مكتظة بفنون النحت اليونانى ، إذ كانت مجموعات التماثيل اليونانية تجلب فى الأصل وفى أغلب الأحيان على صورة مغانم وأسلاب ، ولو أن الحكام الرومانيين من ذوى الصلاح والتقوى كانوا يتبرءون من هذه السرقات ، وقد سجل أوغسطس بفخر أنه أعاد إلى المدن اليونانية والآسيوية المعابد والتماثيل التى كان ماركوس أنطونيوس قد استولى عليها . ولكن لما كان الطلب متزايدا فى كل من إيطاليا والغرب على الأعمال الفنية اليونانية ، فقد وجد بعض أصحاب الأعمال اليونانيين ربحا وفيرا من وراء استخدام العمال فى إنتاج نسخ من روائع الفن اليونانى تباع للثراة من أبناء الغرب ، بينما أخذ الفنانون أنفسهم فى الهجرة إلى روما حيث كان المجال كبيرا للحصول على طلبات لمثل هذه التحف . وكان الأباطرة والنبلاء الأثرياء ومدن الولايات والقبائل المختلفة ، على استعداد لأن يؤدوا عنها أثمان باهظة . وهكذا طلبت قبيلة غاليّة من أرفيرنى Arverni (أوفيرن Auvergne) من زينودوروس Zenodorus ، الفنان الذائع الصيت الذى عاش فى القرن الأول ، أن ينحت لها تمثالا لإلهها ميركوريوس Mercurius ، كما طلب إليه الإمبراطور نيرون بعد ذلك أن يخرج تمثالا عملاقا هائلا ، ليقام أمام ردهة القصر الكبير الجديد الذى فكر فى بنائه والذى سمى « بالبيت الذهبى » . كما أصبحت مدينة أفروديزياس Aphrodisias الصغيرة فى كاريا Caria فى القرن الثانى ، موطنا لمدرسة شهيرة من المثالين والنحاتين ممن خلفوا لنا بعض التماثيل النصفية والنقود الجميلة .

وهكذا كانت هناك بعض الأصول والنماذج فى متناول أيدى الفنانين من أبناء الولايات . ولو أن الزخارف المنقوشة على بعض الأوانى الفخارية الغالية التى كان يتم إنتاجها وتصديرها بكميات هائلة — وكانت هذه عبارة عن

صور أسطورية ومشاهد ومواقف مأخوذة عن المسرحيات الكوميدية — لا ترقى إلا مستوى الفنون الأصيلة الرفيعة ، إلا أنه ليس بوسع المرء بحال أن ينتظر من هذا الإنتاج الضخم فنا رفيعاً أصيلا . غير أن هناك بعض الزهريات (عثر عليها فى كايستور Caistor بمقاطعة لنكولن شاير Lincolnshire) تصور زخارفها مناظر للصيد ترى فيها كلاب الصيد تقفز متهللة نحو سادتها ، والأرانب البرية تمرق مسرعة — وتضارع هذه الزخارف « الصور الرياضية » التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر — وهى تكشف عن إحساس مرهف وحيوية دافقة واستمتاع بالموضوع الذى تعالجه . وخلفت لنا مدرسة للمثالين من نيوماجن Neumagen مشاهد ممتعة من الحياة اليومية : كصورة المستأجر يدفع إيجاره ، والمعلم الغاضب يعنف تلميذا تخلف عن موعد الدرس ، والمسافر الذى يطفىء ظمأه عند ينبوع إلى جانب الطريق ، والطبيب الذى يخرج جسما غريبا من عين مريض . أما فى شرقى أوروبا ، فقد كان الفنانون الوطنيون فى داكيا يقومون بنحت تماثيل تبرز القوة والفتوة وإن علتها مسحة من الكآبة ، وتمثل جنودا مقاتلين أو أسرى حانقين مكبلين بالأغلال ، مستخدمين فى ذلك مجموعة من الطبقات بعضها فوق بعض وهى طريقة يرجح أنها قد أخذت أصلا عن الطريقة المتبعة فى نحت الخشب . أما فى بريطانيا الرومانية ، فإنه رغم أن الجانب الأعظم من الإنتاج الفنى كان عبارة عن تقليد فج غير متقن للمشاهد الكلاسيكية ، إلا أنه كان بوسع الفنان ، لو أتيحت له الفرصة ، كما حدث بالنسبة لأبى هول لندن أو رأس الغول الملتحى التى عثر عليها فى باث Bath ، أن يبتدع أشكالا غاية فى الحدة وقوة التركيز . وكان بوسع البنائين والنحاتين فى هذه الولايات المختلفة ، وقد تشبعوا بالأسلوب الكلاسيكى فى اختيار الخطوط والأشكال ، أن يأخذوا عن أساتذتهم التقليديين ، دون أن يفقدوا شخصياتهم .

وإذا أراد امرؤ أن يلم بفكرة عن التغيرات التى طرأت على طبيعة فن التصوير ومذاهبه خلال الثلاثة القرون ونصف القرن من حياة الإمبراطورية فيحسن به أن يدرس رءوس تماثيل الأباطرة الرومانية (ويزخر المتحف البريطانى بمجموعة طيبة منها) . ولنبدأ بأوغسطس ، وهنا نجد الرأس الدقيق بملامحه الرقيقة المليحة ، ونجد البدن الذى أخذ وضعا جميلا محببا ، وربما كان الفنان قد نحا فى ذلك منحى مثاليا ، بيد أنه وضع بين أيدينا صورة المواطن المثالى فى رأفته ووداعته وفى سموه ورفعته فى الوقت ذاته ، ويمر جيلان فيظهر فسباسيان أصلع فظا ضخم الفكين لا يتسم بشىء كبير من الوقار ، وإن بدا مليئا بالألمعية والعزم . ثم يأتى تراجان ، الجندى الموفور الصحة والفتوة الذى يشع قوة وثقة ، ثم هادريان وأنتونينوس وماركوس أوريليوس ، ويظهر جميعهم ملتحين واسعى العلم عليهم سيماء الوقار . وما إن يتقدم بنا الزمن فى القرن الثالث حتى تظهر وجوه جديدة غير رومانية ، فنرى فيليب العربى وماكسيمين التراقى ودقلديانوس أيضا الذى يظهر مكتنز العنق قويا عظيم البطش . ولم يعد دقلديانوس أو قسطنطين أو غيرهم من أباطرة ذلك العصر ، يصورون بصور آدمية ، بل مثالية ، فقد كان التمثال الكامل أو التمثال النصفى يهدفان إلى إبراز القوة ، أما التركيز على العينين بنظراتهما المحدقة المخيفة فكان يرمى إلى إضفاء جلال طاغ لا يتأتى للبشر .

امل فى هذه العجالة عن الفن غناء . أما موضوعنا الثانى فكان التمدين ، ولعل حركة التمدين كانت أعظم مفخرة لروما . لم يكن الكلتيون يألفون الحياة فى المدن الكبيرة ، غير أنهم لقوا من الرومان تشجيعاً على ترك مستقراتهم الجبلية والهبوط للعيش فى المدن التى تؤسس حديثاً . وفى هذه المدن ، كانت نظمهم تسير على نسق النظم الرومانية ، فيتألف مجلس للشيوخ يسمى Ordo من المواطنين المتقدمين فى السن من أصحاب الجاه والسلطان ، ويعين لهم حاكمان رئيسان أو أربعة حكام . وبوسعهم ، فى مثل هذه الظروف ، أن يتعلموا سبل

تدبير شئون جماعتهم بأسلوب سلمى لائق ، وعلى حين كان يمنح أعضاء مجلس الشيوخ المنتخبون ، فى بعض هذه المدن municipia ، حقوق المواطنة الرومانية بفضل فوزهم فى الانتخابات ، فإنه كان لأى حاكم أن يحصل تلقائياً على حقوق المواطنة ولو كان فى أدنى مراتب المجالس البلدية . كتب أحد اليونانيين المطلعين يقول : « لقد اعتاد أهل بلاد الغال فيما سلف أن يخرجوا للقتال بألوف من المقاتلين ، بيد أنهم الآن يحرثون سهولهم الفسيحة ووديانهم العميقة فى جبال الألب » . وكان الصالحون من الحكام يحثون على تأسيس مدن جديدة لتكون مراكز قبلية ، وهناك عدد من هذه المراكز فى إنجلترا ، فى كارونت Caerwent وروكستر Wroxeter وآلبرا Allobroges (فى يوركشير) وليسستر Leicester ، فهذه المدن جميعها قد بدأت حياتها فى صورة مراكز قبلية . وعمد الأباطرة ، لتشجيع النشاط التجارى الآمن المسالم ، إلى إعادة بناء القرى القديمة أو إنشاء مقرات جديدة إن دعا الأمر . لقد أقام نيرون المتاجر والأسواق على طول الطرق العسكرية فى تراقيا ، أما مدينة بيزوس Pizus وهى لا تبعد عن تراقيا كثيراً ، فقد كانت من خلقه هو عامداً متعمداً ، وكما يستدل من أسماء مدن إنجلترا أو ألمانيا على الأصل الذى نشأت عنه ، فإن أسماء مدن مثل قيصروماجوس Caesaromagus أو أوغسطوبريجا Augustobriga لتكشف عن أسماء مؤسسيها ، ولا يستبعد أن بعض أماكن الأسواق المعروفة يرجع عهدها إلى زمن الرومانيين وربما إلى ما قبل ذلك أيضاً . ذلك لأنه كانت تراعى فى اختيار هذه الأماكن ، الدقة المتناهية ، وتقع كثير من المدن الكبيرة (بغض النظر عن المدن التى خلقتها الثورة الصناعية) فى كل من فرنسا وأسبانيا وفى بريطانيا أيضاً التى كانت أقل منهما تمثلا للحضارة الرومانية ، كما تقع معظم الأبروشيات فى أماكن اختطها فى الأصل الحكام الرومانيون .

ورسخت قدم اللغة اللاتينية فى الغرب فى الولايات التى طال أمد احتلال

الرومان لها ، وحيثما كانت هناك قرابة بينها وبين اللغة الأصلية للبلاد . كانت اللغة البونية الوطنية فى شمال إفريقيا متأصلة عميقة الجذور . فقد آل إلينا نقش يرجع تاريخه إلى القرن الثالث كتب فيه أحد الجنديين الإفريقيين اسمه بخط يده المهوش باللغة البونية ، وذلك على شقافة عثر عليها بالقرب من تشستر Chester ، والحقيقة أن الأمر قد ذهب إلى حد أن سيدة فى مثل مكانة شقيقة الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس ، لم تكن تحسن بحال إخراج مقاطع لغتها اللاتينية ، أما عن القشور التى بقيت من اللغة اللاتينية حتى القرن السادس فقد انجردت واندثرت إبان غزوات العرب . غير أن اللغة اللاتينية كتب لها الحياة فى فرنسا وبلجيكا وأسبانيا والبرتغال بأن صارت قاعدة وأساساً للغات الحديثة لهذه البلاد ، وربما كان الفضل فى ذلك أن روما لم تحاول أن تفرض لغتها فى القديم على شعوب هذه البلاد . وكانت اللغة الغالية ذائعة فى القرون الأولى حتى أن إيرينايوس Irenaeus ، وهو من آباء الكنيسة ، قصد إلى تعلمها لكى يقوم بالتبشير بصورة أقوى وأجدى ، وكانت العقود التى تكتب باللغتين الغالية أو البونية فى عصر متأخر يعود إلى القرن الثالث ، تعتبر صحيحة أمام القانون ، كما كانت اللغه الغالية سائدة فى القرن الرابع فى وديان فرنسا النائية . كما تظهر اللغة اللاتينية ، فى صورة غير واضحة كل هذا الوضوح وإن لم يكن هناك شك فى وجودها ، كقاعدة للغة الرومانية الحديثة ولغة لا دينيا Ladinia (فى جنوب شرق سويسرا) واللغات الكلتية فى ويلز وبريتانى، ولو أمعنا النظر فى لغات أهل ويلز وكوردول وبريتانى، لوجدنا كيف أن هؤلاء الكلتيين قد نقلوا إلى لغاتهم تلك الألفاظ الدالة على المستحدثات التى تأتى بها الحضارات الراقية ، مثل الألفاظ الخاصة بالمعمار والبناء والمصطلحات البحرية والتجارية والكلمات المتعلقة بالكتب والكتابة .

بقيت منطقة أخرى جديرة بالذكر فى هذا العرض الخاطف الذى نحن بصدده ، وهى منطقة أوروبا الوسطى ومنطقة البلقان اللتان تطابقان على وجه

التقريب ولايات بانونيا Pannonia ومويزيا Moesia وداكيا Dacia ، وحيا عرف برمته لدى الرومانيين باسم إليريكوم Illyricum . ولم يبدأ غزو هذه المنطقة إلا فى عصر أوغسطس ، وكانت تضم شعبا مختلطا أساسه التراقيون (أو الإليريون) ، فرض عليه الغزاة الكلتيون ثم الحكام الرومانيون . وكان التراقيون فى بلادهم الجبلية الوعرة الكثيرة الربى والوهاد يمثلون شعبا معدما خشنا بربريا جامد الأحاسيس ، كان من بين ألوان التسلية لديه (لعبة الشنق) وهى لعبة يعلق فيها اللاعب بحبل متدل من شجرة يلتف حول عنقه ، ثم يترك ليلاقى حتفه شنقا ما لم يسارع باستخدام سكين بيده مما يتطلب غاية الحذق والمهارة ، وقد أثبت هؤلاء الرجال الأشداء أنهم جنود ممتازون استخدموا فى القوات المساعدة أولا ، ثم فى الفرق فيما بعد . والحقيقة أنه ما إن حل القرن الثالث وأصبح الإليريون مواطنين رومانيين حتى باتوا يؤلفون القلب الصلد الجبار للجيوش الرومانية ، بل إنهم قدموا عددا من الأباطرة المقاتلين ، وناهيك عن أوريليان وكلوديوس الثانى ودقلديانوس . إذ أن هؤلاء الإليريين بدورهم ، قد استبد بنفوسهم — شأنهم شأن سائر سكان الولايات — الإعجاب بقوة الإمبراطورية ونظامها وعدالتها ، وباتوا فخورين بأن ينضموا إلى زمرة المواطنين الرومانيين وبأن يرثوا تقاليدهم ويناصروا هذه التقاليد . وإن قطع النقود التى أصدروها خلال أزمة القرن الثالث المروعة ، والتى كانت تحمل أسطورة الثقة والاعتزاز : قوة اليريكوم Virtus Illurici وتصور الذئبة ترضع توأميها لتدل على أنهم كانوا يعتزون بموقفهم الذى وقفوه بالإسراع لنجدة روما وصون روحها وتقاليدها .

وهكذا انتشرت الحضارة الرومانية ، حثيثاً حثيثاً دون قسر أو إجبار ، وبعد أن كانت الشعوب الوطنية المختلفة فى الشرق والشمال والغرب قد بدأت حياتها بتلقى الهزيمة على يد الفرق الرومانيه فإنها انتهت فى مدى قرنين إلى أنها

أصبحت فى كثير من الأحيان تمد الفرق الرومانية عينها بالجند، وتنتصر للنظم والتقاليد الرومانية، ولقد كان دقلديانوس وجاليريوس اللذان ولدا فى إليريكوم، من أعنف خصوم المسيحية وأشدهم بطشاً بها، لا لشىء إلا لأنهما كانا يؤمنان أشد الإيمان بقيمة « تقاليد الأولين ». والواقع أن أهل الولايات قد هبوا لنجدة الإمبراطورية، وكانوا يعتبرون أنفسهم رومانيين، وشاهد على ذلك أن جلداس Gildas البريطانى كان يتحدث فى القرنين الخامس والسادس عن اللغة اللاتينية فيقول: « لغتنا اللاتينية »، كما أن من اصطلحنا على تسميتهم « بالبيزنطيين » كانوا ينظرون إلى أنفسهم عادة باعتبارهم « رومانيين ». إن ما استأثر بإعجاب أهل الولايات، بغض النظر عن الشعور بالإعجاب الطبيعى الذى يكاد يشعر به الناس جميعاً تجاه من يدافعون عن أنفسهم، إنما كان روح التسامح المتأصلة التى أبدتها روما تجاه لغات غير الرومان من الشعوب وإزاء عاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم، وكلها أشياء تدفع بنى الإنسان إلى الاستماتة فى سبيل صونها. والحالة الوحيدة التى كانت روما تستثنيها من قاعدة التسامح العامة، هى أن ترتبط ديانة بعينها ارتباطاً وثيقاً بتاريخ وعادات أمة من الأمم إلى الحد الذى تصبح معه عاملا لإثارة المشاعر القومية الكامنة أو إذكائها مما يؤدى إلى قيام الثورات، أو إذا ظهر أن طقوسها لا تتفق مع الخلق أو الشعور الإنسانى. وإلى الشرط الأول تعزى محاولات روما لاستئصال الديانة اليهودية فى عام ٧٠ بإشعال النار فى هيكل أورشليم وتدميره كلية، وقمعها الدموى أيضاً للثورة اليهودية التى نشبت بين عامى ١٣٢ و١٣٥. وإلى الشرط الثانى ترجع حملة الحكومة الشعواء فى أوائل القرن الأول للقضاء على طقوس تقديم الضحايا البشرية التى كانت منتشرة فى أفريقيا، حيث جرت العادة على تقديم الذبائح من الأطفال إلى الإله مولوخ Moloch وربما اجتمع الشرطان السالفان فى تفسير ما حدث من اختفاء طائفة « الدرود » كلية من بلاد الغال، إذ كان يبدو أن لنشاطهم صلة بالشعور القومى بالإضافة إلى أنهم كانوا دون شك يمارسون

عادة تقديم الضحايا من البشر . كتب بليني الكبير يقول : «ولعله من العسير أن نقدر كم يدين العالم الروماني للرومان بالفضل، لقضائهم على تلك الطقوس الرهيبة التي كان يعد فيها قتل الإنسان أسمى مراتب التقوى والورع »(التاريخ الطبيعي. فصل ٣٠ الفقرة ١٣) .

يقول هيولاست : « إن وحدة الشعور هي ما حققته روما ، وكانت هذه أعظم وحدة حقيقية بالسعي لنيلها . أما تحقيق وحدة الشكل والمظهر ، فهذا ما لم تسع روما قط إليه كما لم تبلغه » . وكانت وحدة الشعور هذه ترتكز على أساس من اللغة المشتركة ، والمساواة أمام القانون وعلى النظم المشتركة ، وقد وجدت في الإمبراطور الرمز الأوفى لها ، وهو الذي تجسدت فيه عظمة روما وسلمها . بيد أن وحدة الشعور هذه استقرت في النهاية على أساس من رضاء الغالبية العظمى من المحكومين بحكوماتهم ، ولا ننكر أنه كانت هناك دون شك بعض العناصر المعادية الساخطة ، ممن كانوا يحلمون بسقوط روما (وإن كانوا لا يملكون شيئا يحلونه محلها لو حدث ذلك بالفعل) . غير أن هؤلاء الساخطين سواء أكانوا يونانيين أم مصريين أم يهوداً لم يكونوا يمثلون سوى أقلية ضئيلة . فالسلام الروماني Pax Romana كان يضمن للفلاحين الخلاص من الحروب والقلاقل ، كما يضمن لهم القضاء العادل إذا ما اشتدت بهم المحن ، كما كان يوفر لهم الأسواق الطيبة ، أما الطبقات العليا والطبقات الثرية فكانت عصب الحكم الروماني ، لأن أفرادها كانوا يأخذون بنصيبهم في ظله من رغد العيش وارتفاع مستوى المعيشة ، علاوة على ما يؤملون من نيل حقوق المواطنة الرومانية وبلوغ كراسي الحكم . وربما أساء بعض هؤلاء الأثرياء من أصحاب الأراضي استخدام سلطتهم في بعض البلاد ، إذ يلمّح أبوليوس Apuleius في إحدى رواياته بعنوان « الحمار الذهبي » إلى جور أصحاب السلطان potentiores وعسفهم ، ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن مسموحاً لأي منهم أن

يحاكم فى الإقليم الذى يقطنه ،خشية أن يستغل نفوذه لدى أعضاء هيئة المحكمة . ومن المؤكد أن جانبا من الثروات الطائلة التى كانت فى حوزة بعض أصحاب الملايين الذين عاشوا فى القرن الثانى مثل هيروديس أتيكوس Herodes Atticus فى اليونان وابراموواس Opramoas فى ليكيا ، قد توفر لديهم نتيجة لاستغلالهم للعمال الذين يشتغلون فى ضياعهم الواسعة ، بيد أنه يمكن القول إن الحالة لم تكن سيئة خلال القرنين الأول والثانى . فقد كان العمال وأصحاب الملكيات الصغيرة راضين عن أحوالهم ، وكان بوسعهم أن يتطلعوا إلى الاستمتاع بين آن وآخر بألوان من التسلية وبالمهرجانات والمآدب التى كان يجرى فيها توزيع الطعام والشراب فى المناسبات الكبرى والتى كانت تقيمها الطبقات الثرية . وكانت روح الخير والرغبـــة فى العمل من أجل المجتمع لدى الأثرياء من المواطنين واضحة تماما فى القرن الثانى ، فكانوا يقيمون الأسواق والمكتبات والحمامات العامة ويهبونها لمدنهم ، وكانوا يوصون بالصدقات التى توقف على تعليم الفقراء وتنشئتهم بالمجان ، ويتبرعون بالقيام بواجبات أو الاضطلاع بأعمال باهظة التكاليف من أجل مدنهم ، كما أنهم كانوا يوفرون بصفة عامة الأموال التى تستغل للصالح العام . ربما كانت هذه أشبه بسياسة « التأمين على الحياة » ، وعلى أية حال ، فإن ذلك لا يغمط الحقيقة التى تشهد بها النقوش العديدة التى وجدت فى كل جزء من أجزاء الإمبراطورية والماثلة فى أن هؤلاء المواطنين الثراة قد أخذوا على عاتقهم فى عزم وجرأة وامتثال ورغبة ، القيام بكثير من الأعباء من أجل مدنهم ، وأنهم كانوا يتبارون مع بعضهم البعض فى مضمار الخدمة العامة .

الفصل الرابع

العمل والضرائب

كانت الزراعة ، بعمالها المثابرين الأشداء ، هى القاعدة العريضة والأساس الراسخ الذى تقوم عليه الحياة فى العصور القديمة. فكانت مباشرة الزرع وفلاحة الأرض هما الوظيفتان الطبيعيتان العاديتان ، وهما وظيفتان سليمتان تخلوان من كل شائبة ، إذ كانتا توفران لتلك الإمبراطورية الشاسعة مواردها من الطعام ، كما كان عمال الزراعة المخلصون فى مثابرتهم وسذاجتهم موضوعا لا ينضب معينه لتأمل علماء الأخلاق ، ودأبت الحكومة الرومانية على تشجيع الاستقرار والزراعة ، لأن ذلك لم يكن من شأنه أن يوفر فحسب محصول القمح الذى لا غناء عنه ، بل كان يمدها بالمجندين اللازمين للجيش ، وعلى ذلك فالأمر لم يكن يختلف فى الماضى عما هو عليه الآن ، فى «أن الأعداد الضخمة من السكان الزراعيين ، إن هى إلا مستودع دائم للقوى البشرية للدولة » . كما كانت ملكية الأراضى ، فضلا عن ذلك ، تعد — فى زمن لم توجد فيه أسهم أو سندات أو شركات صناعية كبيرة — أعظم مصادر الثروة ، والسبيل الوحيد السليم المضمون كل الضمان للاستثمار .

وكان من الطبيعى أن تختلف طرق ووسائل ملكية الأرض واستغلالها ، باختلاف المناخ والتربة . كانت الحكومات تؤمن فى كثير من البلاد بعمل صاحب الملكية الصغيرة واقتصاده وحسن تدبيره ، فشجعت على امتلاك مثل هذه القطع الصغيرة من الأرض . وقد ظهرت فى القرن الثانى ضياع شاسعة تتبع الإمبراطور فى كل من أفريقيا وآسيا الصغرى ، حيث كان هؤلاء

الزراع الصغار بمثابة مستأجرين من الإمبراطور ، يشرف عليهم وكيل إمبراطورى (procurator) ويخضعون لرقابة دقيقة. وكان الملاك الصغار (coloni)، فى بعض الضياع، يسخرون للقيام ببعض الأعمال دون أجر كالعمل لمدة يومين فى كل موسم من مواسم الحرث والبذر والحصاد ، وكان من الطبيعى أن يشتط فى الطلب فى كثير من الأحيان، ولدينا عدد كبير من الوثائق التى تصور شكاوى وآلام هؤلاء الأفراد المساكين . كان نظام تخزين المياه والرى المنتظم فى أفريقيا يعود بأوفر الأرباح ، أما فى شمال بلاد الغال وفى بانونيا Pannonia وبريطانيا فإن ثقل التربة كان يتطلب التصريف المستمر للمياه ، كما كان يستلزم استخدام محراث جبار يجرى على عجل لإمكان تفتيتها ، ويبدو أن هذا المحراث الضخم (الذى سمى plaumoratum أو carruca والذى دخل اللغة الألمانية تحت اسم Pflug واللغة الفرنسية تحت اسم Charrue) كان اختراعاً بلجيكيا، غير أن التحسينات التى أدخلت عليه تمت فى ظل الحكم الرومانى ، وقد أدى إلى التوسع فى المساحة المنزرعة ، وإلى تقسيم الأرض إلى وحدات زراعية كبيرة . كما نجد فى بعض أقطار الغرب أيضا ، فى القرن الثالث، ما كان يعرف باسم « نظام الفيلا » Villa حيث كان المالك الثرى لا يكتفى بالإشراف على زراعة الأرض بل كان يجمع حوله طائفة من الصناعات الريفية مثل تخثير القماش والصباغة والنسج .

بيد أنه على الرغم من التطورات والتقلبات التى طرأت على نظم الحياة ، فقد ظلت الزراعة هى الحرفة الرئيسية ، وظلت الدساكر والقرى بمساكنها وحوانيتها ومعابدها تضم نواة الحياة العائلية . فكان الفلاح وأفراد أسرته يبكرون أيام الأسواق (nundinae) فى عربتهم الكبيرة إلى مكان السوق حيث تعقد الاجتماعات وتحتدم المناقشات حول أسعار الماشية والخضروات ، ويتردد على الألسن كيف « أن مكان السوق قد امتد وعظم كأنه ذيل عجل نام » ، وكيف « أن هذه الأيام لم تعد فى حلاوة الأيام الخوالى » ، وكيف « أن الزمن اليوم

غيره بالأمس » أو « أن الدنيا أصبحت غير الدنيا » ، ثم يحل المساء فتعود الأسرة إلى البيت متعبة منهكة وإن تألقت وجوه أفرادها بالبشر . بيد أن هذه المناسبات لم تكن تقع إلا لماما ، وإن فرجيل ليذكرنا ببصيرته الصادقة النافذة بمشهد الزوج تنتظر أوبة زوجها فى المساء بصبر نافد ، وعندما يعود يخف الأبناء للقائه هاشين باشين.إن لدى الزوج المسكينة من الأعمال والمشاغل الشىء الكثير ، فقد تهاجم القططة الدجاج أو قد يصيب الأطفال مكروه ، ثم هناك ما هو أدهى ، فالأخطار محدقة دوما ، إذ قد يهاجم ثور هائج الزوج أو الابن ثم لا يبعد أن يلقاهما قاطع طريق عند عبورهما منطقة موحشة ، ثم كان هناك الخوف أثناء الليل من الأشباح الزائرة ومن الأرواح الممسوخة ذئابا ، ومن مصاصى الدماء الذين لا يستقرون فى قبورهم، بل يهيمون فى الليل لاختطاف الموتى . بيد أن تاريخ الحياة فى القرية بوجه عام كان تاريخا طويلا من العمل الشاق المضنى الذى اجتمع على القيام بعبئه الرجال والنساء والأطفال على حد سواء وتحملوه فى الغالب الأعم عن رضى وطيب خاطر ، تقطعه من آن لآخر الأعياد والرياضة والمهرجانات لتغير إلى حد من دورة الحياة اليومية الشاقة . وأعظم من كل هذا وذاك تلك الفرحة والراحة النفسية اللتان تصحبان موسم الحصاد ، عند ما تعود العربة محملة بالمحاصيل ، ويهرول الجميع ليقودوها إلى فناء الدار ، دافعين عجلاتها إلى الأمام أو معاونين الثورين المجهدين بتخفيف الثقل عن محاور العجلات .

وكان من الممكن الاطمئنان إلى ولاء أهل الريف لنظام الحكم إذا ما كفلت لهم الحكومة حرية العمل فى حقولهم ، ويسرت لهم سبل القضاء العادل إن دعت الضرورة ، ولم تثقل كواهلهم بالضرائب ، وأباحت لهم القيام بالأعياد الملائمة . ولقد عم سلام الإمبراطورية ، فى ظل الضرائب المخففة والقضاء العادل المؤكد حيال أى جور أو اضطهاد ، البلاد زهاء قرنين كاملين . ولكنه ما إن تتجاوز

عام ٢٠٠ إلى الفترة التى بدأت فيها الغزوات واضطرب حبل الأمن ، حتى ترتفع صيحات الاحتجاج ضد غلظة الجنود والموظفين على حد سواء ، وجشعهم ، وضد حوادث قطع الطريق والضرائب المتزايدة بل وضد رجال الأمن أنفسهم .

كانت المدن تعتمد على الريف وعلى كد أهل الريف ومثابرتهم ، للحصول على غذائها وبخاصة القمح ، ومن الريف أيضاً كانت المدن تستنزف الطعام والرجال ، ذلك لأن نقل الأغذية لم يكن يجرى داخل نطاق محلى إقليمى . كانت روما دون شك تجلب مواردها من القمح من وراء البحار ، من مصر وأفريقيا ، أما سائر المدن الأخرى سواء الكبيرة أو الصغيرة فكانت تعتمد على ما جاورها من المناطق الريفية . وبالإضافة إلى خطر المجاعات والخوف من ضعف المحاصيل فقد كان يجثم على صدور أهل الريف شبح رهيب آخر ، طالما انقلب فصار واقعاً ملموساً . وقد وفق أحد الأطباء المعاصرين وهو غالين Galen فى تصوير ذلك الخطر وما يعنيه بالنسبة لأهل الريف ، فكتب مهتماً بالزاوية العلمية يقول : « إن المجاعات المستمرة التى اجتاحت كثيراً من الولايات، متلاحقة فى السنوات الماضية الواحدة بعد الأخرى ، لتقطع بوضوح وجلاء — إلا بالنسبة لأصحاب الأدمغة المتحجرة — بأن الغذاء غير الصحى من شأنه أن يولد الأمراض . وكان سكان المدن ينقلون — كما كانت عادتهم دائماً فى جمع القمح وتخزينه عقب الحصاد مباشرة بكميات تفى بحاجتهم على مدار عامهم التالى — ينقلون كل ما يجدونه من القمح بالإضافة إلى الشعير والفول والعدس ، ثم يتركون ما يتبقى من ذلك لأهل الريف ، وكان ما يتبقى هو حبوب مختلفة الأشكال والألوان (بل إن جانباً كبيراً من هذه أيضاً ينقل إلى المدينة) . وكان أهل الريف يستنفدون خلال الشتاء ما لديهم من هذه الحبوب ، ومن ثم يضطرون إلى الالتجاء إلى الأغذية غير الصحية يقتاتون عليها ، فكانوا يأكلون أفرع وأغصان الأشجار والشجيرات وجذور وبصلات نباتات عسرة الهضم ،

بل كانوا يملأون بطونهم بالأعشاب البرية . . أو يطهون العشب الرطب . وإنك لترى بعضاً منهم فى نهاية الربيع ، وجلهم تقريباً فى بداية الصيف ، وقد أصيبوا بمختلف القرح التى تظهر على الجلد ، وكانت هذه القرح تأخذ صوراً عدة . . . » .

وكان هؤلاء البؤساء يموتون متأثرين بقروحهم فى معظم الأحوال . وإن هذا ليعد مثلا واحداً من بين أمثلة لا تقع تحت حصر . وإذا ما تذكر القارئ كثرة ما تردد عن وقوع مجاعات محلية ، فلن يدهش للحقيقة الماثلة فى أن تعداد سكان الريف لم يزد قط ، ولسوف يدرك السبب فيما كان يشعر به أهل الريف — عن حق — من نفور وسخط متزايد على سكان المدن الذين كانوا يسلبون الكثير « ولا يتركون الريف إلا قاعاً صفصفا » .

ورغم أن اهتمام الجانب الأعظم من السكان كان منصبا على الزراعة ، إلا أنه قد قامت هناك بعض الصناعات وبخاصة فى المدن الكبيرة . وكانت معظم مبانى المدينة فى حاجة إلى الآجر ، ومن ثم كانت صناعة الآجر من أعظم المشروعات ربحا ، كما كان الزراع فى حاجه إلى الفؤوس والأدوات المعدنية وطرادات المحاريث كما كانت تلزمهم أيضا القزانات والدلاء والأوانى الفخارية، بينما كانت الطبقات الثرية تحتاج إلى الأوانى الفخارية والزجاج والمصنوعات الفضية والأثاث مما تنتجه الشركات الإيطالية والغالية ، ويبدو أن ولاية كمبانيا Campania قد تخصصت فى صناعة التحف والنفائس ، كما كانت هناك حاجة إلى الفنيين من العمال لأعمال الفسيفساء والملاط ولوحات الجدران والظهارة . وقائمة الحرف والأعمال الفنية حافلة بشتى الحرف والأعمال الأخرى التى لا يمكن تعدادها فى هذا المجال ، غير أنه مهما تنوعت الحاجات والمطالب واختلفت الحرف والمهن التى قامت للوفاء بها ، فإن ثمة اعتبارين هامين يجب أن نضعهما نصب أعيننا ، أولهما أن الإمبراطورية قد قدمت

حكومات عملت على توطيد السلم ونشر العدل ، وهما شرطان لازمان لقيام أى نشاط صناعى أو تجارى رائج ، بيد أنها تركت المواطن وشأنه يدبر أمره بنفسه فى ظل أمنها وعدالتها ، ولم تكن تقوم بالتوجيه الذى تقوم به وزارات التجارة الحديثة ، كما لم تكن تتبع فيما يظهر سياسة تجارية معينها . والاعتبار الآخر هو أن الأباطرة لم يكونوا يرحبون عادة بالوسائل التى تهدف إلى توفير الأيدى العاملة ، فإنهم كانوا يحرصون على توفير العمل لسكان المدن بأى حال من الأحوال ؛ فقد تقدم للإمبراطور فسباسيان مهندس عرض عليه خدماته فى نقل الأعمدة بالطرق الآلية ، بتكاليف قليلة ، فأجزل فسباسيان له العطاء مكافأة له على اختراعه هذا غير أنه لم يأخذ به ، وأوضح موقفه بقوله : « يجب أن تسمح لى بأن أوفر القوت لرعاياى الفقراء ». ولذا فلم توجد حتى وقت متأخر من القرن الثالث مصانع أو مشروعات تتبع الحكومة ، كما لم تكن ثمة سياسة حكومية رسمية خاصة بالتجارة . وكان الإنتاج عادة فى أيدى الأفراد من أصحاب الأعمال بعبيدهم وعمالهم الأجراء ، ونادراً ما كان هناك ما يقارب الأحوال السائدة فى المصانع الحديثة . وفى القرن الثالث ، شرعت الحكومة فى الإشراف على قطاع معين من الإنتاج الواسع النطاق (وذلك فى الولايات الشرقية) الذى يختص بحاجات الجيش ، غير أن الاسم الذى أطلق على مثل هذه المصانع وهو gynaecia يدل على أن الأيدى العاملة فيه كانت غالبيتها من النساء وأن العمل كان ينصب أساسا على النسج وصناعة الحبال .

من المتعذر أن نطمئن إلى تعميم أحكامنا عن أحوال العمال فى كافة أنحاء الإمبراطورية ، أما عن الرق فإنه يتطلب قسما خاصا ينفرد به . إن صور العمال الذين يعملون فى أفران صهر الحديد بأوساخهم وعرقهم ، والقذارة التى كان عليها عمال المناجم والفقر الذى تبدو عليه قرى الصيادين بأكواخها الحقيرة وصناع العطور الذين كانوا يفتشون قبل مغادرتهم أماكن عملهم خشية أن يكونوا قد دسوا شيئا من العطور الثمينة ، والغطاسين الذين كانوا

يصطادون الإسفنج بحبالهم المشدودة إلى أجسامهم والمناجل فى أيد
والمجرمين الذين كانوا يكدحون فى غيظ مكبوت فى المحاجر والمناجم فى
حراسة مسلحة — إن صور هؤلاء جميعا تظهر واضحة للعيان فى المصادر الة
ويعد مستوى معيشة هؤلاء الأفراد وأحوالهم الاجتماعية منخفضا سيئا
ما قيس بمستوى معيشة أقرانهم فى العصر الحديث ، بيد أن هناك دون
شواهد تدل على أن مستوى المعيشة فى المناجم نفسها قد تحسن ، فقد
هناك نسبة معينة من العمال الأحرار (فى بانونيا مثلا) ، ولو أن الفيلد
سينيكا Seneca أشار فى القرن الأول إلى الأوساخ والأتربة التى كانت تعلو
المناجم ، ولو أنه حدث فى بعض المناطق النائية أن كان عمال المناجم يع
فيما يبدو فى الكهوف التى كانوا يعملون بها ، مع ما كان يترتب على ذلك
حوادث الوفاة المبكرة ، إلا أننا نلاحظ أن مستعمرة المناجم الروما
دولوكوثى Dolaucothy فى ويلز الغربية كانت مزودة بحمامات فوق سطح الأ
على حين أن لوائح مستعمرة المناجم فى فيپاسكا Vipasca (ألجوستريل trel
فى جنوب البرتغال) تكشف عن وجود نظام خاص بالحوانيت وا
المحتكرة المرخص لها (كما فى حالة الحلاقين والحوذية) التى تسير وفق ت
جبرية ، وعن مدارس ومعلمين لتربية أبناء العمال ، وعن الحمامات المقاما
سطح الأرض التى كانت تفتح من الساعة الثانية بعد الظهر إلى الساعة الثا

والحقيقة أن العمال الأجراء فى بعض الحرف كانوا يتمتعون بمستوى لل
لا بأس به ، ويأخذون بقسط وافر من الراحة .

وقد يسمح للجماعات الكبيرة من العمال فى المدن ، أن يتحدوا من
أهداف مشتركة بشرط أن يكون ذلك دائما تحت إشراف الحكومة .
فإنه عندما أضربت نقابة الخبازين فى أفسوس عن العمل وأخذ بعض أع
فى إلقاء الخطب المثيرة فى سوق المدينة ، أصدر البروقنصل مرسوما يأمر

بالامتناع عن عقد الاجتماعات ، وبالامتثال والانصياع للوائح التى وضعت من أجل الصالح العام ، وبأن يوفروا للمدينة دون انقطاع العمال اللازمين لصناعة الخبز . وإذا ما شوهد شخص بعد صدور هذا المرسوم فى اجتماع يخل بالأمن أو كان يحرض على إضراب أو تظاهر ، فسيلقى القبض عليه ويوقع عليه العقاب الرادع » . والواقع أن الحكومة الرومانية كانت تبدى دوما ومنذ عهودها الأولى الخوف والرهبة من الجمعيات والنقابات على اختلافها ، لأنها كانت تعلم كيف أنه من الممكن أن تستغل مثل هذه الجماعات فى إحداث القلاقل والاضطرابات . وعلى ذلك فقد كان على كافة هذه الجمعيات collegia أن تعرض قانون رابطتها ومجموعة اللوائح التى تسير عليها على السلطة المختصة للتصديق عليها ، ولم يكن الطريق إلى التصديق مفروشاً بالورود . وكانت أعمال الاضطراب والشغب تقمع فى شدة وبطش ، وقد فقدت مدينة رودس الحرة ، حريتها هذه فترة من الزمن لأن مواطنين رومانيين قد أصيبوا فى اضطراب حدث بها . ولم ينته الشغب المشهور الذى وقع فى أفسوس ، والذى وصفه سفر الأعمال أبرع وصف ، إلا عندما حذر كاتب المدينة إخوانه المواطنين من مغبة هذا الشغب وما قد يؤدى إليه من تدخل الرومان وما يترتب على ذلك من نتائج لا يعرف مداها .

ولا سبيل فى أية دراسة لأحوال العمل والعمال فى الإمبراطورية الرومانية ، مهما قصرت ، إلى إغفال الدور الذى لعبه الرقيق فى هذا الميدان . فقد تضم دار نبيل من النبلاء الأثرياء المئات من هؤلاء العبيد الذين يقومون بمختلف الوظائف ، فمنهم الصانعون المهرة والفنانون ومنهم الخدم الذين يزينون الردهات والنادلون على مائدة الثرى . لقد كان هذا بمثابة شر مزدوج فهو امتهان لكرامة العبد وسحق لشخصيته ، وهو حط بقيم السيد الخلقية ، الذى كان فى استطاعته أن يبتاع بالمال سلطة مطلقة ، هى السلطان المطلق على الحياة والموت بالنسبة لآدمى مثله ، سواء أكان هذا الكائن البشرى جرمانيا مفتول العضلات أم أسيرا بريطانياً استخدم فى أشق الأعمال وأحقرها . أو كان غلاماً آسيويًا

أو إيرانيًا رقيقاً اتخذ زخرفا وزينة . ولكنه على الرغم من أن العبد كان على أسوأ المفروض « أداة ناطقة » instrumentum vocale كما عبر عنها القانون الروماني ، فإنه من الخطأ الفاضح أن نعتقد أن جميع العبيد كانوا يلقون من سادتهم معاملة تلتزم صرامة القانون . كان هناك – دون شك – الحاكمون بأمرهم ، فقد أصر سيد على أن يقف الخدم حول المائدة صامتين ، وكان يعاقب من يسعل منهم أو يعطس بالجلد . واعتادت إحدى السيدات اليونانيات أن تعض خدمها بالفعل فى نوبات غضبها ، كما يحدث أن تأمر سيدة رومانية بجلد خادمتها إذا ما ضايقتها اضطرابها فى تصفيف شعرها ، كما قد تدفع قسوة هؤلاء السادة إلى ضروب من الانتقام الوحشى ، فقد حدث أن هجم عبيد أحد السادة الأفظاظ على سيدهم فى الحمام ، فجندلوه وسقط صريعا ، ولكى يتأكدوا من أنه « لا يتظاهر بالموت » ألقوا به فوق سطح الغلاية caldarium الملتهبة حتى يروا ما إذا كانت جثته ستتلوى . وألقى أحد العبيد المعذبين بنفسه من فوق سطح المنزل لكى يتجنب السباب والشتائم التى كانت تنهال عليه من لسان سليط ، وطعن أحد العبيد الفار نفسه حتى لا يعود إلى الأسر مرة أخرى ، ومثل هذه الحوادث كثير . ولكنه كما كان هنالك سادة قساة أفظاظ فقد كان هناك السادة الممعنون فى الرقة والعطف . فقد كان الكثيرون منهم وبخاصة فى الريف ، يعاملون عبيدهم بروح إنسانية عالية مثل صديق سينيكا ، لوكيليوس Lucilius الذى اعتاد أن يسمح لبعض عبيده بالجلوس إلى مائدته . كما يظهر فى التشريعات التى صدرت خلال القرنين : الأول والثانى شعور إنسانى يزداد عمقا . كان يسمح فى الماضى للسيد المقصر أن يطرح عبده المريض فى معبد للإله أسكليبيوس Asclepius يقع على جزيرة فى نهر التيبر ، على أمل أن يعنى الإله نفسه بشفائه . فقضى كلوديوس بأنه لو قدر لهذا المعبد أن يشفى فإنه لا يعود إلى سيده بل يعتق لساعته . وقطع هادريان شوطا آخر ، فسن

قانونا يقضى بتوقيع عقوبة الإعدام على أى سيد يقتل عبده لهوا ومجازفة ، وحرم بيع الصبيان والفتيات من العبيد للدعارة . ولعل القانون الذى سنه هادريان كان بمثابة تكفير منه عن زلة ارتكبها فى نوبة غضب حين ألقى ريشة فى وجه خادمه فذهبت ببصره ، وعندما تكرم هادريان بسؤال خادمه عما عساه أن يفعله لكى يعوضه عن خسارته أجاب الخادم فى بساطة بأنه يريد عينا ثانية ! وأن كثرة الأحكام العامة السريعة العاطفية التى قيلت عن الرق فى العصر الرومانى ، لتضطرنا إلى أن نذكر أنفسنا دائما بأن الحالات الشاذة هى التى يتناقلها الناس ويذيع خبرها عادة ، وبأنه كان للعبد بوجه عام أن يتوقع من سيده معاملة كريمة إنسانية ، وأن التشريع فى عهد الإمبراطورية كان يتجه دائما فى موقفه من العبيد اتجاها إنسانيا مطرد القوة .

وكانت أعظم شرور الرق تظهر فى مكانين : المكان الأول هو دار العمل ergastulum وكان يتألف من مجموعة مبانى الشكنات الواطئة التى تنخفض عن مستوى الأرض ، حيث كان العبيد الموثوقون بالسلاسل يأوون كالبهائم ليلا، وحيث سادت ـ دون شك ـ أحوال بشعة . ولم يكن يتورع أصحاب هذه الدور خلال الحروب الأهلية التى اضطرب فيها حبل الأمن وعمت فيها الفوضى ، وخلال الفترة التى تلتها أيضاً عن اختطاف المسافرين العزل ليعوضوا عن النقص فى صفوف عبيدهم ، غير أن سلام أوغسطس Pax Augusti وضع حداً كبيراً لذلك ، كما كان يجرى تفتيش دور العمل هذه ergastula لمنع حالات الحبس التى تخالف القانون . ولكن هذا النظام الذى كان فيما يبدو رائجاً أعظم الرواج فى جنوب إيطاليا وصقلية ما لبث أن بطل فى النهاية . أما المكان الآخر فكان القصور الهائلة التى كان يمتلكها ثراة روما ، حيث كان الرقيق يعدون بالمئات وحيث كانت تقع شتى ضروب الاضطهاد والطغيان الهين من جانب العبيد المهيمنين ، وحيث كان يتعذر على العبد الصغير أن يخاطب سيده وجها لوجه ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان فى الإمكان إعتاق العبيد أنفسهم

بوساطة « وثيقة الإعتاق » Manumissio المعروفة ، ورغم أن العبـــد المعتق أو الأمة المعتقة لا يعتبران مواطنين رومانيين بالمعنى الكامل ، إلا أن ذريتهما كانت تعد فى الغالب كذلك . وإن الحقيقة الماثلة فى « أن أوغسطس » وغيره من الأباطرة حرصوا على أن يوقفوا تيار الإعتاق المنـدفع بموجب القانون لا تدل فحسب على حرصهم على المحـافظة على الطابع العام لجماعة المواطنين الرومانيـين ، بل تدل أيضاً على أن كثيرين من السادة كانوا يعمدون — لأسباب مختلفة — إلى إعتاق أعداد كبيرة من عبيدهم .

وقد يكون فى حوزة الدور الصغيرة أو المزارعين الصغار عبدان أو ثلاثة عبيد ، وكان هؤلاء يدركون الحكمة من معاملة عبيدهم معاملة طيبة ، والواقع أن العبد كان يعد منذ القدم أحد أفراد الأسرة familia ، يشاركهم فى طقوسهم الدينية وأعيادهم ومآدبهم . أما بين الأسر ساكنة الحضر فقد كان عدد العبيد أضخم من ذلك ، وقد خطت على عمود بقصر من قصـور أسرة بومبى أسماء ما يقـرب من عشر جاريات وهن فيتاالس Vitalis وفلورنتينـا Florentina وإيانواريا Ianuria وماريا ولالاج Lalage وغيرهن ، وسجلت قرين كل اسم كمية الصوف التى خصصت لكل منهن والعمل الذى كلفت به .

وكان على الحكومة أن تحصـل من هذا العالم الدائب النشاط ، المتنوع السبل ، الكاد ، الكادح ، على الأموال اللازمة للقيام بتكاليف الدفاع والحكم . كـانت الضرائب المباشرة المفروضـة على المواطنين الرومانيين قد ألغيت فى عامى ١٦٨ و١٦٧ بعد انتصار بيدنا Pydna ، وكان أوغسطس على جانب من الحكمة ونفاذ البصيرة يجنبه خطأ تعريض مكانته الشعبية للخطر بفرض ضرائب مباشرة جديدة . بيد أنه كان من المحتم إيجاد سبيل لحل المواطنين على الإسهام بالمال — فما كـان ينبغى أن يثقل أهل الولايات بالضرائب أو يتعرضوا للاستغلال — وعلى ذلك فقد ابتدعت عدة ضرائب غير مباشرة ، فقررت

ضريبة البيع أو ضريبة الشراء وتقدر بواحد فى المائة ، إلا أنها خفضت فيما بعد إلى نصف فى المائة ، كما فرضت على كافة التركات ضريبة تركات قدرها خمسة فى المائة . وربما عد المواطن فى العصر الحديث هذه الضرائب هينة ، غير أن أهل المدن اعتبروا ضريبة البيع باهظه تنوء بعبئها كواهلهم ، ورد تيبريوس Tiborius على احتجاجهم بأن استلفت أنظارهم إلى أن الدفاع عن الإمبراطورية يقع على عاتقهم . وهذا صحيح ، لأن أوغسطس قد وجه الدخول العائدة من هذه الضريبة إلى « الخزانة العسكرية » التى أمر بتأسيسها عام ٦ ميلادية كى يواجه حاجات ومصاريف الجنود المتقاعدين . ومن بين الضرائب الأخرى التى وقعت على الجميع ، رسوم الـ ad valorem ، وتحصل فى الموانى والمرافئ . ورسم آخر قدره اثنان ونصف فى المائة على كافة البضائع التى تعبر الحدود بين ولاية وأخرى أو تجلب من خارج حدود الإمبراطورية .

كانت هذه هى الأعباء الملقاة على عاتق المواطن الرومانى ، أما عن سكان الولايات من غير الرومانيين (باستثناء العبيد بالطبع) فقد كانوا ملزمين منذ أقدم العصور بالإسهام فى تكاليف الحكم . فقد فرضت عليهم ضريبة معينة ، كانت تجبى فى بعض الأحيان على أنها ضريبة أرض (tributum soli) وتحصل فى أحيان أخرى باعتبارها ضريبة رأس (tributum capitis) ،وكانت مسئولية تحصيل هذه الضريبة تقع على عاتق الموظفين المحليين أو العشارين publicani ، مما يكشف لنا دون عناء عن السر فيما كان عليه هؤلاء الموظفين من ثراء ، ويشير إلى علة ما كانت تكنه لهم الجماهير من كراهية ، كما يفسر لنا كيف أن اسمهم قد اقترن فى « العهد الجديد » من الإنجيل باسم الخطاة ، فقيل « والعشارون والخطاة » . وكانت بعض الولايات تدفع ضرائبها نقدا ، وبعضها الآخر عينا ، فالفريزيون Frisians على سبيل المثال كانوا يؤدون الجزيه بجلود الثيران (ومجال الاستفادة من الجلد لا يقتصر على صناعة الأحذية

والدروع فحسب بل يشمل خيام الجيش أيضاً ، وبعض المجتمعات الآسيوية فى الجهة الشمالية الشرقية كانت تؤدى الضريبة بالقار وشمع النحل . وما من نظام فى العالم يمكنه أن يحول — بصورة حاسمة فعالة — دون التعسف فى تطبيقه أو دون الأنانية المقصودة ، فقد يطلب محصل جشع جلوداً من أحجام تتجاوز حدود القانون أو يستخدم مقاييس مزيفة ، أو يراوده الأمل فى رشوة القبائل له . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الموظفون الماليون التابعون للإمبراطور (procuratores) والمقيمون فى الولايات على أهبة واستعداد فى بداية الأمر لأن يملئوا جيوبهم ، ولما كان هؤلاء مسئولين أمام الإمبراطور مباشرة ، فلم يكن فى استطاعة الحاكم أن يمارس سلطته الكاملة عليهم ويخضعهم لإشرافه ، وكان عرضة إذا ما حاول ذلك لأن يتورط فى شجار منزه عن كل كرامة ووقار ، لقد أشار الإمبراطور جالبا Galba إليهم باختصار قائلا : « هؤلاء الآفات » . وعلى الرغم من أننا نعلم أن هذا الجشع وتلك القسوة قد دفعت القبائل فى بعض الأحيان إلى إعلان الثورة ، كما حدث فى ثورة البريطانيين بزعامة بواديكيا Boadicea عام ٦١ أو فى ثورة النازامونيسين Nasamones فى إفريقيا عام ٨٥ — ورغم أن هناك وثائق تسجل محاكمات الموظفين فى الولايات بتهمة الابتزاز أو سوء المعاملة ، ففى وسعنا أن نكرر هنا ما سبق أن قلناه من أن الأحوال الشاذة هى التى تستلفت الأنظار ، وإنا لنعلم أن الفاسدين من الأباطرة أنفسهم لم تكن تأخذهم رحمة بالموظفين الذين يتهمون بالابتزاز والجشع . وإن الحديث عن « الاستغلال » بمفهومه الحديث ، الذى تعرض له أهل الولايات ، لفيه مجافاة للواقع وبعد عن الحقيقة . كانت روما تعتمد حقاً على الولايات فى الحصول على المال ، بيد أن روما كانت أيضاً تدرك طبيعة البشر ومدى طاقة الإنسان واحتماله ، ولذا فلم تكن الأعباء التى فرضتها تتجاوز حدود الطاقة .

وعلاوة على ذلك فإن هذه الضرائب الهينة ، لم يكن من المحتم أيضاً أن

يؤديها جميع سكان المنطقة . فكانت هناك فى كل ولاية من الولايات بعض المدن التى منحت الحكم الذاتى المحلى (libertas) كما نالت حق الإعفاء من الضرائب (imunitas) ، وقد يسبغ الأباطرة ـ من وقت لآخر ـ مثل هذه الامتيازات تقديراً للخدمات الجليلة ، ولم تكن مستعمرات المواطنين الرومانيين المنبثة فى الولايات تخضع لسلطة الحاكم الشرعية ، وفضلا عن ذلك فقد يمنح الإمبراطور امتياز حقوق المواطنة الرومانية بين حين وآخر ، مكافأة على الخدمات المشهودة التى يقوم بها أحد سكان الولايات ، مثل إسدائه بعض الهبات لمدينته أو قيامه بعمل فريد يدل على ولائه ، كجمع القوات المساعدة فى قمع ثورة من الثورات . وإن الألقاب القبلية التى اتخذها هؤلاء المواطنون الجدد ، مثل أليوليوسيين Julli والكلاوديين Claudii والألبيين Ulpii والأوريليين إلى آخره — ذلك لأن هؤلاء المواطنين الجدد كانوا يأخذون أسماء مكرميهم ، اعترافاً منهم بفضلهم سواء كان ذلك المحسن هو يوليوس أو أوغسطس أو قيصر أو فلافيوس فسباسيانوس Flavius Vespasianus أو أوريليوس انتونينوس Aurelius Antoninus — إنها توضح أن الاتجاه إلى بث الحضارة الرومانية قد سار قدما فى ظل عهود الأباطرة المختلفة .

أما بالنسبة إلى تلك الأقاليم القديمة التى كانت قد دخلت فى زمرة الولايات قبل أوغسطس بأعوام — وهى بيتيكا Baectica والغال الناربونية Narbonese Gaul وإفريقيا وآسيا — فقد كانت الظروف فيها مواتية ، إذ تأصلت فيها الحضارة الرومانية وامتدت جذورها ، فيقول أحد الكتاب : « إن بلاد الغال الناربونية هى أقرب شبها إلى إيطاليا منها إلى أية مقاطعة أخرى » . أما المناطق التى دانت حديثا فكانت تشعر بوطأة الغزو شديدة قاسية ، لأن القبائل كانت عرضة لأن تخسر بعض أراضيها التى تقتطع لتأسيس المستعمرات عليها ، كما اضطر نبلاؤها الذين رغبوا فى محاكاة الرومان فى ملبسهم وطرائق حياتهم أن يقترضوا من المقرضين الرومان ، كما وجد العامة

فى أعمال السخرة والخدمة العسكرية حملا بغيضا . غير أن كثيراً من هذه الشرور ما لبثت أن زالت فى ظل الحكومات الرشيدة الواعية ، واطرد تقدم تيار الحضارة الرومانية ، حتى أصدر الإمبراطور كاراكالا فى عام ٢١٢ مرسومه الشهير الذى يقضى بمنح حقوق المواطنـــة الرومانية — فى واقع الأمر — لجميع سكان الإمبراطورية ، وهو منحة من أروع المنح وأشهرها فى التاريخ .

وكان لدى كاراكالا دوافع عدة حفزته إلى اتخاذ هذا المسلك . فقد كان إجراؤه هذا هو النتيجة المنطقية لتطور بدأ قبل عهد أوغسطس بزمن طويل ، تطور كان يسير نحو التآلف والوحدة التدريجيين ليعقد بين قلوب وعقول أبناء إمبراطورية واحدة تملك لغة مشتركة واحدة وتتبع قانونا مشتركا واحدا وتدين بالولاء لحاكم واحد . كما أصبح المواطنون الرومانيون فى ذلك التاريخ ممن يؤدون الضرائب ، وازدياد عدد المواطنين الرومانيين على هذا النحو معناه ازدياد حصيلة الضرائب . وربما لم يكن يخلو الأمر أيضا من الحوافز الدينية ، فقد كانت الدلائل واضحة ، تنبىء بأن عاصفة توشك أن تجتاح الحدود الشمالية على أيدى البرابرة ، وكانت روما ، إزاء هذا الخطر ، فى حاجة إلى رضاء الآلهة التام . ومامن شك فى أن رضاء الآلهة سيكون أقرب منالا وأوفر بركة لو أظهر هؤلاء المواطنون الجدد عرفانهم بالجميل واعترفوا بفضل الآلهة ، واحتشدوا بمعابدها الرومانية وبذلك يستدرون عطفها وينالون رضاءها . ذلك لأن الآلهة الرومانية كانت قريبة الشبه بالنبلاء الرومانيين ، فكلما زاد عدد بطانتهم من التابعين ، ارتفع قدرهم وتألق مجدهم .

بيد أنه على حين أن دخل الإمبراطورية خلال القرنين الأول والثانى ، كان يوازى خرجها ، لكن ما إن حل عام ١٧٠ تقريبا حتى بدأت نذر الشؤم تظهر فى الأفق . فأصبحت مسئولية جباية الضرائب فى أى منطقة من المناطق تقع على عاتق أبناء المنطقة الأثرياء الذين كانوا أعضاء فى مجلس الشيوخ المحلى ،

وعرفوا باسم decuriones أو curiales ، كما كان يتطلب منهم أيضاً أن يوفروا الكثير من أجل إخوانهم المواطنين الفقراء ، فى مجال الترفيه والخدمات العامة والمدارس والأغذية ، وهى مرافق يقع عبء تمويلهافىالعصرالحديث على عاتق الدولة . ولم تلبث هذه الأعباء المتراكمة أن أصبحت مصدر قلق ومتاعبلهم ، وإن مرسوم الإمبراطور ماركوس أوريليوس الذى يقضى بتخفيض بعض النفقات المفروضة على الأغنياء لعظيم المغزى (وإن كان يدعو إلىالسخرية) . وأدى وباء حملة الجنود العائدين من الشرق إلى إزهاق مئات من الأرواح بين عامى ١٧٠ و ١٨٠ ، بينما توالت على السكان سلسلة منالمجاعات هبطت بعددهم إلى حد بعيد . وفى استطاعتنا أن نتبين بوضوح ارتفاع تكاليف المعيشة منالفئات المختلفة لراتب الجندى فى العصور المختلفة : فنجد أن دوميشيان رفع راتب الجندى stipendium الذى بلغ فى عهد أوغسطس ٢٢٥ دينارا إلى ٣٠٠ دينار واستمرت الزيادة فى اطراد حتى أوقفها كاراكالا عند ٥٠٠ دينار . وصاحب هذه الزيادة — وكان على نحو ما عاملا من العوامل التى استوجبتها — انخفاض قيمة العملة بصورة ازدادت سوءاً على مر العصور ، وكان نيرون هو الذى بدأ هذا التيار ، ولكنه على الرغم من أن تراجان وخلفاءه قد حدوا منه ، فلم تعد الأنطونينيات Antoniniani فى منتصف القرن الثالث عملات فضيةعلى الإطلاق ، بل أصبحت عملات نحاسية مغشاة بالفضة ، تقل قيمتها عن خمسين فى المائة من قيمتها الاسمية . أما الذهب والفضة فبدلا من أن يتركا للتداول فى روما . فقد سحبا بكميات هائلة إلى الشرق ويقدر بلينى ما كان يخرج سنويا فى ذلك الوقت بمائة مليون سترتيوس sestertii . وقد تدهور الموقف بعد سنة ٢٤٠ من كافة الوجوه ، فغزوات البرابرة حرمت مساحات شاسعة من الأرض من الزراعة ، كما أصيب كثير من المدن بالتخريب والتدمير ، بل إن بعضها امتدت إليه يد السلب والنهب وأصبحت بحاجة إلى بنائها من جديد ، كما أن اقتصاديات مناطق برمتها قد اختلت . وانخفضت القوة الشرائية للعملة حتى أن رواتب الجند كان

بعضها يدفع عينا . بيد أنه كان من الضرورى إطعام القوات وتوفير الكساء لها ، إذ لم تكن تمر لحظة واحدة تسلم فيها البلاد من هجمات البرابرة ، لذلك فقد كانت المواد الغذائية والحيوانات تؤخذ قسرا وعنوة من الريفيين ، الذين لم يكن أمامهم سوى استدرار عطف الموظفين الماليين التابعين للإمبراطور واسترحامهم ، بينما ينظرون ممتلكاتهم تنتزع منهم انتزاعاً ، وقد حفظ لنا القدر عدداً من هذه الملتمسات ، وكانت الشكوى واحدة دائما فهى الضرائب القاصمة للظهور ومصادرة الممتلكات قسرا وعنف الجنود وجورهم . ومن بين العرائض التى تمثل الطابع السائد فى الملتمسات ، عريضة تقدم بها العمال الذين يعملون للإمبراطور فى ضياع وادى تمبريس Tembris فى آسيا الصغرى يقولون فيها : « بينما يحيا غيرنا من الناس ، يا أعظم الأباطرة تقوى ، وأنبتهم ملكا ، حياة أمن وسلام ودعة ، بعد أن قضى على كل الشرور وأزيلت أسباب القلق والاضطراب ، فإننا وحدنا أصبح يتحتم علينا أن نخضع لمعاملة تتعارض تمام التعارض مع طابع عهودكم ، ولذا فإننا نرفع تضرعاتنا هذه إليكم. وهذا هو مدار شكوانا ، إننا ملك لكم أيها الأباطرة المقدسون كل التقديس، إن قرية بأكلها هرعت إليكم وأصبح أفرادها جميعاً يلتمسون الرحمة من ألوهيتكم ، إننا نلقى عنتا وجوراً ونستهدف لألوان من العسف من جانب الفئات نفسها التى كان ينبغى عليها أن تعمل على صيانة الصالح العام . ورغم أننا نعيش بعيداً عن الشواطئ فى قلب اليابسة ، ولا نخضع لإرادة عسكرية ، إلا أننا نتعرض لمعاملة لا تتفق قط ، مع عهدكم الكريم المبارك — إن الضباط والجنود وأقطاب المدن ، بل والموظفين الماليين التابعين لكم Caesariani ، ممن يمرون بهذه المنطقة ، دائما ما يتنكبون الطريق العام ويغيرون علينا . . فينتزعوننا من أعمالنا ويستولون على الثيران التى تجر محاريثنا ، ويطالبوننا بمطالب جبرية غير مشروعة » . . .

وهكذا تمضى هذه القصة التى تثير الرثاء بما تحويه من عبارات الإطراء والمديح

ومن شعور بمساوئ تنوء بحملها الكواهل ، وليست هذه الشكوى فريدة فى نوعها ، فهناك عدة شكاوى أخرى تماثلها .

كان هذا هو شعور أهل الريف ، أما عن المدن فلم تكن الحال فيها بأفضل من ذلك ، فقد ثقلت أعباء أعضاء مجلس الشيوخ المحلى وبلغ بهم الفقر الذى أصابهم من جراء النفقات الباهظة التى كانت تتطلبها وظائفهم أن أصبحوا لا يقبلون إلا مرغمين الأعباء التى كان الاضطلاع بها فى وقت من الأوقات امتيازا وشرفاً ، بل أصبح الأمر يتطلب إرهابهم ودفعهم عنوة إلى أعمالهم . وتقدم محاضر جلسات مجلس مدينة أكسيرنخوس Oxyrhynchus مثلا عظيم الدلالة : يدعو رئيس المجلس إلى تعيين موظفين فتعرض عليه قائمة بالأسماء المقترحة ، إلا أن شخصاً واحداً يدعى بطلميوس ، بلغ منصب الكاهن الأعظم بالفعل يتنصل من تعيينه فى وظيفة أمين صندوق عمومى فيقول : لا أرجوكم ، لا أستطيع ذلك، إنى رجل رقيق الحال أعيش مع والدى ، ويلتفت الرئيس إلى بقية الأعضاء ثم يقول قولا ذا مغزى : إن بطلميوس فى حاجة إلى شىء من الضغط من جانبكم ، وهو إن ترك لنفسه يتنصل من هذا الواجب العظيم . فيبادر أحد الأعضاء بالاعتذار عن بطلميوس فيقول : إن الرجل رقيق الحال ولا يستطيع تحمل العبء . فيعود بطلميوس إلى اعتراضه : إنى أرجوكم رجاء حاراً .. إن هذا الواجب فوق طاقتى . .إنى لا أستطيع أن أتحمل عبأين فى وقت واحد . وفى هذه الأثناء يكون بقية الأعضاء قد أخذوا فى صب عبارات التملق الخادعة فى سمعه وشرعوا يهللون له ويكبرون له « أيها الأمين الصادق بطلميوس! إن بطلميوس ليس ممن يخذلون قبيلتهم » . . وهلم جرا . فهل هناك ماهو أقرب من ذلك إلى الإجبار والقسر ، حين يعرض المرشحون عن الوظيفة كل هذا الإعراض وحين تكون الرئيس على هذا القدر من الافتراء والصلافة ؟

وما إن اقترب القرن الثالث من نهايته ، حتى كان العالم الرومانى ، بعد

ما لقيه من تخريب وما أصابه من جذب من جراء غزوات البرابرة ونتيجة لجشع حكامه وجورهم ، قد أصبح محطما منهوك القوى . وداعبت الآمال الجميع فى قيام حياة سلم وإصلاح وهــــدوء ، وانعكست هذه الآمال على مشاعر الإمبراطور بروبوس Probus الحالم . فقد جاء أنه قال : « لعل الوقت قريب حين لا تكون هناك حاجة ، بعد أن يرد البرابرة على أعقابهم ، إلى الجند ، ولن يحدث آنذاك أن يصادر محصول أى فرد من أهل الولايات ، أو تحصل مدفوعات قسرية ، كما لن ينضب لدخل الشعب الرومانى معين ، ولن تكون هناك معسكرات ولن يسمع صوت نفير ، ولن تصنع أسلحة ، وسيكون الشعب حرا فى حرث أرضه والانصراف إلى عمله وتعلم حرفه وجوب بحاره ». ولعله لا يمكن أن نقطع بما إذا كان بروبوس قد تكشف له المستقبل على هذه الصورة المثالية الشاعرية ، بيد أن ما قاله كان يتجاوب بلا شك مع الآمال والأحلام التى كانت تداعب مخيلة شعبه .

ولم يقدر لهذه الصورة الشاعرية أن تدخل عالم الواقع . وكان الرأى عند دقلديانوس الذى تلاه فى الحكم سنة ٢٨٤ ، وكان أقوى من سلفه وأصلب عوداً وممن ينحون منحى واقعياً ، إن العلاج الأوحد يكمن فى إخضاع الدولة لنظام محكم دقيق ، وفى قيام الدولة برقابة حازمة صارمة على كافة المرافق العامة. لقد كان الأمر يتطلب منذ وقت طويل النظر فى إعادة تنظيم اقتصاديات البلاد على أسس جديدة . فأمر دقلديانوس بمسح أراضى الإمبراطورية من جديد وبصورة أعظم شمولا ، وقرر على أساس من هذا المسح وحدة جديدة للضرائب وهى الفدان iugum . ولم يكن للسلم فى مشاريع دقلديانوس موضع . فإن الإمبراطورية جميعها يجب أن توجه إلى الإنتاج الحربى ، وأتاح المسح الجديد السبيل إلى تقدير الضرائب تقديراً دقيقاً وأمكن بذلك التشدد فى جبايتها ، فكانت جباية الضرائب تتم بكل صرامة وشدة ، كما لم يكن يتهاون فى جمع المحصولات

المطلوبة ، وقد حاول الإمبراطور بموجب مرسوم عام صدر سنة ٣٠١ ان يفرض حداً أعلى موحدا للأسعار على كافة السلع التى تباع وتشترى داخل الإمبراطورية . ويعلن دقلديانوس فى ديباجة هذا المرسوم الشهير عن مقاصده الكريمة لخير شعبه ، ويندد بهؤلاء الذين يزيدون من وطأة الحياة على الشعب الفقير بانتهازيتهم ونشاطهم الملتوى فى السوق السوداء ، ويخدعون هؤلاء الجنود الذين يذودون عن الإمبراطورية ، ويثرون على حساب مصائب غيرهم وبلاياهم (انظر الفصل التاسع) . وعقوبة مخالفة هذا المرسوم على أى نحو هى الإعدام ، ولكنه من السهل ، كما يذكر فى مرسومه ، تحاشى هذه العقوبة بالانصياع له والعمل بما جاء فيه .

وليس بنا حاجة الآن لأن نضيف شيئا إلى هذه الموضوعات التى ستكون لنا إليها عودة فى الفصلين التاسع والعاشر ، ولكنه يجب أن نقرر هنا أن الإمبراطورية لم توفق فى ميدانى المالية والضرائب كما وفقت فى غيرهما من الميادين . فلم تحاول الدول فى القديم أن تتعرض لمشكلة الميزانية على أى نحو . لقد قدم أوغسطس بعض الحلول المتواضعة ، إذ نصح بعدم التوسع فى رقعة الإمبراطورية . غير أن الأحداث التى وقعت فيما بعد والتى تأيدت فى بعض الأحيان بمطامع الأباطرة ، كانت أقوى من أن تسمح بالاسترشاد بهذا النصح ، وباتت كواهل الحكام والشعوب على حد سواء ، فى أواخر القرن الثانى ، بعد أن اتسعت رقعة الإمبراطورية وازداد عدد قوات الجيش زيادة كبيرة ، وتضخمت نفقات الحكومة ، تنوء بحمل ثقيل . وعندما أضيفت إلى ذلك فى القرن الثالث وطأة غزوات البرابرة ، والخسارة التى لحقت بالأراضى والمحصولات والأيدى العاملة من جراء هذه الغزوات ، ونقص القوى البشرية نتيجة لتفشى الأوبئة مرارا وتكرارا ، كان لابد أن تنهار أسس النظام المالى جميعه . ونلاحظ منذ عام ٢٢٠ تقريبا زيادة شكاوى أهل الريف الكادحين المستذلين

زيادة كبيرة ، وكانت هذه الشكاوى ترد من مختلف أنحاء الإمبراطورية سواء من إفريقيا أو آسيا أو تراقيا .

وقد لجأت الحكومة لمواجهة الهبوط المتزايد فى قيمة العملة ، إلى الأخذ بنظام المكوس العينية من جديد (وهى ما تسمى بالـ Annona) وذلك لكى تتمكن من توفير الغذاء والكساء للجيش . وعلى أية حال كانت المكوس العينية تتميز بأنها مطاطة غير ثابتة ، وهذا ما حدا بدقلديانوس إلى الأخذ بها فى نهاية الأمر ، كأساس لنظامه الضريبى الجديد . والواقع أنه بدا لفترة من الزمن كما لو أن اقتصاد النقود يوشك أن يبطل تماماً ، وأن واحدا من أنفع اختراعات العالم القديم كان قاب قوسين أو أدنى من الاندثار والضياع . والفضل فى أن ذلك لم يحدث يرجع إلى حد بعيد إلى ما أبداه دقلديانوس من تصميم وعزم ، كما سنرى فى الفصل التاسع . ولعل مؤرخو الأجيال الماضية قد تسرعوا فى بعض الأحيان فى تقريعهم للأباطرة المقاتلين الذين تولوا الحكم فى أواخر القرن الثالث ، ولكن من كان قد عاش خلال حربين عالميتين وأدرك الصعوبات التى ما زال الساسة فى صراع معها من جراء هذين الحربين ، لكان أقرب إلى فهم مواقف هؤلاء الرجال والعطف عليهم ، وقد كانوا حيال عمل ضخم ومهمة جبارة ، ولم يكن لهم سند من تجارب مماثلة مارسها أسلافهم أو من قواعد اقتصادية يسيرون على هديها .

الفصل الخامس

فروع المعرفة - البحث العلمي - العلوم الوهمية

يقال إن تقدم المعرفة العلمية قد حالت دونه نظرة الرومان النفعية وقصور خيالهم . ولعل هذا صحيح ، ولكن بينما لم يكن لدى الرومان مشروعات بعيدة المدى فى مجال التعليم والاقتصاد مثلا ، فما لاشك فيه أن كانت لهم القدرة على تصميم خطط المدن ووضع الاستحكامات المتشعبة المتقنة . ولكن صحيح أيضاً أن فروع العلم وبحوثه ذات الطابع النظرى ، لم تكن تدرس بطريقة أكاديمية حتى إلا فى الولايات الشرقية ، حيث كانت توجد الشوامخ القديمة ، مثل مكتبة الإسكندرية ، ولم تكن هذه مجرد مجموعة من الأشياء الجامدة التى لا حياة فيها تحتويها الصناديق ، كما توحى لفظة « مكتبة » ، بل كانت فى الواقع معهداً للدراسات العليا ، حيث يجرى العلماء بحوثهم ويتجادلون ويتناقشون ، وكانت هناك مدارس الطب فى الإسكندرية وبرجاموس Pergamum ، ومدارس الرواقيين والأبيقوريين والأفلاطونيين الجدد فى أثينا ، ومدرسة القانون فى بيروتس Berytus بسورية . وإذا ما قارنا روما بالشرق فإنها تبدو على قدر كبير من التخلف . . صحيح أنه كانت بالعاصمة مكتبة عظيمة ، وأن فسباسيان سمح الأطباء ومحترفى التدليك بأن يؤلفوا نقابات وينشئوا مدارس ، وأنه كان للغة اللاتينية أن تفخر ببضعة مؤلفين ممن تناولوا موضوعات علمية — إذ كتب فيتروفيوس Vitruvius عن الهندسة المعمارية وألف كيلسيوس Celsus فى فى الطب وكتب فرنتينوس Frontinus عن المجارى المائية التى كانت تقام فوق قناطر ، بالإضافة إلى طائفة من الكتاب ممن كانوا يميلون إلى الموضوعات العلمية مثل سينيكا وبلينى الأكبر ، غير أن هؤلاء كانوا يمثلون كل ما فى جعبة

روما . وعلى خلاف ذلك ، كان للإسكندرية أن تذكر بطليموس العظيم ، الفلكى الرياضى والعالم الجغرافى ، وعلماء الرياضيات مثل بابوس Pappus وديوفانتوس Diophantus الذى تطورت بحوثه إلى اكتشاف الجبر ، أما عن آسيا فقد أنجبت طبيباً شهيراً وكاتباً غزير الإنتاج ، ألا وهو غالين Galen ، فضلا عن ديوسكوريديس Dioscorides عالم النبات ، وطبيب آخر يدعى أريتايوس Aretaeus ، وكان لسورية أن تفخر بالمشرع الشهير أولبيان Ulpian . وربما كان لها أيضاً أن تعتز ببابنيان Papinian الذى كان يفوقه علما ومكانة .

ومن بين فروع المعرفة التى تبنتها روما واتخذتها شعاراً لها — بغض النظر عن الفنون النافعة مثل الهندسة ومسح الأراضى والهندسة المعمارية — الفلسفة الرواقية . فقد أسرت هذه الفلسفة ألباب الرومان ، فصبغوها بالصبغة الرومانية وبثوا فيها الروح الإنسانية ، وتمثلت فيها جميع مراتب المجتمع الرومانى وطبقاته ، فكان من بين مشايعيها سينيكا رجل البلاط الثرى المثقف ، وموسونيوس روفوس Musonius Rufus ابن الطبقة الوسطى ، وابيكتيتوس Epictetus العبد والإمبراطور ماركوس أوريليوس ، وقد اتخذ الأخيران اليونانية أداة للتعبير . ولم يكن هؤلاء يولون اهتماماً كبيراً لتلك المسائل المتعلقة بما وراء الطبيعة أو المتصلة بالسياسة التى استثارت أذهان اليونانيين ، بل كان اهتمامهم منصباً على سلوك الفرد وروحه ، وهكذا أخذت الرواقية تتحول شيئاً فشيئاً إلى « فلسفة عصور الشدة » . كيف يكون سلوك المرء فى هذا العالم الذى اتسع أيما اتساع ، والذى بدا الإنسان فيه كائنا ضئيلا يتأرجح كالريشة فى مهب الريح ، وكيف السبيل إلى مجابهة المقادير (سواء انطوت على خير أو شر) فى ثبات ورباطة جأش ، وكيف لنا أن نواجه الموت ونلاقى الأرزاء ، وكيف يظل المرء دوما سيد نفسه — سواء كان رجلا فقيراً قد وجد نفسه بغتة فى قبضة الشرطة ، بينما كان يتحدث دون حيطة إلى شرطى متنكر ، أو كان الإمبراطور بعينه يوشك وهو محوط بالمتملقين المداهنين وطلاب الحاجات أن يتجرد من صفاته

الإنسانية — . . . كان على الفلسفة الرواقية أن تجد الحلول لكل هذه المشكلات . وفى الواقع ليس فى أقوال البشر ما هو أسمى مما جاء على لسان سينيكا ، أو أقرب إلى النفس من حكمة موسونيوس البسيطة الساذجة ، موسونيوس الذى كان يعتقد بأن الإنسان يجب أن يتعلم كيف يعمل بيديه وبعقله فى الوقت ذاته ، وكان يدعو إلى تعليم المرأة والبلوغ بها أرفع مدارج التعليم ، وليس هناك ماهو أنبل من إيمان إبيكتيتوس المجرد وعطفه الإيجابى ، أو أبلغ مما أفضى به الإمبراطور ماركوس وعبر به عن ذات نفسه . « هل أنت غاضب تنتوى الانتقام ؟ إن أنبل ضروب الانتقام هو ألا تكون صورة من عدوك » . بيد أن هؤلاء لم يكونوا سوى صفوة ضئيلة ، وأنجما حائرة فى قبة فضاء لا نهائى ، ليس فى مقدورهم أن يؤثروا على ما حولهم تأثيراً كبيراً . « إن الحياة قصيرة ، والثمرة الوحيدة للحياة الدنيا هى السلوك الصالح والمعاشرة الطيبة » . « لا تأمل فى مدينة أفلاطون الفاضلة ، حسبك أن تخطو خطوة إلى الأمام » .

ولم تلبث الفلسفة الرواقية أن أصبحت فلسفة عملية طابعها الجد والصرامة ، وهى توائم المزاج الرومانى وتتجاوب معه أعظم التجاوب . تقول إحدى استعاراتها « إن الله قد أقامك حارسا فلا تترك موقعك إلا بأمر الله سبحانه وتعالى » . ورغم كل نقائص هذه الفلسفة فإنها قد بثت فى نفوس أشياعها الثقة والشجاعة لكى يواجهوا المخاطر فى ثبات ورباطة جأش ، ولكى يجهروا بآرائهم دون خوف أو وجل ، بل وليجابهوا الموت إن لزم الأمر . قد يشعر القارئ بشىء من الضيق فى مستهل قراءته لماركوس أوريليوس بسبب طريقته ، ولكنه لو واصل قراءته لاستلفت نظره فى بداية الكتاب الثانى عنوان صغير يقول : كتب هذا بين الكواديين Quadi على نهر جران Gran . ولسوف يدرك تواً أن هذه التأملات الذاتية لم يسطرها باحث منقطع إلى بحثه منعزل بنفسه ، بل كتبها إمبراطور وقائد ، فى لجة من الإعباء

والأخطار التي تتطلبها حملاته ضد البرابرة ، وفي فترات الراحة والهدوء القصيرة النادرة خلال الليل .

كان الجانب الأعظم من الرومانيين رواقيين عن وعي أو دون وعي . والجدير بالذكر أن مدرسة الأبيقوريين المناهضة لها لم تجتذب إلا عددا يسيراً من المشايعين فقد أثار الدهشة والعجب ذلك المبدأ الذي تنادي به والذي يقول إن اللذة هي هدف الإنسان ، فضلا عن إمكان تأويله تأويلا سيئاً . غير أن أبيقوروس نفسه شرح هذا المبدأ بما يدل على التقشف الشديد الذي يراد في تطبيقه ، وقد ظهر تلاميذه في عهد الإمبراطورية على هيئة جماعات متفرقة من « الأصدقاء » الذين يجمعهم ولاؤهم واحترامهم المشترك لمؤسس مذهبهم ، وتربطهم قواعد بعينها لحياة مجتمعهم . غير أن إيثارهم للحياة الهادئة بعيداً عن معترك السياسة ، وإنكارهم لوجود أية « عناية إلهية » تدبر شئون الكون ، أدى بهم إلى الامتناع عن الانخراط في سلك الوظائف العامة ، وجر عليهم ارتياب الجماهير في أنهم « كافرون بالآلهة » ، ولم يكن هناك من سبيل إلى النظر بغير هذه النظرة إلى مثل هذه الجماعة الجانحة إلى الهدوء ، في بلد يتطلب من شعبة مشاركة فعلية في الحياة العامة والأخذ بنصيب في المراسيم الدينيه للدولة . بيد أن هذه الجماعات الصغيرة من « الأصدقاء » التي كانت تحيي حياة هادئة نبيلة والتي كانت ترعى مصالح بعضها البعض رعاية واعية ، وتتبادل الرسائل والزيارات ، كانت تمثل في الواقع شيئاً لم يكن ليدركه إلا عصر متأخر ، وقد أدت هذه الجماعات خدمات جليلة في حربها على الأكاذيب والأضاليل ، ومن الغريب أنهم قد قرنوا بطائفة المسيحيين الجديدة تحت كنية مشتركة هي « الملحدون » .

ولعل الأبيقوريين كانوا يتفقون مع الرواقيين في أن الانفعالات هي العنصر المقلق لحياة الإنسان ، غير أنهم كانوا ينادون بأن شعور الخوف هو

أعنف هذه الانفعالات على الإنسان وأشدها هدماً لكيانه . وقد يتخذ هذا الخوف صوراً مختلفة ، فهو إما خوف من الآلهة أو خوف من الموت ومن حياة ما بعد القبر ، أو خوف من الألم . يقول أبيقوروس Epicurus : « فلنحطم إذن الإيمان بالآلهة — أو بالأحرى نحطم الاعتقاد بأنهم يولون أدنى اهتمام بالبشر — ولنحطم الخوف من الآخرة بأن نثبت أن ما من روح بشرية ستبقى فى الوجود ، ثم لنحطم الخوف من الألم ، فهل يبقى هناك ما يمنع الإنسان من أن يحيا حياة سعيدة ؟ » إن هذا هو أعظم ما حققه إبيقوروس ، إنه خلص البشرية من المخاوف — كما يقول تلاميذه — « ببلسم الخلاص » ، وبمذهبه الذرى أولا وقبل كل شيء .

يقول أبيقوروس إن الكون يتألف من ذرات وفراغ ، وإن القدر يتحكم فى كل شيء ، وإن الروح تتحلل عند الموت ، وينتهى الإنسان إلى العدم . ولا يعنينا الموت فى شيء ، فطالما وجد الموت لا نوجد نحن ، وطالما وجدنا نحن فلا وجود للموت ، بل إن فى وسعنا أن نتحمل حتى الإحساس بالألم ، بأن نقابله بتذكر لحظات السعادة التى عشناها سلفا ، وبالتطلع إلى المستقبل . ثم ما سبب الخوف كما قال السيد المسيح ؟ « فالألم إذا كان حاداً ، كان قصير الأمد ، وإذا كان مستمرا كان هينا محتملا » .

ورغم ذلك ، فإن هذه العقيدة كانت عقيدة سلبية ، ولم يكن من شأنها أن توفر للبشرية شيئا من السعادة التى زعم أبيقوروس أنها تحققها . ولتحقيق هذا الجانب الإيجابى المفقود ، اتجه الأبيقوريون إلى الصداقة ، فكانوا فى جماعاتهم الصغيرة ، المنتشرة فى مختلف المدن يمارسون حياة مشتركة ، ويخضعون لقواعد دقيقة تقضى بتبادل النصيحة والموعظة ، « فليس هناك من بين المنافع العديدة التى تعود من الصداقة ما هو أعظم من حيازة الصديق الذى يستطيع المرء أن يبثه ذات نفسه وأن ينصت إليه عندما يتكلم » . وترددت فى كتابات أبيقوروس

الإشـــارة إلى أهمية اعتماد الإنسان على أخيه الإنسان . فتراه يقرر فى نظرة سيكلوجية عميقة : « ليست العبرة بما يقدمه لنا الأصدقاء من عون ، بل العبرة هى باطمئناننا إلى عونهم لنا ساعة الشدة » . وعلى الصديق أن يضحى بكل رخيص وغال فى سبيل صديقه، حتى بحياته نفسها. هذه هى المجتمعات الأبيقورية الصغيرة التى كانت أشبه بجزر صغيرة من السلام والصداقة داخل العالم الرومانى الذى تضطرب فيه الحياة بشتى ألوان النشاط البشرى . ومع ذلك فقد كانوا موضع شك وريبة ، إذ اتهموا من جانب المتحمسين لواجبهم الوطنى بأنهم سلبيون متنكرون لمجتمعهم ، واتهموا من جانب المسيحيين فيما بعد بأنهم يمعنون فى الإلحاد، ويجدر أن نذكر هنا — إحقاقا للحق — أن صداقتهم كانت بالفعل مقصورة على أفراد مجتمعهم الخاص ، وأنهم لم يكونوا يتمتعون بشىء من روح الأخوة والرحمة التى نالت من أجلها « جمعية الأصدقاء » فى العصر الحديث ، ما هى جديرة به من إعجاب وثناء .

ولعل ما يؤخذ على هاتين الفلسفتين هو ذلك الطابع العملى نفسه الذى اتخذناه ، فظهرتا من جرائه وكأنهما لا تصلحان إلا « للطبقة البرجوازية » ، ومن ثم فقد تطلعت النفوس الأرستقراطية المتشامخة إلى شىء يحلق بها فى سماء الخيال ويبعث فيها شتى الإيحاءات والانطباعات. وعلى ذلك فقد قصد إلى إحياء مذهب أفلاطون ، وقامت المدرسة المعروفة باسم الأفلاطونية الحديثة التى ضمت بين أعضائها فى القرن الثالث ذلك العملاق أفلوطين Plotinus . وقد عمد هؤلاء وكانت غالبيتهم من نصف الإمبراطورية اليونانى — عندما ضاقوا ، فيما يبدو ، بنظم الحياة الخلقية البحتة التى وضعت للرواقى والأبيقورى ، وتعذر عليهم أن يلمسوا لأنفسهم راحة نفسية فى مراسيم الدولة الدينية أو مراسيم العقائد الأجنبية (انظر الفصل الثامن) — عمدوا إلى حصر معنى الفلسفـة فى نطاق ضيق وقصرها على البحث عن ذلك الكائن المطلق الذى يسمو عن الوصف

والذى يقف وراء كل ظواهر الطبيعة ، وذلك عن طريق التركيز الذهنى والتأمل والغيبية أيضاً . وكان رائدهم الأعظم أفلوطين (٢٠٥ — ٢٧٠) — مصرى المولد ، استوطن إيطاليا فى عهد الإمبراطور فيليب (٢٤٤ — ٢٤٩) وعلم هناك ، وجذب إليه جماعة من التلاميذ الأولياء المتحمسين الذين ترك لنا أحدهم ، ويدعى بورفيرى Porphyry سيرة للسيد المسيح .

لقد كان أفلوطين حكيما على درجة من سمو الشخصية وقوتها ، حدت بالناس إلى اختياره راعياً لأولادهم ، بل إن أحد النبلاء الرومان الكبار (ويدعى روجاتيانوس Rogatianus) آثر ألا يلبى نداء الواجب الوطنى،وأبى الانخراط فى سلك الوظائف العامة ، كى يسير على خطى أفلوطين فى الفلسفة .والواقع أنه استطاع أن يقنع الإمبراطور جاليانوس Gallienus بأن يأمر له بقطعة من الأرض ليقيم عليها مدينة « بلاتونوبولس » Platonopolis وهى مدينة خصصت لإيواء من يرغب من الرجال والنساء المتقاعدين فى العيش فى ظل قوانين أفلاطون وفى الانقطاع لدراسة الحقائق الفلسفية بعيدا عن صخب الحياة . وعلى الرغم من مبدأ أفلوطين القائل بوجوب تخليص النفس من وطأة المادة ، وعلى الرغم من أنه كان يشعر بشىء من الخجل من « وجوده فى الجسد » ، فإنه لم يأخذ بذلك الموقف السقيم الذى يقفه بعض المفكرين فى نظرتهم إلى المادة كأنها شر مطلق . كان مرمى أفلوطين هو التخلى عن مطالب المادة وأوزارها ، والعيش فى بساطة وكفاف ، والتأمل دوماً فى الحقيقة والجمال المجردين ، حتى ترتفع الروح فى النهاية فى حبور صاعدة إلى السماء «كالكل الأوحد إلى الواحد الأوحد » ، وقد مارس أفلوطين بنفسه حياة الزهد والتقشف ، ولقن أصولها لتلاميذه المعجبين الأوفياء . وإنى لست بقادر على الكتابة عنه أوعن مذهبه الذى حاز إعجاب الكثيرين من المفكرين المحدثين ، ولكن مما لا شك فيه أنه

بلغ الذروة فى التأمل الخالص المجرد(١) .

بيد أن الذرى إنما هى أماكن موحشة ، لا يمكن أن يرتقى إليها إلا من أوتى رئتان روحيتان بوسعهما أن تستنشقا مثل هوائها النقى الخالص . وقد ذهب الأمر إلى حد أن تلاميذ أفلوطين المقربين أنفسهم تنكبوا الطريق إلى الشعوذة والطقوس الشاذة ، ولم يتأثر بأفلاطين سوى عدد قليل ، حتى ظهر أفلاطونيو كامبردج فى القرن السابع عشر ، فنفخوا فيه الحياة من جديد فى اعتقاد راسخ بأن خلاصة الفلسفة الأفلاطونية إنما تكمن فى تعاليمه . وإن كان المفكرون فى القرن الثامن عشر والجانب الأكبر من القرن التاسع عشر ، قد سخروا به وعدوا مذهبه « دعوة عادية إلى الباطنية » ، فإنه قد تبوأ فى الوقت الحاضر مكانه اللائق فى أذهان المفكرين والفلاسفة .

حان الوقت لنعود إلى الأرض . ما من شك فى أن علم الجغرافية ، وخاصة فى ميدانه العملى المتعلق بالاستكشافات الجغرافية ، قد أحرز تقدما ملموسا ، فقد أمر ماركوس فيبسانيوس أجريبا M. Vipsanius Agrippa نائب أوغسطس العظيم ، بإعداد خريطة للإمبراطورية ، ووضع دليل جغرافى يتألف من حشد كبير من المعلومات . ولما كانت الفتوحات الجديدة تؤدى إلى اتساع رقعة الإمبراطورية ، ولما كان التجار والباحثون يتوغلون فيما وراء حدودها الجديدة أيضا إلى أراض لم يكن يعرف عنها الكثير ، فقد كان تقدم المعرفة أيضا فى اطراد . وقد بعث نيرون بفريق من « المساحين » يتألف من « قواد المائة » إلى أعالى النيل ، ويبدو من الأوصاف التى سجلوها أنهم توغلوا فعلا إلى منطقة السدود . كما أرسل أحد المقاولين ، فى عهد نيرون أيضا ، وكيلا له صوب الشمال حتى

---

(١) أنظر على سبيل المثال مؤلف :

W. R. Inge, The Philosophy of Plotinus, 3rd. edn., 1929.

والترجمة الكاملة Enneads (plotinus's writings) بقلم S. Mackenna and B. S. Page

بحر البلطيق ليتعرف على أماكن جمع الكهرمان ويقف على أسواق التبادل والمستودعات فى مختلف البلاد . ورحل ديمتريوس الطرسوسى بعد عشرين سنة من هذا التاريخ إلى هبريديس Hebrides أثناء ولاية أجريكولا على بريطانيا (حوالى عام ٨٠) وعاد ببعض المقطوعات الطريفة من غناء الكلتيين الشعبى ، على حين كان أحد الإسبرطيين ويدعى كليومبروتوس Cleombrotus يرتاد المناطق الجنوبيـة من البحر الأحمر والأراضى المحيطة بها . وكانت رحلات التجار تفتح الطريق باستمرار إلى الهنـــد (انظر الفصل السابع) ، كما استخدم أحد التجار السوريين الأثرياء وكلاء لدراسة مراحل « طريق الحرير الصينى » حتى مرو Merv ، بل إلى ما وراء ذلك أيضا ، وحـدث فى القرن الثانى أن شخصا يدعى ديوجينيس Diogenes كان عائدا من الهند فألقت به الريح على شواطىء إفريقيا الشرقية والوسطى ، وسمع (إن لم يكن قد رأى بعينيه) عن بحيرتين عظيمتين تغذيهما الثلوج الذائبة من « جبال القمر » التى زعم أن نهر النيل ينبع منها . واختفت جبال القمر بين طيات الجغرافية الأسطورية ، ولكنه بعد مضى ستة عشر قرنا على رحلة ديوجينيس ، اكتشف الأوربيون البحيرات العظمى .

وحمل عبء الاستكشافات الجغرافية فى مجالها العملى كل من اليونانيين والرومانيين من سكان الإمبراطورية ، غير أن تصنيف كافة المعلومات وتبويبها ووضعها فى أطلس جغرافى كان من عمل مارينوس Marinus ، من صور ، ثم من بعده ، بطليموس العظيم الذى فاق سلفه وبزه . وثمـة مجال آخر للتطبيق العملى للعلوم أحرز فيه الرومان تقدما ملموسا ، وهو الهندسة . فاكتشفت طريقة استخدام البواكى والقباب المعلقة (فيما بعد) وطورت السقوف المنحنيَة بحيث أصبحت تغطى مساحات كبيرة ، وابتدع فن البناء بالخرسانة الحقيقية — كل ذلك نجده ممثلا فى آثار المبانى الرومانية التى بلغت حداً كبيراً من الاتساع

والضخامة فى عصر الإصلاح والبناء فى عهد دقلديانوس ، وبلغت ذروة مجدها فى القرن الثالث عشر فى ذلك الجلال الآسر والأبهة الطاغية التى تبدو عليها كنيسة سانتا صوفيا . أما فى المشاريع الأخرى التى لا تدخل فى نطاق الأعمال الفذة السالفة ، مثل مسح الطرق ورسم اتجاهاتها فى دقة ومهارة ، وفى إقامة القناطر وبناء القنوات المائيـة المعلقة وحفر الأنفاق . . . فقد أحرز الرومان أعظم التفوق . وأدى المهندسون والمساحون Libratores دورهم بجدارة . ويروى نونيوس داتوس Nonius Datus فى لمبيز Lambèse بشمال إفريقيـا ، فى فخر واعتزاز لائق بمهنته كيف أنه أصلح جانبا من نفق يجرى بناؤه ، حيث انفصل قائمان عن بعضهما ويذكر إلى جانب ذلك رسائل الشكر التى تلقاها . وهناك الكثير من القناطر والقنوات المائيـة ما زالت قائمة حتى يومنا هذا محتفظة بكيانها على أتم صورة ممكنة ، فهناك قناة «بون دى جارد» Pont du gard الشهيرة التى كانت يوما ما تمد مدينة نيم Nîmes بالمياه ، وهناك القنوات المائيـة فى سيجوفيـا Segovia وتاراجـونا Tarragona ، وهنـاك جسرا « القنطرة » و « قرطبة » فى أسبانيـا وجسرا ريمينى Rimini ونارنى Narni فى إيطاليا ، والقنطرة التى كانت تحمل الطريق الرومانى عبر كياختاسو Kiakhta Sou بالقرب من كياختا Kiakhta فى كردستان التركيـة ، والتى لم يزل بنيانها حتى الآن سليما لم يصب بسوء ، إن هذه المنشآت جميعا إنمـا تقوم للقرون المتأخرة شاهدا على مهارة المساحين والبنائين وقدرتهم على القيام بأعمال يكتب لها الخلود . ولا حاجة بنا إلى الحديث هنا عن شبكة الطرق العظيمة التى كانت همزة وصل بين الولايات المتطرفة القصية وبين حجر الحدود الذهبى فى روما (انظر الفصل الثانى) ، وإن الآثار الموجودة فى جنوب اسكتلنده أو دالماشيا Dalmatia ورومانيـا أو سوريا لتشهد حتى هذه الساعة ، بما لا يدع مجالا للشك ، على رسالة التمدين التى اضطلع بها المهندسون الرومان .

وأبدى الرومانيون أيضا مهارة وحذقا فى حفر الأنفاق والمناجم وقنوات الصرف واستغلال القوى المائيـة . ولعل ما هو أجدر بالإعجاب تلك الممرات والدهاليز التى تحويها مناجم أسبانيا ، والتدابير التى اتخذت لتصريف المياه من الحفر على الوجه الأكمل ، واتبعت فى ذلك طرق عدة ، مثل استخدام « قلاووظات أرشيميدس » وهى على هيئة طبقات بعضها فوق بعض تتخذ لرفع الميـاه أو استعمال الدلاء ورفعها بالمسحاب . وابتدع عبقرى مجهول فى وقت لا يمكن تحديدة بدقة (وإن كان من المقطوع به أنه سابق لعهد أوغسطس) طريقة لاستخدام قوة اندفاع المياه لإدارة العجلات ، ومن ثم توليد الطاقة ؛ بقصد استخدامها فى الأصل فى طحن القمح ، وهى مهمة كانت تقوم بها الخيل ، وهذا يفسر لنا ما حدث فى نقص مفاجىء فى الدقيق والخبز عند ما استولى كاليجيولا فجأة على كل ما وقع تحت يده من خيول لتجريد حملة مباغتة إلى الشمال . وكانت هـذه الطواحين المائية تنتشر بكثرة فى الريف الإيطالى ، واكتشفت فى ثلاث نقط من السور الرومانى فى إنجلترا آثار تركيبات لعجلة مائية تسير باندفاع الماء تحتها وذلك فى تشستر ، وهولتهويسل بيرن Haltwhistle Burn وويلوفورد Willowford . ولا بد أن صيت هذا الاختراع قد انتقل بسرعة فائقة إلى دول العالم القصية ، إذ أن هناك أسطورة أيرلندية تروى كيف ، أن الملك كورماك ماك ايرت Cormac mac Airt (فى القرن الثـالث) أرسل فى طلب أحد المهندسين من بريطانيا ليقيم له طاحونة هوائية من هذا النوع . وثمة مجال آخر ظهرت فيه مهارتهم هو المنشآت الخاصة بالرى ، كما برعوا فى إقامة القنوات ومجارى الميـاه . وتعد قنـاة « كاردايك » Car Dyke فى كامبريدجشـير Cambridgeshire مثلا للقناة الصناعية التى تصل ما بين نهرين ، كما توجد فى شمال بلاد الغال قناة تصل نهر مياس Maas بالرين ، وكان لدى أحد الولاة مشروع جبار (لم يقدر له أن يتحقق) يقضى بربط نهر موسيل Moselle بنهر سايون Saone . وكان من شأن هذا المشروع أن ييسر الانتقال مباشرة من مرسيليا إلى

داخل فرانسا ثم إلى الرين . وإن مثل هذا المشروع ، بالإضافة إلى مشروع آخر كان يرمى إلى تجفيف بحيرة تقع بالقرب من نيكوميديا Nicomedia فى آسيا الصغرى ، ليدعونا إلى التساؤل عما إذا كان المهندسون الرومانيون قد اهتدوا إلى حل لمشكلة التغلب على المستويات المختلفة للمياه بطريق استخدام الأهوسة ، ويعتقد أحد الباحثين المحدثين أنهم قد اهتدوا إلى ذلك بالفعل (١) .

ولن يتم أى بحث عن الهندسة الرومانية إلا بالحديث عن البصيرة العسكرية النافذة والمهارة البالغة فى مسح الأراضى، اللتين اتصف بهما الرومان فى أعمال التخطيط والتصميم والبناء لتنفيذ الاستحكامات المنيعة على الحدود ، وكانت هذه تتألف من سلسلة متصلة من المواقع الحصينة ، تتقدمها قلاع صغيرة فى مواقع أمامية ، ومن مراكز الإشارة والقلاع الرئيسية فى المؤخرة ، والطرق الموصلة التى تعرف عامة باسم Limites . وكانت مثل هذه التحصينات تحمى حدود الإمبراطورية فى بريطانيا وجنوب ألمانيا بين الرين والدانوب وفى رومانيا وفى صحراء سورية وفى شمال إفريقيا ، حيث كانت توغل فى الصحراء إلى حد تعذر معه معرفة الخطة العامة لهذه الاستحكامات ، حتى استعين فى السنوات القليلة الماضية ، بوسائل النقل الحديثة والصور الجوية .

واقترن هذا التقدم فى التطبيق العملى للعلوم والمعارف بإنتاج الكتيبات والموسوعات . وأحرز اليونانيون قصب السبق فى هذا المضمار ، بيد أن ذلك لم يمنع ظهور بضعة كتب رومانية ، نخص بالذكر منها بحثا كتبه فتروفيوس Vitruvius « عن الهندسة » يمكن أن يعد بداية علم الهندسة المعمارية الحديث ، إذ كان له عظيم الأثر بعد اكتشافه فى عصر النهضة على ليوناردو دافنشى وباللاديو Palladio ، كما كان قد ترجم بانتهاء القرن الثامن عشر إلى اللغات كافة

---

(١) انظر F. G. Moore, in Amer. Journ. Archaeology العدد ٥٤ لسنة ١٩٥٠ الصفحات من ٩٧ — ١١١ .

الأوربية الحديثة كلها . ولم تقدم روما من المؤلفات النظرية بغض النظر عن البحوث التى كتبها كيلسوس Celsus وسينيكا وبلينى الأكبر وفرونتينوس Frontinus سوى النذر اليسير ، فى حين أن الشرق الناطق باليونانية قد صال فيها وجال . وقد تدفقت الكتب والأبحاث الواحد تلو الآخر خلال القرن الثانى . ولعل أعظم الكتب والأبحاث أصالة ، مؤلفات ديوفانتوس Diophantus (١٧٠ تقريبا) الذى ابتدع الجبر فى حقيقة الأمر والذى استحدث رموز التساوى والناقص والمجهول وغير ذلك . أما نيكوماخوص من جيرازا Nicomachus of Gerasa (١٥٠ تقريبا) فقد نشر « مقدمة فى الرياضيات » وعالج نظرية الأعداد . وكتب هيرو السكندرى Hero أبحاثا فى علوم « الميكانيكا » و « الخصائص الميكانيكية للغازات أو الهواء » و « القذائف » بالإضافة إلى تعليق على أيوكليد Euclid . وألف بطليموس العظيم (١٧٠ تقريبا) مصنفاً للنجوم وكتب بالإضافة إلى مؤلفه عن « الجغرافية » مقالات عن البصريات وعن النظرية العددية . وأسهم أبولونيوس السكندرى Apollonius (القرن الثانى) ببحث فى قواعد اللغة ، أما غالين (١٧٠ تقريبا) المفكر الذى لا يعرف الكلل ، فقد أصدر ما يربو على ١٥٠ مؤلفاً معظمها فى الطب وإن كان بعضها يتناول التربية والتعليم . ولعل غالين كان آخر أساتذة العلوم فى العصر القديم ، إذ كان يحاضر ويمارس تجاربه ، ويتشاجر (فى الغالب الأعم) ويدعو لنظرياته . لقد بلغ إنتاجه درجة من الضخامة ، كما طبقت شهرته الآفاق إلى الحد الذى لم يعد فى الإمكان معه إحراز أى تقدم على آخر خلال بضعة قرون ، ويؤخذ عليه عادة فى الوقت الحاضر (من جانب من لا يقرأ تآليفه) أنه متزمت رجعى . وما من شك فى أن هذا الحكم جائر جداً بالنسبة لعالم كان يدعو إلى قراءة مؤلفات الكتاب القدامى ، ولكنه كان ينادى — فى الوقت نفسه — بضرورة التحقق مما يقوله الأقدمون فى ضوء الحقائق الواضحة الثابتة .

بيد أنه إزاء هذا الإنتاج الضخم المهول ، يحق لنا أن نوجه شيئا من النقد

البرىء ، مؤداه أن هـذا الإنتاج لم يكن يمثل طاقات جديدة أو اكتشافات مستحدثة ، إذ لم يكن يعدو مجرد تجميع وربط بين ألوان المعرفة المقررة الثابتة ، فهو إما «الجامع فى كذا وكذا » أو «قواعد كذا وكذا» أو « مقدمات فى كذا وكذا » ولا شىء غير ذلك . بيد أننا نعود فنقول إنه ما من حضارة تخلو من فترات يبدو فيها من الضرورى توقف الركب ردحا من الزمن ريثما يتحقق نوع من الاستقرار ويتسنى النظر فى حساب الأرباح والخسائر ، قبل التقدم خطوات أخرى . وجدير بالذكر أن بابوس Pappus وثيون Theon ، فى الإسكندرية التى تعد أقل المناطق تأثراً بتقلبات القرن الثالث ، كانا لا يمثلان حلقة أخرى من الشراح والمعلقين على أيوكليد وغيره من علماء الرياضة فحسب ، بل كانت لهما نظريات وحلول جديدة .

والحقيقة أننا نواجه هنا مثلبا من أبرز المثالب التى اعتورت نظام التربية فى العالم القديم ، ألا وهو الاهتمام البالغ بالبلاغة والخطابة . إن القول بأنه ينبغى على المرء أن يأخذ نفسه بالتعبير عن الأفكار التى تعتمل فى ذهنه فى وضوح وقوة وصفاء ، لهو هدف سام جدير بالإعجاب ، غير أن هذا الهدف ينطوى على ناحيتين من نواحى الخطر ، الأولى هى أنه قد يضحى بالحقيقة والدقة فى سبيل العرض الشائق ، وبذلك يطغى المظهر على الجوهر ، والثانية أن يفترض مستوى كاذبا جامداً يتخذ مقياسا للتفوق . درج الكتاب اليونانيون فى عهد الإمبراطورية على النظر إلى اللغة اليونانية القديمة التى كانت سائدة فى القرنين الخامس والرابع (وهى اللغة التى كتب بها ثيوكديديس وليزياس Lysias وأفلاطون وديمستينيز Demosthenes) على أنها الأنموذج الأعلى والمثل الذى يجب أن يحتذى دون سواه ، ومن ثم فقد انقطعت الصلة بين لغة الكتابة — التى كان تفكير من يستعملونها ينحصر دائما فى تراث الأقدمين — ولغة الكلام ، وفقدت تلك بذلك أسباب الحياة والقوة والتطور . وكان هذا هو الحال أيضا مع اللغة اللاتينية ، وإن لم يبلغ الأمر هذا الحد من الخطورة ، إذ كان

شيشرون هو قدوة كتاب هذه اللغة ، مع أن بعض المتعالمين قد أعربوا عن إعجابهم بطلاوة الأسلوب القديم الذى ظهر قبل شيشرون .

ولنا أن نتصور عظم الخطب وفداحته ، لو اضطر المؤلفون الإنجليز إلى الاقتصار على استخدام ألفاظ وعبارات كالتى وردت فى مؤلفات زملائهم فى القرن السابع عشر ، من أمثال بيكون Bacon وجيريمى تيلور Jeremy Taylor وملتون Milton ولوك Locke . وهكذا كانت التربية تنطوى على ميل إلى التقليد الجامد الصارم الذى لا حياة فيه وإلى التزمت الشديد ، غير أنه كان هناك من بين مشاهير الكتاب مثل غالين وبلوتارخوس من أفلح فى الوقوف فى وجه هذا التيار ، فرفض غالين الكتابة باللغة اليونانية القديمة قائلا : « خير لى أن أخطىء فى قواعد اللغة من أن أخطىء فى قواعد الحياة » ، كما ندد بلوتارخوس بالفكرة القائلة بأن يكون للألفاظ الاعتبار الأول . غير أن البلاء ما لبث أن استشرى واستفحل ، فرغم أننا نعترف بوجود بعض الفوارق بين لغة الكتابة ولغة الحديث فى أية حقبة من الحقب ، إلا أن الهوة قد اتسعت هذه المرة اتساعا مخيفا ، وهكذا قدر للجانب الأعظم من أدب العصور المتأخرة (سواء كان باللغة اليونانية أو باللغة اللاتينية) أن يكون إما تقليداً بارعا ، أو تحذلقا تقتضيه أصول الصنعة .

لقد تحدثنا عن نكبة البلاغة ، ولكن من الإنصاف أن نذكر أن علماء اللغة وعلماء البلاغة على حد سواء قد قاموا بعمل مثمر بوضع قواعد للأجرومية ، ودراسة اللغة نفسها وتحليلها ، وبالإضافة إلى ذلك ، فقد ظهر فى القرن الثانى نظام للتدريب العام (التربية اليومية أو العامة) استتب له الأمر بعد فترات طويلة ، واستمدت منه فيما بعد « الفنون الحرة » السبعة التى اعتبرت فى العصور الوسطى عدة الرجل المثقف تثقيفا صحيحا . بيد أن التعليم فى النصف الغربى من الإمبراطورية جنح إلى المغالاة فى مسايرة الاتجاه العملى ، ومن ثم كان

أقرب إلى السطحية والضحالة ، ذلك لأن من عادة « الرجل العملى » أن يتقبل فى ميادين العلم التى لا توافق هواه أغرب الفروض وأشدها مجافاة للمنطق . وإنها لهوة سحيقة مؤسفة ، تلك التى تفصل بين بلينى الرومانى الذى يؤكد لنا تأثير العشب المعروف باسم « بقلة الغزال » على نزع السهام ودلل على هذه الحقيقة بأن السهام تسقط عن الوعول التى تتغذى على هذا العشب ، وبين غالين اليونانى . فقد حث تلاميذه على التحقق بما يقول وذلك بمقارنته بالحقائق الواضحة . وليس بأقل بلاء أن نرى علماء البلاغة اليونانيين يعيشون فى عالم يعود القهقرى إلى قرون مضت ، وقد انكبوا على تدبيج الخطب السياسية حول موضوعات مثل معركة ماراثون Marathon ، أو جدل الإسبرطيين حول مصير أثينا . لقد كانت أمجاد الماضى ظلا من عزاء لحاضر عصيب مخيب للآمال .

ومع كل ذلك ، فقد بقيت ظلال خافتة تدل على المهارة البالغة فى الهندسة التطبيقية وفن البناء والمعمار ، كما كتبت الحياة لقسط من المعرفة بالمبادئ الطبيه العلمية ، بيد أنه قد ازدهرت إلى جانب العلوم الحقيقية علوم أخرى وهمية ، ازدهرت معها الخرافات والخزعبلات . ولعل العدو الأول كان علم الفلك ، الذى كان له فى القرنين الثانى والثالث من المكانة العلمية ، ما لم يتيسر له فى القرن العشرين . إذ تبنى الفلاسفة الرواقيون المتأخرون هذا العلم وعمدوا إلى تطبيقه ، فكان ينظر إلى النجوم والأبراج ، على أنها كائنات حية لها القدرة على التأثير المؤكدالحاسم ، سواء أكان بالخير أو بالشر ، على جميع الكائنات الحيـة التى تعيش على وجه الأرض . إن اللحظة التى يولد فيها الإنسان تحدد مصيره وحظه ، حسب النجم الذى قد يكون فى الطالع ، ولا سبيل إلى الفرار من هـذا القدر القاسى المحتوم . وماعتم أهل الشكوك أن أنفذوا سهام النقد إلى الافتراضات التى يقوم عليها علم الفلك ، وإلى طريقة تطبيقه أيضا ، ولـكن

الفلك قديق كى يشبع نهم السذج ، وكى تصدق نبوءة تا كيتوس Tacitus الذى قال إن ممارسى هـذا العلم سيلقون دائما الحرمان والردع ، غير أنهم سيظلون مصدراً للمشورة والنصح . وكانت تتصل بالفلك طائفة من العلوم الوهمية (مثل « علم النبات الفلكى » انظر الفصل الثامن) ، بل إن بطليموس كتب بحثا عنها تضمنه مؤلفه الشهير Tetrabiblos ، الذى خصص فيه أقساما معينة للحديث عن الفلك وعلاقته بكل من « الزواج » و « الأولاد » و « الرقيق » و « السفر إلى الخارج » .

ونعود فنقول إنه على الرغم من أن الباحثين السكندريين بلغوا من العلم درجة سمحت لهم باستغلال ضغط الهواء وصناعة آلة بخارية صالحة للاستعمال ، فإنهم وجهوا جل معرفتهم إلى تركيب اللعب المبتكرة ، مثل مسرح للعرائس يدار آليا أو جهاز آلى يستخدم فى نقل المياه المقدسة ، أو طريقة مبتكرة يمكن بوساطتها إحداث صوت طبل عندما يدفع أحد المصلين باب المعبد ، إلى آخر هذه التفاهات . ولا شك فى أن الكهنة كانوا يلجأون إلى بعض هذه الحيل ليثيروا الرهبة والعجب ، فقد أفرد هيبوليتوس Hippolytus ، وهو وثنى ممن اعتنقوا الدين المسيحى ، عددا من فصول مؤلف له ، لافتضاح أمر الطرق التى يمكن بها افتعال الرؤى الإلهية والخيالات النارية . . وكما هى العادة كان هناك المؤسسون للمذاهب الدينية الجديدة ، وكانت هناك تلك الفئة التى لا تتورع عن العيش فى رغد ، على حساب عطف الغير وتقواهم ، فنسمع عن دجال يدعى بريجرينوس Peregrinus فى القرن الثانى ، تحول إلى المسيحية فترة من الزمن ، وكان له أن يتمتع حتى وهو فى السجن بالأطعمة الطيبة التى كان يرسلها إليه الأتقيـاء المؤمنون . كما ابتدع الإسكندر من فورت أبونى Alexander of for: Abouni (انظر الفصل السادس) عقيـدة عادت عليه بأوفر الربح تمثل عبادة « حيـة » ذات رأس إنسان تسمى جليكو Glyco ،

ذاع صيتها وانتشر إلى حد أن الإمبراطور ماركوس أوريليوس قصدها للعرافة .

والواقع أنه بين هذه الملايين من سكان الإمبراطورية الذين يخيم عليهم الجهل وتستبد بهم الخرافات وتغلب عليهم البلاهة التى تحملهم على تصديق كل شىء ، كان من السهل على أى امرئ واسع الحيلة قليل الاكتراث ، أن يجنى ربحا وفيراً من وراء العمل كعالم بالذات ، لأن لفظة عالم لم يكن ينضوى تحتها أساطين العلوم من كل لون وصنف ، بل شملت أيضاً الفلكيين والسحرة والمشعوذين والعرافين والأطباء الدجالين ومفسرى الأحلام ومن على شاكلتهم . وقد يحدث أن يخلص بعضهم فى عمله ، شأن أرتيميدوروس Artemidorus (من دالدى Daldae فى آسيا الصغرى) الذى كان يفسر الأحلام ، والذى يذكر لنا أنه قد أنفق وقتا طويلا وبذل جهداً كبيراً فى جمع الأحلام وتصنيفها وتفسيرها ، ولمؤلفه كما يرى البعض أهمية اجتماعية ، غير أنه لاقيمة لتفسيراته علميا . بيد أن الكثرة كانت من الدجالين ، مثل الجراحين المتجولين الذين كانوا يوهمون المريض بأنهم سيجرون له جراحة لاستخراج قطعة حجر منه ، ودائما ما كانوا يجدون مثل هذه القطعة (إذ كانوا يحتاطون للأمر بإحضار قطعة من الحجر معهم) ، ومثل الأطباء الذين كانوا يشفون الصرع باستخراج «عظاءة» من أنف المريض ، كانوا يخفونها فى راحاتهم . وفى القرى أيضا ، كانت الساحرات والحكيمات تقمن بتجارتهن من الأحجبة والرقيات ومعجون العشق .

ولعله ليس من الإنصاف للحقيقة أن نختتم حديثنا بهذه النغمة الساخرة . لقد جر القرن الثالث بحروبه وغزواته وأزماته الاقتصادية إلى ازدياد المعتقدات الخرافية والسذاجة ومجافاة العقل والمنطق ، بيد أن ذلك لم يكن بمستغرب من شعب منهك القوى تتنازعه شتى أسباب القلق . غير أن العلم

والدراسة والعلوم التطبيقية ظلت خلال القرنين الأول والثانى ، على ازدهارها وصلاحيتها ، كما ظهر نظام جديد للتعليم ، كان مقدراً له أن ينمو ويتطور على مر الزمن ، وليست الإمبراطورية هى الملومة فيما حدث من أن القرون المتأخرة أخذت تنظر إلى هذه المؤلفات والنظم نظرة توشك أن تكون نظرة تقديس وعبادة . وجدير بالذكر أن منارات صغيرة للعلم مثل الإسكندرية ظلت قائمة حتى فى أشد العصور حلكة ، فحفظت تلك الشعلة المقدسة التى كان للعرب ومن بعدهم أوربا أن يحملوها ويتقدموا بها ركب الحضارة من جديد .

الفصل السادس

التربية والأدب والفن ووسائل الترفيه

إلى هـــذا الحين ، كنا نرقب سكان الإمبراطورية وهم يؤدون أعمالهم ويضطلعون بواجباتهم . غير أنه من دأب الإنسان أن ينظر ، سواء عن حق أو بغير حق ، إلى الأدب والموسيقى والفن كما لو كانت وقفا على ساعات فراغه وأوقات ترويحه عن نفسه وجلوها . وعلى ذلك ، فلنا أن نتساءل عن فرص الترويح التى كانت متاحة للفرد فى ظل الإمبراطورية ، فى مختلف نواحيها وصورها . ولـكنه لا يسعنا بالطبع قبل البدء فى الرد على هذا السؤال إلا أن نستفسر عن نظم التربية والتعليم .

كان التعليم الرسمى العام ، بغض النظر عن التدريب والتثقيف الذى يتلقاه الطفل عن أبويه وبين أفراد أسرته ، مقصوراً ، أولا وقبل كل شىء ، على القادرين على القيام بنفقاته . وكان بوسع النبلاء والأثرياء أن يتخذوا لأبنائهم مربين خصوصيين ، وفى مقدورهم أيضاً — وهذا ما كانوا يفعلونه بطبيعة الحال — أن يبعثوا بأبنائهم إلى مدارس يديرها أشهر علماء النحو والمربين ، سواء فى روما نفسها أو فى حواضر الأقاليم . وكان يتقاطر على المعلم فى مدن الريف أبناء ملاك الأراضى ممن يمثلون الطبقة الأرستقراطية المحلية ، وأبناء قواد المائة المتقاعدين الذين يتميزون بضخامة جثثهم وأنفتهم ، وأبناء العبيد المعتقين وصغار التجار الذين كانوا يدخرون المال فى عناية وحرص كى يوفروا لأبنائهم مستقبلا أفضـــل . وإنا لنسمع بعد مضى جيلين أو ثلاثة أجيال ، وعندما ظهرت أهمية التعليم ، عن محسنين أسخياء يوقفون الأموال على المدارس ، أو مواطنين أثرياء يتكاتفون لتحمل نفقات أحد المربين . وعندما

اقتفت الدولة أثر الأفراد أصبح « الصندوق الخيرى » الذى أمر به تراجان يقوم بتدبير الأموال لتعليم الفقراء بالمدارس ، كما نصت لوائح المناجم التى كانت موجودة فى فيباسكا Vipasca بالبرتغال فى القرن الأول على توفير المدارس والمدرسين لأبناء العمال . وأسس فسباسيان كرسيين للبلاغة اللاتينية والبلاغة اليونانية ، وعين كونتليان Quintilian أشهر مربى عصره فى روما ، ليشغل كرسى اللغة اللاتينية . وأدرك الأباطرة منذ البداية الحاجة إلى تلقين الأمم المقهورة نظم الحياة الرومانية وأساليبها . فأنشئت منذ عهد أوغسطس مدرسة لأبناء النبلاء الغاليين فى « أوتون » Autun ، كما حث أجريكولا أثناء ولايته على بريطانيا ، النبلاء المحليين على تعليم أولادهم وفق نظم التربية الرومانية .

كان المعلم يقرأ فقرة من هومر أو من أحد المؤلفات الكلاسيكية الكبيرة ، ثم يشرح معناها ، ويأتى بعد ذلك دور السؤال والجواب . « من كان والد هكتور ؟ » .. « بريام » . « من كانا أخواه؟ » .. «الإسكندر وديفوبوس». « من كان أقبح الخلق ؟ » .. « أى الآلهة ساعدت الإغريق؟ » ... وهلم جرا. وكان للمعلم شخصية مرهوبة ، فقد يقرص أذنك أو يضربك ضربا مبرحا ، أو يعنفك مرغيا مزبدا إن تخلفت عن موعد الدرس ، كما يظهر من لوحات نيوماجن البارزة (انظر الفصل الثالث) ، والواقع أن أحد الناصحين لم يجد ما يواسى به صبيا إلا أن يطلب إليه أن يصمد فى شجاعة أمام معلمه كما يفعل الجندى الرومانى عندما يواجه عدوه .

وكان الأساس الأولى للتعليم هو الأجرومية والهجاء والإملاء واستظهار بعض النصوص ، وتأتى إلى جانب ذلك بعض المناهج المبسطة فى الحساب والجغرافية والتاريخ ، غير أن هذه جميعا لم تكن تخدم إلا غرضا عاما واحداً، وهو تلقين فن الحديث والإقناع . كان الاعتقاد هو أن القدرة على الحديث المقنع القوى التأثير ، هى ما يميز الشخص المثقف عن القرويين والبرابرة . وثمة

مثلبان فى نظام التعليم فى العالم القديم . أولهما أنه لم يدخل فى حسابه توفير سبل التعليم لأبناء الفقراء من أهل المدن أو الريف ، وثانيهما مغالاته فى الاهتمام بالجانب البلاغى (انظر الفصل الخامس) مما أدى فى النهاية إلى طغيان المظهر على الجوهر وتحول اللغة اللاتينية شيئا فشيئا إلى لغة كتابة وأدب فحسب .

ولما كان الإلمام باللغة اللاتينية على هذه الدرجة من الأهمية ، فقد كان العالم اليونانى نفسه على استعداد لأن يتعلم اللسان الرومانى ، رغم أن المترمتين منهم والوطنيين كانوا يعترضون فى كثير من الأحيان على إرسال الآباء الطامحين أبناءهم على ظهور السفن إلى إيطاليا ، لكى يتعلموا اللغة اللاتينية ، ومن ثم تتهيأ لهم فرص الترقى . وقد آلت إلينا معاجم وترجمات للمؤلفات اللاتينية الشهيرة ، مثل «الإنيادة» ، كان الغرض منها مساعدة الطلبة والدارسين ، وكتيبات أيضاً فى قواعد المحادثة والحوار باللغتين اليونانية واللاتينية وضعت لذوى الطموح من أبناء المجتمعات . أما الجامعات فكانت يونانية الطابع فى الغالب الأعم ، لاتينية فيما ندر ، إذ كانت الدراسات اليونانيـــة هى السائدة فى مدن مثل مرسيليا وأثينا وطرسوس والإسكندرية ، ورغم ذلك ، فإننا لا نكاد نجد دراسات عليا فى الرياضيات أو العلوم فى أى من هذه الجامعات فيما عدا جامعة الإسكندرية . وربما كانت أصول الفلسفة أو مبادىء الجغرافية أو التاريخ تدرس فى هذه الجامعات بصورة أو بأخرى ، غير أن هذه المواد عينها لم تكن تدرس ، فيما يبدو ، باعتبارها علوما قائمة بذاتها ، بل لتكون مادة يستمد منها الخطيب حاجته . وهنا تظهر أيضا نكبة البلاغة .

وثمة شىء واحد تميز به المواطن الرومانى فى عهد الإمبراطورية عن أسلافه المواطنين فى عهود أخرى ، وهو الشعور بأنه قد أصبح من حق أمته أن ترفع رأسها فى ميدان الأدب فى وجه اليونانيين أنفسهم . إن الشوامخ التى أتاها شيشرون الذى « مد فى آفاق العبقرية اللاتينية » فى ميدانى الخطابة والفلسفة ،

والأشعار التى نظمها كاتولوس Catullus وفرجيل Virgil وهوراس Horace وأوفيد Ovid والمؤلفات التاريخية التى سطرها سالوست Sallust وليفى Livy كانت تعنى جميعها أن فى وسع روما أن تفاخر بمجموعة من المؤلفات الأدبية التى تختص بها . وعلاوة على ذلك ، كان المواطنون الرومانيون ينفردون بميزة كبرى وهى حيازتهم لمستوى أدبى معروف يتخذ لتقدير مدى إجادة الكاتب ، كما كان الحال مع الكتاب الإنجليز فى العهود الأولى ، إذ كان فى وسعهم أن ينسجوا على منوال المؤلفات الفرنسية والإيطالية أو يقارنوا بينها وبين مؤلفاتهم .

بيد أنه يجب أن نضع نصب أعيننا عند الحديث عن الأدب أنه لم يكن من السهل دائما الحصول على نسخ من أى مؤلف معين . كانت مهمة النسخ تقوم على عاتق الكتبة العبيد ، الذين كانوا يؤدون عملهم غالبا فى سرعة فائقة ، مع ما يترتب على ذلك من إهمال وخطأ . قد يؤكد الوراق أن نسخته غاية فى الدقة ، ولكن الناقد المدقق لا يعدم أن يجد أخطاء بها ، وكثيراً ما يشير الكتاب القدامى إلى نصوص الكتب الناقصة المعيبة . كما أن عدد النسخ كان محدوداً ، وقد أمر أحد المحامين الأثرياء عبيده ذات مرة بإعداد ألف نسخة من واحد من مؤلفاته ، لتوزع مجانا ، ولكنه من المستبعد أن ينتج أى وراق ٥٠٠ نسخة من مؤلف واحد ، بل لا يرجح أن يبلغ عدد النسخ المعدة لأى كتاب نصف هذا الرقم . ورغم أن ثمن النسخة من ديوان مارشيال Martial الذى ضمنه الحكم والأمثال ، ويبلغ خمسة دنانير (ما يقرب من خمس أو ست شلنات) ، لا يبدو باهظا ، إلا أنه كان يربو إلى حد كبير عن الأجر اليومى لكثير من الناس . ويندر أن نجد بين أبناء العالم القديم من كان يملك على أية صورة من الصور مثل هذا العدد من الكتب التى يملأ بها الباحث فى العصر الحديث أرفف مكتبته ، كما كانت استعارة الكتب (وإعادتها فيما نأمل) تجرى على أوسع نطاق حتى بين المثقفين أنفسهم . نسخة واحدة من خطب كاتو Cato الأكبر هى التى كانت متوافرة فى روما نفسها ، كما يبدو ،

أن ماركوس أوريليوس كان يعتمد على صديق له فى قراءة نسخة لإبكتيتوس . ولم تكن هناك سوى قلة من المكتبات التى تملك نسخا من مؤلفات المؤرخ العظيم تاكيتوس Tacitus هذا مع أنه لم يكن قد مضى على موته سوى قرن ونصف قرن على الأكثر ، حتى أن سميه الإمبراطور تاكيتوس (عام ٢٧٥) أمر باستخراج عدد أكبر من النسخ. وكان من الممكن أن تبلغ المؤلفات السهلة المأخذ رقما عاليا فى التوزيع فى بداية ظهورها ، وقد سر بلينى لأن مؤلفاته كانت تلقى رواجا فى ليونز Lyons وابتهج مارشيال إذ تذكر أن الضباط فى بريطانيا أو بلغاريا سوف يقرأون قصائده ، ورغم أنه كانت هناك مكتبات فى مدن الولايات ، يتطوع بتأسيسها عادة أحد المحسنين ، فلم تكن محتوياتها تتعدى المؤلفات التقليدية والكتب المدرسية العلمية التثقيفية .

والأمر متوقف على أية حال على روح العصر ، والاتجاه السائد فيه ، ومعرفتنا بمدى انتشار القراءة تعتمد أساسا على أوراق البردى التى انتشلت من بين رمال مصر ، وإنا لنجد هنا أمرا يدعو إلى العجب ، فنى مدينة صغيرة نسبيا مثل أوكسيرنخوس ، كان فى متناول أيدى الدارسين من سكانها فى القرن الثانى طائفة كبيرة من المؤلفات الأدبية . فلم يكن هناك « هومر » فحسب الذى يعد دون منازع الكتاب التعليمى الأول، بل كان هناك هيزيود Hesiod أيضا ، كما كان بين أيدى القراء بها من المسرحيات التى كتبها كتاب المأساة العظام ، أيسخيلوس Aeschylus وسوفوكليس Sodhocles ويوريبيديس Euripides ، عدد أكبر مما آل إلينا فى العصر الحديث . يقول سير ﻫ . ا . بل : « لابد أنه كان هناك جمهور كبير من القراء وتجارة رائجة للكتب » . وليس من المستبعد أن كانت هذه هى الحال فى سائر المدن المصرية والسورية .

وإذا وجهنا السؤال الآتى : « ومن كان المؤلفون الأعلام ؟ » . لكانت الإجابة هى أن هومر يأتى دون شك فى المرتبة الأولى فى اللغة اليونانية ويليه يوريبيديس وديموسثينين وميناندر . أما فى اللاتينية فهم فرجيل

ثم تيرنس Terence ثم شيشرون - كان هومر وفرجيل من الأعلام الذين تنتشر مؤلفاتهم فى كل مكان كما هى الحال فى احتفاظ أغلب الأسر الإنجليزية بنسخة من شكسبير (تكون جائزة مدرسية فى الأصل) ، أما عن بقية الكتاب فقد كانوا يصلحون للخطيب الناشىء إما باعتبارهم نماذج تحتذى أو مصادر للاقتباس الصحيح . ولا نرجح أن نسخا كثيرة من مؤلفات ثوكونيديس Thucydides أو أفلاطون كانت تباع للأفراد ، بل إن التاريخ الوطنى الذى كتبه ليفى لم يلبث أن بدا مسهبا طويلا ، فاستخرجت له مختصرات عرضت للبيع . وكان من الميسور الحصول على هذه الكتب من المكتبات العامة ، إذ كان لدى المدن الكبرى وكثير من البلدان الصغيرة مكتبات عامة ، وهى عادة ما تكون منحة من مواطنين أثرياء مدفوعين بحب الوطن . غير أن هذه الكتب لم تكن تتخذ فيما يبدو إلا مراجع فقط ، إذ يقول نقش وجد بأثينا « لا يسمح بخروج الكتب ، تفتح المكتبة من الساعة الأولى إلى الساعة السادسة » .

وإلى هذا الحد ، لم نتناول غير الأسماء اللامعة الشامخة ، وهى أسماء الكتاب الكلاسيكيين فى الأدب القديم . فما هى الأعمال الجديدة الأصيلة التى ظهرت فى عهد الإمبراطورية ؟ يجب هنا أن نقر فى صراحة أننا نلحظ بعد عام ١٢٠ هبوطا فى الإنتاج ، كما لو أن استبداد الحكام المتزايد — وهى حالة وصفها كاتب معاصر بعبارة « كوننا عبيداً أرقاء لسيد حسن النوايا » — أخذ يطغى على الروح المبدعة الخلاقة . فلم تكن هناك كتابات سياسية أو نظرية عميقة ، فيما عدا بعض البحوث الفلسفية الفنية حول شرعية الحكم الملكى ، كما لم تكن هناك خطابة مشهودة ، وخلا العصر من الشعراء الجيدين . بيد أن هناك بعض الأسماء التى تبرز قبل هذا التاريخ خلال القرن الأول ، وأشهرها فى اللغة اليونانية بلوتارخ ، ويمثل روحا نبيلة ورعة دائبة ، كما كان يبث فى تآليفه شيئا من جاذبية شخصيته . ومن الممكن أن ندرج مؤلفاته جميعا تحت اسم

« الفلسفة الشعبية » ولكن الواقع أنه خلق فى مؤلفه « السير المتماثلة » (الذى كان يقارن فيه بين حياة بعض الساسة اليونانيين والرومانيين) عملا لم يلبث أن أصبح فى عداد المؤلفات الكلاسيكية . وإن كان قارئ هذه السير يشعر بين الحين والآخر بمحاولة متعمدة لتأكيد الفوارق بين أخلاق اليونانيين والرومانيين وطرائق حياتهم ، فإن أهمية هذا الكتاب تكمن فى أن يونانيا قد تكرم بالاعتراف بأن فى وسع الرومان — قوادا أو ساسة أو خطباء — أن يقفوا على قدم المساواة مع اليونانيين ، وأن الأمتين قد اشتركتا معاً فى حمل مشعل الحياة المتمدينة . أما لوكيان Lucian ، فهو سورى من الشمال يحتمل أنه كان أبيقوريا ، وكان ناقداً ساخراً يكره الخداع ، ترك لنا بعض المحاورات الطريفة والمفارقات التاريخية وحكايات سفر وترحال بارعة (تقارب فى طريقة عرضها أسلوب سويفت الإنجليزى) وبعض المؤلفات الجادة مثل « السفينة والإسكندر أو النبى الكذاب » الذى يروى فيه قصة حياة الإسكندر من فورت أبونى وألوان خداعه المذهلة ، وكيف أنه استطاع بإلهته العرافة جليكو التى كانت على شكل حية ، وبطقوسها المعقدة التى تثير الروع ، أن يخدع لا أهل الولايات فحسب بل الحكام الرومانيين أنفسهم . وظهر قرابة هذا الوقت يونانى آسيوى آخر يدعى آريان Arrian كان يحلو له أن يصور نفسه بصورة اكسينوفون Xenophon الجندى والمؤرخ والفيلسوف القديم ، وقد ألف آريان أعظم رواية كاملة آلت إلينا عن فتوحات الإسكندر الأكبر (وهى رواية Anabasis Alexandri الشهيرة) بالإضافة إلى وصف رائع لتعاليم ومبادئ الفيلسوف والعبد المعتق أبيكتيتوس (انظر الفصل الخامس) الذى كان قد استمع إلى محاضراته . كما خلف لنا أيضا عدداً كبيراً من المؤلفات القصيرة عن الأساليب الحربية للفرسان وعن الصيد وعن جولات التفتيش ، إلى غير ذلك من الموضوعات . كما ترك لنا أديب يدعى لونجينوس Longinus قطعة شهيرة فى النقد الأدبى فى بحث قصير عنوانه « عن سمو الأسلوب » وهى تكشف عن

إحاطته الواسعة بالأدب اليونانى ، كما تضم — لعظيم دهشتنا — نصاً مقتباساً عن أسفار موسى الخمسة ، وتتسم أيضا بدقة أحكامها وسمو ألفاظها ومعانيها. ولكن إذا ما انتهينا من تعديد هذه الأسماء — وهى ليست بقليلة — فيجب أن نقرر أننا لا نجد أمامنا سوى الكتب الدراسية العلمية التى تتناول مختلف الموضوعات مثل أصول الطهى وتفسير الأحلام والفروسية وصيد الأسماك ، غير أن الجانب الأعظم من هذه الكتب الدراسية خصص للبلاغة وفنون تدريسها .

أما عن الجانب الرومانى ، فقد بلغ الأدب فى عهد أوغسطس ذروة ازدهاره ومجده ، فكان هناك فرجيل وهوراس وأوفيد فى الشعر ، وكان هناك ليفى بملحمته النثرية عن تاريخ الشعب الرومانى . أما عن الشعر فقد أخذت تخمد جذوته شيئا فشيئا إلى أن انتهت بملحمة لوكان Lucan البلاغية عن « الحرب الأهلية » وبالملاحم والمنظومات القصيرة لكل من سيليوس إيتاليكوس Silius Italicus وفاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus وستاتيوس Statius . ، وبعد ذلك حل شتاء قارس جمدت فيه — فيما يبدو — الروح المبدعة الخلاقة . أما عن النثر ، فقد كان لسينيكا الأصغر الذى كان فيلسوفا ومصلحا خلقيا وكاتبا للرسائل الأدبية ، أن يحمل مشعل التقاليد الإنسانية فى الأدب الرومانى ، كما تحدث بلينى فى موسوعته الهائلة عن « التاريخ الطبيعى » عن كل ما تحت الشمس تقريبا (وبعض ما لم يكن له وجود قط) وقدم لنا بذلك كنزا من المعلومات الغريبة ، أما كوينتيليان Quintilian فهو يشرح لنا مدى ما ينبغى أن يلم به الخطيب — فى اعتقاده — من علم وخبرة واسعتين عميقتين ، فيقول إن العبرة ليست بالإحاطة بأسرار صناعة البلاغة ، بل إن العبرة بشخص الخطيب نفسه الذى ينبغى أن يكون ذا شخصية قوية وثقافة عميقة . وما إن يحل القرن الثانى حتى نجد أنفسنا حيال المؤرخ العملاق تاكيتوس Tacitus الذى يأخذ مكانه بين أئمة الأدباء والمؤرخين ، لنشاطه ودأبه وإدراكه العميق

للدوافع السياسية والإنسانية ، ولأسلوبه الطلى الوقور الذى يزدان بموهبة خارقة فى استخلاص العبرة وصوغها فى عبارة قصيرة تجرى مجرى المثل . أما صديقه بلينى الصغير فقد خلف مجموعة من الرسائل الموجهة إلى مختلف معارفه ، تشمل مجلدا يتضمن الخطابات التى تبودلت بينه عندما كان واليا على بيثينيا وبين الإمبراطور تراجان ، يحوى خطاب من بينها ، ما رواه بلينى عما فعله عندما قدم إليه بعض المسيحيين للمحاكمة (انظر الفصل الثامن) ويبرز من بين الكتاب الصغار كونتوس كورتيوس Q. Curtius الذى وضع تاريخا لفتوحات الإسكندر الأكبر ، وسيوتونيوس Suetonius وقد كتب تاريخا لسير الأباطرة الرومانيين يبدأ من يوليوس قيصر وينتهى بدوميشيان ، وقد لا يعد سويتونيوس من بين المؤرخين الكبار ، غير أنه حفظ لنا بالفعل معلومات ووثائق على شيء غير قليل من الأهمية ، فلقد يسر لنا أن نقرأ عن الاحتياطات التى اتخذها أوغسطس ضد الصواعق وعن طباع تيبريوس الذى كان عصبيا متبرما ، وأن نطلع على خطابات أوغسطس الخاصة إلى زوجه ، وإلى حفيده ، وإلى تيبيريوس ، وهى على أية حال معلومات طريفة إن لم تكن عظيمة الخطر .

غير أنه لا يبقى بعد هذا الكاتب الذى يعد من كتاب الدرجة الثانية ، وبعد ذكر الناقد الساخر جوفينال Juvenal إلا نفر قليل ، كانت هناك بعض المؤلفات النثرية القليلة ، إذ كان المحامون والعلماء اللغويون ما زالوا دائبين على حمل رسالتهم ، ولكننا لا نجد أثرا بعد ذلك لأى عمل مبدع فى الشعر أو النثر . لقد حلت برودة الشتاء بهذا الميدان أيضا . والواقع كما يخيل لنا أنه عندما انقضى القرن الثانى وتلاه القرن الثالث أى عندما حل الاضطراب والقلق محل الهدوء والاستقرار الكاذبين اللذين اتسم بهما عصر انتونينوس ، فإنه لم يعد هناك الكثير من الناس ممن كانوا فى حالة تسمح لهم بالإقبال على الأدب الجاد ، فقد كان العصر عصر ضنك وشدة ، ومن ثم كان الإقبال على قصص السير

والمعارف الشعبية والعلوم الغريبة وفلسفة السير ، وكان الهرب من الواقع إلى القصص الخيالية الرومانسية ذات النهايات السعيدة . ومن هنا ظهرت الرواية اليونانية ، التى كانت طليعة نوع أدبى عظيم ، صاغه وشكله مؤلفون روائيون مثل خاريتون Chariton وهليودوروس Heliodorus وأخيليس تاتيوس Achilles Tatius ولونجوس Longus وإيامبليخوس Iamblichus . وكان موضوعها ذلك الموضوع الذى كان مألوفا على مر العصور والأزمنة ، ولكنه لم يبلغ قط رغم طول عهده درجة من الابتذال تفقده قوة الإثارة إذا ما عولج معالجة صحيحة ، ألا وهو اللقاء الأول بين الحبيبين ثم الانفصال ثم الوصال السعيد فى النهاية : كان هذا هو الخيط الرئيسى فى الرواية ، غير أنه كان ينقطع بين حين وآخر بالمغامرات والأسفار والويلات التى يبتلى بها البطل فى البر والبحر بين القراصنة والبرابرة المتوحشين القساة ، وتتخلله فقرات تصف مشاهد دموية ، وتتردد فيه محاولات الأميرات الحاقدات والساحرات الفاتنات للإيقاع بالبطل وثنيه عن حبه الصادق ، بيد أنه مهما ادلهمت الخطوب وعظمت الأخطار تخرج البطلة سالمة ، وكيفما كانت ألوان الإغراء التى يتعرض لها البطل ، فهو دائما المحب المخلص الوفى . وقد يرى الكاتب أن تجرى وقائع قصته — درءاً للملل — بين مشاهد الخضرة والماء ، والغابات والينابيع والأغنام والماشية والقرويين الودعاء السذج ، إلى آخر ما يتصور ساكن المدينة المتحذلق أنه واجده فى الريف . ولقيت هذه الروايات ، رغم مجافاتها للواقع — وربما لهذا السبب ذاته — ذيوعا كبيرا ، وهيأت متنفساً مؤقتاً لكثير من الأنفس الموزعة الحائرة .

بيد أن الأدب لم يوجد فى الأصل إلا للملمين بالقراءة والكتابة . فما بالنا بمن لا يستطيعون أو لا يريدون القراءة ؟ كانت أمام الجماهير التى تعيش فى المدن الكبيرة أو حواضر الولايات المتوسطة ، الفرصة لأن يشاهدوا فى كثير من المناسبات عرضا للوحوش الكاسرة أو سباقا للعربات الحربية أو مباريات

للصارعين . قد يعترض دعاة الأخلاق عليها فيكتب سينيكا غاضبا وهو يقول: « إن الإنسان الذى يجب أن تكون له قدسيته لدى أخيه الإنسان ، نراه يقتل للهو والتسلية » . ووصفهم آخر بقوله : « إن هؤلاء الذين يقاتلون الوحوش يبدون وكأن لحومهم قد نهشت من قبل ، مثل أكوام من الجراح والأتربة والدماء ، فيذهب بهم الأمر إلى أن يلتمسوا منحهم الحياة حتى اليوم التالى ، رغم علمهم بأنهم سيلقون مرة أخرى إلى الأنياب والمخالب ذاتها » . بيد أن سخراً شنيعاً كان يحيط هذه الرياضة ، حتى أن مثل هذه المباريات الدموية المثيرة استمرت عدة قرون ، رغم أصوات الاحتجاج التى كانت تعلو بين الحين والحين ، وانتهى الأمر بأن ألقى أحد الرهبان المسيحيين بنفسه بين أنياب الوحوش الضارية كى يضع حدا للقتال ، وبذلك أفاقت مشاعر الجماهير والأباطرة إلى ضرورة وقفها . وذهب الأمر إلى أن أصبحت للمدن اليونانية والآسيوية مباريات للصارعين تقيمها بنفسها ، وكانت مثل هذه المباريات تجد من يظاهرها من الأدباء الذين كانوا يستخلصون منها آراء مطروقة مبتذلة تقول بأنها تقدم أمثلة على الرجولة والشجاعة والجسارة . بيد أن مدينة واحدة كان لها شرف الخروج على هذه القاعـــدة هى أثينا ، فعندما عرض البعض إدخال مباريات المصارعين ، تدخل الفيلسوف ديموناكس Demonax فقال : « عليكم أولا — وهذا أضعف الإيمان — أن تزيلوا المعبد المقام لإلهة الرأفة » . وكان بوسع الأباطرة والحكام والأثرياء من الموظفين أن يخطبوا ود الجماهير بإقامة مثل هذه المباريات ، حتى إن نهم الدهماء لها ازداد بازدياد ما يعرض عليهم ، وعندما قرر ماركوس أوريليوس تخفيض العدد القانونى للصارعين لقى الامتنان والشكر ، لا لسبب إلا لأنه خفف العبء عن خزائن الأغنياء !

غير أن هذه المباريات لم تكن تقام بكثرة ، ولذا فقد كانت هناك المسرحيات والتمثيليات الإيمائية . وكانت المسارح تقام فى شتى أنحاء ولايات الإمبراطورية ، الشرقية والغربيـــة ، بل كان لأقل المناطق مساحة مثل

« براو — أون — همبر » Brough-on-Humber (بالقرب من هل Hull بانجلترا) مسرح خاص بها . وكانت هناك أيضا الفرق المتجولة من الممثلين الذين كانوا يقومون باستعراضاتهم فى مراكز عدة ، وجماعات الممثلين المتنقلين ، وكانت تضم رجالا ونساء يقمن بالغناء والتمثيل والرقص فى حفلات تشبه حفلات « مسارح المتنوعات » المعروفة . وكان المصلحون الأخلاقيون يندون أشد التنديد بهذه المقطوعات الإيمائية ، كما كان الموظفون العموميون يندون « بالأفلام » ، بيد أنه لم يقم ثمة دليل على أن هذه المقطوعات كانت مخلة بالآداب أو ضارة بشكل سافر . وتدل بعض النقوش التذكارية على أن هؤلاء الممثلين ، شأنهم شأن غيرهم من المسامرين والفنانين ، كانوا ينشدون مقطوعاتهم ويؤدون أدوارهم ، ويدخلون السرور على النفوس البشرية ، ويتيحون للرجال والنساء الفرصة لأن يتناسوا لحظات من الزمن ، أعباءهم وهمومهم . ذلك لأن الاستعراضات والمهرجانات والمسابقات ليست بلسما شافيا للأعباء والهموم فحسب ، بل لمشاعر السخط أيضا ، ولا غرو فقد حرص الحكماء من الأباطرة على أن ينشئوا المهرجانات والمباريات فى المدن ، لأنهم كانوا يدركون تماما ما للأعياد والمهرجانات وألوان الترفيه من عميق الأثر فى نفوس البشر .

ومن بين ضروب الاستعراضات أيضا تلك المحاضرات التى كان يلقيها الأساتذة المتجولون ، وكان هؤلاء ممن يذيع صيتهم لبلاغتهم وسعة علمهم ، فيقومون بزيارة المدن ، وهى عادة ما تكون مدن اليونانيين العريقة فى آسيا الصغرى ، حيث يؤدون أدوارهم . ومن مشاهير هؤلاء المحاضرين ، اثنان هما ديو Dio (من بروسيا) المدعو «فم الذهب» الذى عاش فى أواخر القرن الأول ، وبداية القرن الثانى ، وأرستيديس Aristides (من أزمير Smyrna) وقد عاش فى النصف الأخير من القرن الثانى . وكان يستمع إلى هؤلاء نظرا لذلاقة لسانهم

اليونانى وإبداعهم فى إضفاء الرونق والجدة على الموضوعات المطروقة المبتذلة ، ونظرا لاختيارهم للمناسبات الاجتماعية الهامة لإلقاء محاضراتهم — جمهور كبير من المعجبين المتحمسين فى مدن مثل أثينا أو رودس أو أزمير أو برجاموس ، ممن كانوا ينصتون بآذان واعية مدققة وإن كان هذا لا يمنع أنهم كانوا يستمتعون بها ويتذوقونها فى شعور لا يختلف عن شعور رواد الحفلات الموسيقية عند ترحيبهم بعازف منفرد للبيانة أو عزف رباعى . لقد كانت هذه ألعابا نارية ، ولكنها كانت ألعابا نارية سامية مهذبة .

وبالإضافة إلى ذلك ، كانت أمام أهل المدن ، ضروب أخرى للهو . فمنذ عهد الأباطرة الرومانيون على توالى عهودهم إلى تزيين روما ، حاضرة الإمبراطورية ومقر الملك طوال قرون ثلاثة ، بحمامات هائلة رائعة ، ولم يكن بوسع المواطنين فى مثل هذه المبانى التى كانت تشبه الكاتدرائيات فى سعتها وضخامتها ، أن يغتسلوا فحسب ، بل كانت هناك الحجرات الملحقة الأخرى والقاعات الكبيرة والمدرجات الفسيحة حيث يمكنهم الاستماع إلى المحاضرات أو المقامرة أو النقاش ، أو لمجرد قضاء سحابة اليوم . وكانت للمدن الصغيرة بالولايات حمامات أيضا ، هى فى العادة منحة من مواطن كريم ، وقد تصل هذه إلى ما كانت عليه الحمامات التى ينشئها الأباطرة من أبهة وعظمة ، كما قد لا تعدو فى مظهرها الحمامات البسيطة المتواضعة . وكانت تقام فوق المبنى الرئيسى لهذه الحمامات ، مساكن للإيجار ، بيد أن الإقامة بها لم تكن تخلو من عيوب ، فإن الساكن الذى يروم الهدوء ليتفرغ لدراسة لابد أن تقلقه أصوات المياه المتطايرة والهمهمة والصفير الصادرين عن المستحمين فى الطابق الأرضى ، وربما أزعجته أكثر من ذلك ، الظاهرة المألوفة فى « غناء المستحم فى الحمام » .

أما الريف ، فقد كانت تنتشر فيه دائما رياضة الريف : السباحة والاستحمام والصيد (وخاصة صيد الخنازير البرية والذئاب) وصيد الصقر

والأسماك ، وكانت رياضة الصيد من الهوايات المستحبة لدى الأجناس الكلتية فى شمال إيطاليا وأسبانيا وبلاد الغال وبريطانيا ، وما زالت بين أيدينا وصية أحد النبلاء الغاليين يرجو فيها أن تحرق مع جثته كل أدوات الصيد التى كان يستعملها مثل الحراب والسيوف والسكاكين والشباك والفخاخ . وعلى الرغم من قسوة حياة الفلاح ، فإن هذه الدورة الشاقة الطويلة من حفر وعزق وحرث وبذر وحصد ودرس وتسوير وحفر خنادق ، كانت تقطعها من وقت لآخر الأعياد الموسمية والأسواق الريفية العظيمة فى أما كنها التقليدية . وكانت هذه الأسواق تضم فى أيام الأعياد تجار الخيول والبائعين الجائلين الذين يعرضون الأوانى والأوعية والمساحل والفؤوس وطرادات المحاريث ، كما تضم أطباء العيون وهم يصيحون معلنين عن عقاقيرهم ومراهمهم المحضرة (ولا ندرى كيف عرف صندوق من هذه الصناديق طريقه إلى جولدن فى كونتى تيبارى County Tipperary) كما كان يوجد أيضا الأراجوز بعرائسه ، والعرافين ومفسرو الأحلام ، ومختلف طوائف اللاعبين والمهرجين من راقصين وحواة وبهلوانات يمشون على الحبال (ومن الغريب أن أحدهم قد منح حقوق المواطنة فى دلفى) وفى ذلك المكان أيضا نجد الزحام والضجة والضوضاء والخلق الكثير والمتعة المعهودة فى الأسواق . وعند ما تنتهى الأسواق العظيمة تبدأ كل منطقة بإقامة ملاعبها ومهرجاناتها ، فتكون هناك السباحة والملاكمة والقفز ورمى الرمح والمصارعة « Corporaque agresti nudant praedura palaestrae »(١) وتختتم كل هذه الألعاب بالرقص والفكاهة ، حين تهتز الأرض لوقع أقدام الشباب . .

ويجدر بنا أن لا ننسى ونحن بصدد حصر ألوان التسلية والملاهى الشعبية ، حياة الأسرة . تكشف لنا المحاورات والكتب المدرسية عن جانب لا بأس

(١) « عندما تتعرى الأبدان القوية الصلبة للمصارعة الريفية » .

به من الحياة اليومية لدى الطبقات المترفة فى المجتمع ، وتختلط هنا مأثورات كراسات النسخ مع أحاديث الطلبة مع إرشادات الصغار حول الاستيقاظ فى الصباح والذهاب إلى المدرسة والقيام بالواجبات اليومية وتناول الطعام . يقول أحد الأشخاص : « سأذهب اليوم للغداء مع عضو فى مجلس الشيوخ سليل آينياس Aeneas وروملوس Romulus» ، ويصف آخر كيف أن أخاه قد تورط فى شجار وقع فى الحمامات « ويأسف من عدم قدرته على المجىء» . ويبدأ الصبى يومه على هذا النحو : « لبست حذائى وطلبت ماء لوجهى ثم غسلت يداى أولا ثم وجهى وجففته ، ثم ارتديت ميدعة نظيفة وذهبت مع معلمى لأقول : « صباح الخير » لأبى وأمى » . ويتناول الصبى غذاء بسيطا يتكون من الخبز الأبيض والزيتون والجبن والتين والبندق ولا يشرب غير الماء القراح .

وقد يخرج الكبار للتريض فى المساء ، فيلعبون الكرة (وهى تشبه اللعبة « الخماسية » الإنجليزية) التى أوصى بها غالين بوجه خاص منوها بفوائدها الصحية ، أو يتناظرون (وكانت المناظرة تعد نوعا من الرياضة) أو يتصارعون . فيقول أحدهم : «هيا بنا إلى جولة» فيرد الآخر بقوله : «الواقع أنى لا أعرف كيف أمارسها ، أعفنى منها بربك ، فإنى قد تركت المصارعة منذ زمن طويل . ولكنى مع ذلك سأحاول وربما استطعت . . . إن التعب يحل بى سريعا . دعنا نمرخ أنفسنا بالزيت» . وبعد الرياضة تقام المآدب بالطبع ، وكانت هذه فى بعض الأحيان تصل إلى درجة الولائم المغرقة فى الإسراف والشراهة ولو أن معظم هذه الولائم ما لبثت أن اختفت بعد موت نيرون . ولكن الغالب أنها كانت مآدب طيبة ، قد تبلغ فى بعض الأحيان حد البساطة المتناهية ، فتتألف من الخضروات والمشهيات والجبن والفاكهة ، وتتخللها المناقشات العلمية التثقيفية ، وقد تسمو وتعظم ، فتحوى أصنافاً متعددة يتم تناولها الصنف بعد الآخر ، علاوة على مجموعة مختلفة من الخمور . أما عن أنواع الصحاف المختلفة فيمكن أن نلم بها من كتاب الطهى لأبيكيوس Apioius الذى يكشف

عن كثير من الأطعمة التى كانت — أغلب الظن — شهية طيبة المذاق ، وإن كان بعضها يبدو غريبا ، وقلة منها جد منفرة (تبدو أوفق لقزان ساحرة ، منها لمائدة طعام) . ولكنه يبـــدو من خطابات بلينى وفرونتو Fronto أن البساطة والدماثة كان لهما فى أوساط المجتمع المتمدين وبين المثقفين الاعتبار الأول ، ولكنه لا يخفى أن هذه البساطة كانت فيما يظهر متكلفة مصطنعة . وكان بوسع الأثرياء والمترفين ومن كان لديهم الفراغ الكافى للتفكير والتدبر فى مأكلهم ، أن يخرجوا للرياضة قبل الأكل ويتغذون بالخبز الأبيض الرقيق مع الدجاج أو طيور الصيد (التى يوصى بها غالين) . ولكن على الرغم من وفرة واختلاف أنواع الأسماك واللحوم والخضروات والفاكهة والجوز ، فإن للأكولين من أبناء العصر الحديث أن يتذكروا أن السكر والموالح والبطاطس والطماطم والبن والشاى ، لم يكن لها وجود على الإطلاق ، وأن الزبد لم يكن يستعمل أصلا إلا لدى البرابرة ، وإن كان يدخل فى التذكرات الطبية ، على حين أن القارئ الإنجليزى قد لا يتصور كيف كان يعيش الساسة الرومانيون دون طباق أو نبيذ أو « براندى » .

بقيت نقطة أخرى سنذكرها فى إيجاز ، وهى حب الرومانيين للحدائق والأزهار . فنى قلب المدينة نفسها كان الفقراء من السكان ، ممن لا يملكون أرضا خاصة بهم ، يعرضون الورود والزهور البهيجة فى أصص بنوافذهم . كما كان فى وسع أهل الريف أن يزرعوا مخصصاتهم من الأراضى بالأزهار والبنفسج والزعفران والسوسن ، ويجب أن يتم هـذا كله فى شهر فبراير كما يشير العارفون . وكان يراعى فى تخطيط هذه الحدائق قواعد معروفة لم تمهدها عين الرائى الإنجليزى ، إذ كانت الخضرة والنخيل تختلف مع الأزهار والشجيرات فى نسق بديع رائع ، وكانت توجد فى الغالب الممرات الممهدة ، وأحواض الزهور والتماثيل والنافورات ، وربما وجد معبد صغير ، أما حدائق

الأثرياء فكانت تشبه تلك الحدائق الرسمية العظيمة التى عرفها القرنان السابع عشر والثامن عشر .

إلى هنا لم نذكر شيئا عما نسميه عادة بالفن ، أى فن التصوير والنحت والرسم الزيتى والتشكيل والحفر . والحقيقة أنه رغم أن زمن الخلق والإبداع ذهب وولى ، فقد بقى هناك بعض الصناع ممن تبوءوا مكانة مرموقة وظهر أثرهم فى روح العصر . وحسبنا أن نلقى نظرة واحدة إلى الجواهر وقطع النقود التى سكت فى القرنين الأول والثانى حتى عهد ماركوس أوريليوس لنتأكد من أنه كان فى مقدور فنانى العصر أن يعبروا عن ذواتهم تعبيراً سليما ، فى مجال قوة الخطوط وجمال الشكل . كان فى وسع الأباطرة مثل نيرون وهادريان أن يطلبوا حاجتهم من مشاهير الفنانين المبدعين ، أما الأثرياء غير المثقفين ممن كانوا يرغبون فى تزيين دورهم وقصورهم « بالرخام » وبنسخ من التماثيل الشهيرة فكانوا يجدون حاجتهم لدى نساخين أكفاء مقسطين ، وكانت هناك مصانع فى عدة مراكز مثل أثينا ، تقوم بمهمة صنع مثل هذه النسخ وتوريدها . وتشهد اللوحات البارزة والصور المحفورة التى تنسب إلى المراكز الفنية فى شمال الغال ونيوماجن ، والتى كانت تصور مختلف مشاهد الحياة اليومية فى الإقليم ، مثل مرور الصنادل البحرية فى مجارى الأنهار العظيمة أو عودة التجار من المدينة على صهوات جيادهم إلى قصورهم الريفية أو جانب من الحياة المدرسية أو عمال يفلحون الأرض أو سائس يخرج بجواده للتريض أو مستأجر يدفع الإيجار ، تشهد على ما كان فى الإمكان القيام به من أعمال قوية معبرة حتى ذلك العصر . وكان فى وسع أصحاب الأراضى الأثرياء فى مقاطعة نائية مثل مقاطعة بريطانيا الرومانية ، أن ينقدوا ثمن الأعمال الفنية الكبيرة ، ولو أنه من غير المقطوع به أن هذه الأعمال كانت من صنع الفنانين المحليين . وتعرض لنا أرضية مرصعة بالفسيفساء وجدت فى هوركستو Horkstow بلنكولنشير Lincolnshire ،

صورة مثيرة لسباق العربات الحربية ، تندفع فيه العربات بسرعة قصوى ، ويستحث فيه الراكبون المتحمسون جيادهم بينما نرى إحدى العربات قد انفصلت عجلتها وأوشك قائدها على السقوط من فوقها ، وتصور أرضية أخرى عثر عليها مؤخرا فى لوهام Low Ham بسمرست Somerset سلسلة كاملة من المشاهد التى تصور وقائع إنيادة فرجيل ، فى الجزء الخاص بقصة حب ديدو وآينياس . وتدل شواهد القبور أيضا وبعض أجزاء التماثيل التى عثر عليها فى بريطانيا ودالماشيا وداكيا على أنه كان بوسع الفنانين المحليين والوطنيين أن يبثوا فى النماذج التقليدية نفسها واقعية بشمة وطابعا مخيفا . غير أن غزوات البرابرة فى القرن الثالث أدت إلى أضرار كبيرة ، وبحلول القرن الرابع انخفض عدد الصناع المهرة المدربين ، ولهذا لم يكن « قوس قسطنطين» فى روما عملا جديدا كله ، لأن كثيرا من لوحاته البارزة قد أخذت من آثار قديمة .

بيد أنه يجدر بنا قبل أن نترك الحديث عن موضوع الصور الزيتية واللوحات البارزة وفنون النحت وبخاصة تلك التى تتعلق منها بتصوير المشاهد الأسطورية أو الخرافيــة ، أن نلفت نظر القارئ إلى أن الجانب الأعظم منها يدخل فى العصر الحديث فى عداد الصور الخليعة أو المخلة بالآداب . ويتعذر الآن عرض الجانب الأكبر من اللوحات الزيتية والرسوم التى عثر عليها فى بومبى Pompeii (على سبيل المثال) ، على الجمهور للسبب ذاته . بيد أن سكان الإمبراطورية الرومانيــة كانوا قد نشأوا بينها وألفوها ، ولذا يجاهر أحد الشبان المحببين فى إحدى المسرحيات الكوميدية بقوله : « إذا كان جوبتر قد فعل ، فلماذا لا أفعل أنا ؟ » وكان من حق أهل الرأى والعلماء آنذاك أن يفخروا بأنهم لم يسمحوا بدخول هذا الصنف من الصور إلى بيوتهم ، ولكنه يجب أن نضع نصب أعيننا الحقيقة الماثلة فى أن هــذه الصور والتماثيل كانت ذائعة ذيوعا منقطع النظير ، وذلك إن كنا نريد أن نرسم فى أذهاننا صورة صحيحة لحضارة العالم القديم .

وإن كنا نريد أن ندرك تماما مدى غيرة المسيحيين واستماتتهم فى مناهضتها .

أما عن الفنون من الدرجة الثانية ، فقد تغبط الأسر الثرية نفسها على امتلاك أطقم الموائد الفضية والتماثيل الصغيرة التى كانت فى الغالب بديعة النقش دقيقة الصنع ، تمثل الآلهة والآلهات والجنود والملاكين ، والجياد والفرسان . وليقنع من لا يرتقوا إلى مثل هذه الدرجة من الثراء بالزهريات والأوانى الفخارية التى تصور هيئات دقيقة مضحكة لسكان المستعمرات والأعيان مثل تلك التى وجدت فى كولشستر Colchester أو لوحات النذور ، على حين أن فى وسعهم شراء المناظر التى تتفق وأذواقهم والتى تزدان بها الزهريات الكبيرة الأعظم زينة ، فأمامهم مشاهد الصيد والقنص وأمامهم صور المصارعين والمجالدين (وهى أصلح المناظر دون شك لقاعات طعام الجنود أو دور النبلاء بالريف) والمشاهد المأخوذة عن الأساطير وقصص الأسفار والرحلات . وقد يعود المريض بعد شفائه برسم يصور قدرة المياه المعدنية على الشفاء ، كالميدالية الذهبية الرشيقة التى عثر عليها فى أسبانيا والتى كتبت عليها عبارة تقول « أوميرى من أجل الصحة » وتصور مريضا فى مراحل علاجه المختلفة . وكان على الأسر الفقيرة أن تقنع بالأوانى الفخارية غير المصقولة ، ومما يذكر أن أرق الناس حالا كان يستخدم فى القرن الثانى الأوانى الزجاجية التى أصبحت زهيدة الثمن . إذ يقول أبياخوس فى دفاعه عن نفسه أمام المحكمة : « إن الأوانى التى تستعملها مصنوعة من الزجاج ، لأننا أسرة فقيرة تعيش فى أحد الأكواخ » . وكان بكل ولاية من الولايات المحال والأفران الخاصة بصناعة الأوانى الفخارية ، وكانت هذه تسد حاجة الاستهلاك المحلى ، غير أنه قد يحدث فى بعض الأحيان أن تؤدى جودة المنتجات إلى تصديرها للأسواق الخارجية ، وهكذا نجد أنه على الرغم من أن فخار بلاد الغال استأثر بكثير من الأسواق خلال القرن الأول إلا أن فخار مصانع رينلاند Rhineland ما لبث أن طغى عليه ، بل إن المصانع

البريطانية (فى كاستر بالقرب من بيتربره Peterborough على سبيل المثال) كانت تنقل منتجاتها فى بعض الأحيان إلى ما وراء بحر المانش .

وإذا ما استعرض المرء ميدانى الأدب والفن خلال القرون الثلاثة من عمر الإمبراطورية ، فإنه لا بد وأن يشعر بشعور لايلبث أن يزداد رسوخا وعمقا، بأن قوة الإبداع والخلق لا تعتم أن تتوارى ويأفل نجمها بانقضاء عهد هادريان أو فيما بعد منتصف القرن الثانى . فينعدم أثر الكتاب البارزين والفنانين الكبار ، وإن ما نجده لا يخرج عن كتاب متمرسين يخرجون السير التاريخية أو يؤلفون الروايات الخيالية أو يضعون الكتب العلمية الفقهية أو الدراسات الأثرية واللغوية . وقد يدل ذلك على ذيوع الثقافة بدرجة ما ، وعلى زيادة عدد الملمين بالقراءة والكتابة ، بيد أنه لا يدل على عصر أصيل الإنتاج . كان فى وسع الأباطرة وكبار موظفى الحكومة والأثرياء ، دون شك ، أن ينقدوا أمهر الصناع ، أما سائر الخلق فهم قانعون بالنسخ الملساء الناعمة للروائع الفنية المعروفة ، وإن لم يكن فبالدمى والعرائس ، أما فى الولايات القصية فقد كان فى وسع الفنانين المحليين والوطنيين الذين لم يكونوا مقيدين — بدرجة كبيرة — بالقواعد والأسس التقليدية أن يصوغوا أعمالا فنية تمتاز بالقوة وروعة التصميم وقد حققوا ذلك بالفعل . ولم تكن ازمات القرن الثالث وتقلباته قد ولدت بعد ذلك الأسلوب الجديد فى النحت والهندسة المعمارية الذى قدر لبيزنطة أن تبلغ به غاية ازدهاره . وما تأتى بالفعل هو توفر مستوى عال من الكفاءة الفنية ، فقد أخذ الفنانون والصناع الذين تدربوا على التقاليد الدقيقة السليمة فى الانتشار التدريجى فى مختلف الولايات . بيد أن ذلك ليس مما يعيب هذا العصر ، ففترات النشاط الجارف الأصيل الخلاق نادرة عرضية فى التاريخ . وتتخلل هذه الفترات ، حقب يبدو فيها الفن وكأنه قد حط رحاله وقعد عن التقدم ، ولكنه لا يكون فى الواقع إلا فى فترة يستجمع فيها قواه وخبراته تأهبا للمستقبل . ويبدو أن مثل هذه الحقبة من السكون والهجوع

قد حلت بالإمبراطورية آنذاك ، بيد أنها لم تكن بحال فترة تخلف وتدهور . لم يكن هناك فقر فى الرجال الأكفاء المتمرسين فى البداية ، بل كان الفقر فى الأفكار التى من شأنها أن تلهمهم وتثير أخيلتهم . لقد بدا كما لو أنه ليس فى الإمكان أحسن مما كان ، وأن لا جديد تحت الشمس . بيد أن ثمة طائفة من الناس كان لديها هذا الجديد ، وهو الفكرة الموحية الخلاقة ، ألا وهم المسيحيون. ولكن نظرا لأنهم كانوا موضع شك وريبة ، وكانوا غير محيطين فى البداية إحاطة وافية بالأدب القديم ، فإن من كان قادراً منهم على الكتابة شغل فى الغالب بإنتاج أدب التسويغ والتبرير وتدبيج الكتيبات فى الدفاع عن العقيدة . ولكن يندر أن يأتى الدفاع عن صحة العقيدة والدين بأدب عظيم ، ولا تستثنى من هذه القاعدة تلك الكتيبات الأولى فى الدفاع عن الدين المسيحى . ولعل عالم الإمبراطورية الرومانية قد بالغ فى تقديره لمكانته الذاتية وفى الركون إلى السكينة والدعة والأخذ بأسباب التمتع فى تكاسل واسترخاء ، بأشعة الشمس الغاربة التى سبق أن أشرقت على القرنين الأول والثانى . ولعله كان فى حاجة إلى وطأة الغزو وإلى الشعور بخطر محدق لكى تتحفز شعوبه إلى العمل الخلاق . وعلى أية حال فإن دلائل النشاط الحيوى فى الأدب والفن لم تظهر إلا بعد عام ٢٦٠ مباشرة ، حينما كان ظاهر الأمور يبدو معتما حالكا .

الفصل السابع
ثروة الإمبراطورية
التجـــارة والأسفـــار

رغم ما كانت عليه الإمبراطورية الرومانية من اتساع وامتداد ، فلم تكن أى من ولاياتها تكاد تتمتع بالاكتفاء الذاتى ، أما عن بعض السلع المعينة ، مثل الأحجار الكريمة والتوابل والعقاقير والحرير ، فكان اعتمادها فيها على الشرق الأقصى على حين أنها كانت فى الغالب تستمد حاجتها من الرقيق والجلود من البرابرة الشماليين . بيد أنه كان فى وسع أى إقليم من الأقاليم أن يوفر لنفسه بوجه عام المواد الغذائية الضرورية كالقمح والخضروات والدهون واللحوم والزيت والنبيذ والفاكهة التى تعتبر غـذاء مألوفا لسكان منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وفى استطاعة المال أن يأتى دائما بالأطايب النائية التى يتوق إليها الأكولون ، من تين وبلح من سورية ، وسمك التونة من البحر الأسود والسجق ولحم الخنزير من كل من الغال وأسبانيا ، والمحار من بريطانيا . ورغم ذلك ، فالأمر متوقف إلى حد بعيد على المحصول السنوى ، وشبح المجاعة لا يزايل البـــلاد قط (انظر الفصل الرابع) ، وهى التى يترتب عليها — بغض النظر عن أى شىء آخر — ارتفاع الأسعار ، ولو أنه بوسع الحاكم المتيقظ فى هذه الحالة أن يتدخل فى سبيل الصالح العام بفرضه رقابة مؤقتة . ففى آسيا الصغرى قرابة عام ٩٣ عندما علم أنتيستيوس رستيكوس Antistius Rusticus حاكم الولاية من المجلس البلدى « لأنتيوخ بالقرب من بسيديا » Antioch-by-Pisidia بأن أسعار القمح ارتفعت نتيجة لقلة المحصول

وما ترتب على ذلك من التعجيل بتخزينه ، أسرع بإصدار مرسوم يقضى بأن يقدم كل فرد من السكان بيانا فى خلال ثلاثين يوما إلى الموظفين العموميين بكمية القمح التى فى حوزته ومكان تخزينها ، على أن يسمح له بأن يحتزئ من هذه الكمية القدر الكافى للبذر ولسد حاجته الخاصة ، أما الباقى فيجب أن يعرض للبيع بالأسعار الجبرية ، وقضى المرسوم بأن حرية الأسعار لن تعود حتى أول شهر أغسطس ، وهو التاريخ الذى يمكن فيه بالطبع معرفة نتيجة محصول السنة الجارية . ونص المرسوم على العقوبات التى توقع فى كل حالة من الحالات ، واختتم بالفقرة التالية : « ولما كنت قد أبلغت بأن أسعار القمح كانت قبل هذا الشتاء الطويل القاسى هى ٨ و ٩ آسات asses للكيل modius ، ولما كان من غير الإنصاف فى شىء أن يجتنى مواطن ربحا يكون من شأنه تجويع إخوانه المواطنين ، فإنى أحرم زيادة سعر القمح عن سيستيرتيوس sestertius واحد للكيل » . ومن السمات المميزة الهامة لهذا المرسوم تلك الدعوة الظاهرة إلى العدل والتعاطف بين المواطنين ، أما عن السعر فقد كان السيسترتيوس يساوى أربعة آسات ، وعليه فإنه تقرر أن يباع القمح بسعر يقل إلى حد كبير عن السعر العادى . وهذا مثل على التدابير التى كان بوسع الحاكم أن يتخذها للتحكم فى الأسعار .

وإذا غضضنا النظر عن فترات القحط التى قد تقع بين وقت وآخر ، فقد كانت المدن الكبيرة وحدها هى التى تتطلب إمدادا منتظما من القمح . وثمة مشكلة تموينية حيوية كانت تعترض الحكومة ، وهى السبيل إلى توفير القمح للجيش وفى هذا ما يكشف عن الأسباب التى دعت إلى السماح بأداء الضرائب على صورة مواد غذائية ، بعد أن اختلت سبل النقل اختلالا كبيرا فيما بعد عام ٢٥٠ ، كما يوضح لنا سر اللهجة القاسية البربرية التى تحدث بها مرسوم دقلديانوس الصادر فى عام ٣٠١ (انظر الفصل التاسع) عن هؤلاء الذين يغبنون بالأثمان الباهظة الجندى المدافع عن الإمبراطورية .

ورغم أنه كان فى مقدور معظم الأقاليم الوفاء بضرورياتها الخاصة المباشرة، فقد كان ثمة عاملان شجعا وساهما فى زيادة الإنتاج والنشاط التجارى فى مدى قصير فى ظل سلام الإمبراطورية الوارف، ألا وهما الارتفاع المطرد لمستوى المعيشة (الذى كان من شأنه أن يحيل كماليات جيل من الأجيال إلى ضروريات للجيل الذى يتلوه)، وكثرة مطالب النظام المركزى للإمبراطورية. كان الكهرمان نادراً باهظ الثمن فى العصر الجمهورى، ولكنه ما لبث أن أصبح فى وسع زوج أى فلاح يعيش فى شمال إيطاليا، بعد مضى مائة سنة، أن تنهض بثمن عقد الكهرمان الذى تزين به جيدها. وكان على روما أن تستورد معادن الذهب والفضة والنحاس اللازمة لسك عملاتها. كما أن السبائك اللازمة لتطرية وتصليب المعادن المستخدمة فى صناعة الأسلحة والكتان والصوف اللازمين لنسج الأقمشة وإعداد أزياء الجنود، والجلود الخاصة بالخيام والأحذية، يتحتم الحصول عليها من مختلف الولايات. وفضلا عن ذلك فقد سلم العمل فى المناجم والمحاجر والعمل اليومى فى فلاحة الحقول والمزارع، كما سلم النشاط التجارى والسياحى العادى من عوائق الحروب وما تجره من تخريب وتدمير. وكانت قد مضت أجيال لم يسلم فيها جزء واحد من حوض البحر الأبيض المتوسط من مصائب الحروب وويلاتها، وقد عاد سلام أوغسطس بالهدوء والراحة لا لمدة عشرة أعوام أو عشرين عاما فحسب بل لقرن كامل، لأن إيطاليا والولايات لم تشعر قط بوطأة الحرب حتى عامى ٦٩ — ٧٠، وبعد ذلك التاريخ كان لها أن تنعم بالسلم قرناً آخر. ولعل جيلنا الحالى الذى عرك الحروب واكتوى بنارها أقدر على إدراك معنى سلم أوغسطس الثابت القوى الدعائم. قد تنشب بين حين وآخر ثورات محلية، كقيام ثورة فى بريطانيا أو فى بلاد الغال أو أخذ بالثأر فى أسبانيا أو قد يثير أحد رؤساء العشائر المتاعب فى إفريقيا، غير أن هذه جميعها لم تكن تعدو اهتزازات طفيفة فى سطح هادئ ساكن. يؤكد لنا

الكتاب المعاصرون أن الحرب قد اختفت تماما من حياة الإنسان ، أما عن مصادر القلق الأخرى كالقرصنة أو حوادث السطو أو الحكومات الفاسدة ، فقد قضى على جانب كبير منها . وكان لاستتباب السلم والقضاء على البطالة أن أزيلت بعض الأسباب الداعية إلى القرصنة ، كما كان من السهل قمع الثورات المنفرقة (كتلك التى وقعت فى خلكيدونية Chalcedon قرابة عام ٤٠) ، وكانت أساطيل الإمبراطورية الصغيرة تجوب الأنهار والمياه الساحلية بصفة منتظمة لحفظ الأمن (انظر الفصل الثانى) . كما قلت أيضا حوادث قطع الطريق للأسباب السالفة ذاتها ، فيما عدا المناطق الموحشة والجبلية الوعرة — وإن شواهد القبور القليلة التى عثر عليها فى البلقان والتى تنبىء بمقتل أصحابها على يد قطاع الطرق (فيقول ابن عن أمه : قتلها اللصوص وثأرت لها ! لا تمثل فى الواقع طبيعة الأحوال السائدة فى كافة أنحاء الإمبراطورية . وكان من دأب الحكومة أن تعين ، درأ لهذه الأخطار التى تهدد سير الحياة الهادئة المنتظمة ، فرقا صغيرة من الحاميات (تحت قيادة قائد مائة فى الغالب) للمرابطة فى مدن الأسواق أو فى المراكز التجارية ، بل كانت ترسل جماعات من المحاربين القدماء للإقامة فى المناطق المضطربة أو التى يشك فى ولائها . بيد أنها لم تكن تقدم على ذلك إلا فى أضيق الحدود ، كما لم تستجب إلى جميع الطلبات وإن ازدياد عدد الجنود المرابطين stationarii وموظفى البوليس (circnarchai إزديادا بينا بعد الربع الأول من القرن الثالث لدليل قاطع على اضطراب الأحوال وقلق الحكومة .

وأخيرا ، فقد بلغت أداة الحكم بوجه عام مستوى عاليا من الكفاءة والنزاهة ، رغم أن ذلك قد يصدق على الولايات الخاضعة للإمبراطورية بدرجة أكبر مما يصدق على الولايات التابعة لمجلس الشيوخ . وبدا كما لو أن مثل ذلك الفساد وتلك الرشوة التى لطخت حكم بيلاطس البنطى Pontius Pilate أو ولاية

فيلكس Felix على اليهودية Judaea أو عهد ماريوس بريسكوس Priscus فى إفريقيا عام ١٠٠ ، قد قضى عليهما تماما ، فقد كان فى وسع أهل الولايات على أية حال أن يعلنوا عن شعورهم فى المجلس البلدى (انظر الفصل الأول) كما لم يكن الأباطرة يتهاونون مع الحكام الخونة أو الفاسدين . وكان هناك بطبيعة الحال ولاة يفضلون غيرهم ، فقد قيل عن أحد ولاة بيثينيا Bithynia فى منتصف القرن الثالث : « لم تكن الولاية بحاجة إلى قوة مسلحة بل كانت تفتقر إلى الحاكم العادل البصير الذى لا ترتقى إليه الشبهات . وقد اجتمعت هذه الصفات فى يوليوس سيفيروس Julius Severus ، إذ حكم الولاية ودبر شئونها فى حياتها العامة والخاصة ، بصورة طيبة حدت بنا إلى أن نلهج بحمده حتى هذه الساعة » .

ولقيت التجارة فى ظل هذه الأحوال السلمية ، أعظم الرواج . وفى وسعنا الوقوف على بعض الفوارق الاقتصادية التى تميز الشرق عن الغرب ، ففى الشرق كانت تقع الولايات ذات الحضارات العريقة والمراكز الصناعية والتجارية العظيمة ، كالإسكندرية وأنطاكية ودمشق وطرسوس وأزمير وبرجاموس وتسالونيكا وكورنثوس ، على حين أن عدة مدن سورية كانت تمثل المحطات النهائية لطرق تجارية طويلة آتية من الشرق الأقصى ، أما الولايات الغربية فلم يكن لها مثل هذا العدد من المدن العريقة أو المدن الكبيرة ، بيد أنها كانت غنية بالمواد الخام وخاصة المعادن ، وبحلول القرن الثانى ظهرت على المسرح منطقة جديدة هى المنطقة الشمالية الشرقية ، ومن ثم أخذت بلاد بانونيا وموزيا وداكيا (وهى أراضى الدانوب الحديثة) فى المساهمة بذهبها وفضتها وملحها وأخشاب غاباتها وقمح سهولها فى البناء الاقتصادى للإمبراطورية . ويتعذر فى مثل هذا العرض الموجز أن نحصى جميع المنتجات فى الولايات المختلفة ، بيد أن نظرتنا الخاطفة التالية ستكشف عن بعض المعالم الهامة البارزة .

لم تبدأ بريطانيا جديا فى دفع التكاليف التى تكبدتها روما لغزوها وإقامة الحاميات بها إلا بعد أن أوغلت فى القرن الثانى . كان إنتاج مناجم الرصاص فى بريطانيا محدوداً أول الأمر نتيجة للقيود التى فرضها أصحابها من الأسبان ، ولم تبرز فى الواقع أهمية هذه المناجم إلا عندما بدأ إنتاج أسبانيا من الرصاص فى الهبوط وذلك فى عام ٢٥٠ على وجه التقريب . بيد أن الرصاص والحديد كانا متوفرين فى بريطانيا ، كما ازداد العمل فى صناعتهما زيادة مطردة فى أواخر القرن الثانى وطوال القرن الثالث ، وكان الرصاص يستخرج من منديبس Mendips فى فلنتشير Flintshire ودربيشير وفى يوركشير وبناينز Pennines بالقرب من ألستون Alston أما مراكز صناعة الحديد الرئيسية فكانت تقع فى ويلد Weald بمقاطعة ساسكس Sussex وفى فورست أوف دين Forest of Dean وكان فى الإمكان استخراج الفضة من الرصاص بصهره وتنقيته . وكان هناك عدد من مصانع الفخار المحلية لا يقع تحت حصر ، ولكن الفخار لم يكن يصدر إلا فى القليل النادر . كانت صادرات بريطانيا الرئيسية هى الصوف والسلال ثم القمح فى الفترة الأخيرة ، بالإضافة إلى الحديد والرصاص ، ويحتمل أن يكون الرومان قد أفلحوا فى تصريف المياه بالأراضى الواطئة بشرق أنجيليا Anglia لزراعة القمح .

وكان فى حوزة الولايات الغالية (وكانت تشغل على وجه التقريب فرنسا وبلجيكا الحاليتين) النصيب الوافر من المعادن ومن الحديد والنحاس والقصدير ومن الفضة غير أن أهميتها الاقتصادية تكمن بوجه خاص فى ناحيتين ، إنتاجها الزراعى والصناعات القائمة بها . فكانت ولايات الغال تصدر من الشمال القمح والنبيذ والزيت واللحوم المجففة والسجق ولحم الخنزير والجبن ، وتصدر التين والكريز الوارد من الجنوب . وكانت الأقاليم الشمالية بأغنامها وقطعانها تنتج المنسوجات الصوفية بكميات هائلة فى صورة عباءات ومعاطف وأغطية . أما

فى الصناعة فإن فخارى جنوب شرق الغال استأثروا إلى أبعد حد بأسواق الغرب فى القرن الأول ، وكانوا يصدرون منتجاتهم بالفعل إلى إيطاليا ، غير أن منتجى رينلاند ما لبثوا أن تغلبوا عليهم ، وكان لهؤلاء مراكز فى كولون وتريفيس . كما تأسست صناعة الزجاج (وربما على أيدى المهاجرين السوريين) فى نورماندیا ، ثم بعد ذلك فى وادى الرين .

ولكنه لا نزاع فى أن أعظم الولايات الغربية قيمة كانت تلك المنطقة التى تشغلها فى الوقت الحاضر أسبانيا والبرتغال ، والتى كانت تتألف من ثلاثة أقسام هى بايتيكا Baetica وتراكونيزس Tarraconensis ولوزيتانيا Lusitania فهناك كانت تكمن ثروة معدنية مذهلة . لقد كتب بلينى الأكبر عنها يقول : « إن كل أسبانيا تقريبا تفيض بمناجم الرصاص والحديد والنحاس والفضة بصفة رئيسية من المناطق الجبلية الواقعة فى الجزء الشمالى الغربى ، كما اشتهرت فضة أسبانيا بأنها أغلى وأرقى أنواع الفضة . كما عثر على الرصاص بكميات وافرة ، وجرى تصديره على نطاق واسع ، غير أن اكتشاف الرصاص فى بريطانيا ، قريبا من السطح بالفعل ، أدى إلى استصدار قانون فى صالح الأسبان ، يقضى بتحديد الكمية المستخرجة من الرصاص فى بريطانيا . كما اكتشف القصدير أيضا بكميات وافرة فى أسبانيا ، بيد أنه ما لبث أن أفسح مكانه للقصدير البريطانى . وأغلب الظن أنه قد اشتط فى استغلال الرصاص والقصدير خلال القرنين الأول والثانى وأنه عندما نضب معين المناجم الأسبانية أو توغلت آبارها إلى مسافات بعيدة فى الأراضى غدت المناجم البريطانية تدر ربحا وفيراً . وكان الحديد يستخرج بكميات كبيرة فى الجزء الشمالى الشرقى ، كما كانت الأسلحة والسكاكين المصنوعة فى أسبانيا تلقى رواجا كبيراً . وكانت أسبانيا تصدر — بالإضافة إلى ذلك — القمح كما نال نبيذها وزيتها ، وخاصة ما كان يرد منهما من الجنوب (بايتيكا) ، ثناء العارفين . وقد أكد أحد الكتاب « أن

أسبانيا تتميز بوفرة محاصيلها من مختلف أنواع الفاكهة إلى الدرجة التى لا تكفل لها لحسب الوفاء بحاجة سكانها ، بل تكفى لسد حاجة إيطاليا وروما أيضا . ولا زالت بعض الآثار المادية لتجارة الصادرات الهائلة هذه ماثلة فى التل العجيب الواقع بالقرب من روما الذى يسمى Monte Testaccio (تل الفخار) والذى نشأ عن مجرد تكديس بقايا الأوعية الفخارية والجرار الواردة من مختلف البلاد . ويمكن أن نضيف إلى هذه القائمة ، الفلين والأصباغ والعقاقير على اختلافها والعسل والأسماك . ولقد عدت أسبانيا بحق أهم أجزاء الإمبراطورية وأعظمها قيمة ، نظرا لأن مناجمها كانت تخضع لإشراف الموظفين الماليين فى الإمبراطورية ، ونظرا لأن ضياعها الشاسعة كانت فى حوزة الأباطرة أو غيرهم من أصحاب الجاه ، فضـــلا عن مواردها الطبيعية العظيمة .

وكان للسهل الساحلى الإفريقى الممتد أهمية أيضا ، لأنه كان فى طريقه إلى أن يصبح مخزنا ثانيا لغلال روما ، كما أخذت ضياعه الواسعة تدخل الواحدة بعد الأخرى فىحوزة الإمبراطور . وثمة عادة كانت سائدة فى هذه الضياع ـ كما أشرنا من قبل (انظر الفصل الخامس) وهى أن يطلب السيد من الفلاحين المستأجرين أن يعملوا فى زراعته لعدد معلوم من الأيام دون أجر ، كأن يطلب يومين فى موسم البذر ويومين فىموسم الحصاد ويومين فى موسم الحرث ، وهى العادة التى قدر لها أن تنتشر فى بقاع أخرى وتتطور تطورا كبيرا . ولكن ليس فى استطاعتنا فى هذا العرض الموجز أن نتناول هذه التطورات جميعها ، وإلا أغفلنا ما هو أهم مثل الحديث عن الذهب والفضة التى تستخرج من مناجم الألب ، أو الحديث عن صناعات الحديد فى نوريكوم Noricum أو محاجر الرخام فى اليونان أو ضياع الأناضول الشاسعة ، أو محاصيل الغلال الهائلة فى مصر ، التى كانت لها أهمية حيوية بالنسبة للإمدادات الخاصة بروما من المواد الغذائية ، أو عن أحجار الحية والسماق والصوان التى كانت تجلب

من محاجر مصر ، والتى كان مآلها تزيين قصور الأثرياء فى إيطاليا وأوربا الغربية . ولننتقل من الحديث عن الوفرة البدائية فى الولايات الغربية إلى الحديث عن صورة هى على النقيض من ذلك فى سورية .

ونضم إلى سورية أراضى فلسطين وشرق الأردن الجنوبية . لأن هذه المنطقة الممتدة من الأراضى تمثل فى مجموعها على نحو ما وحدة واحدة ، فى امتدادها من شاطئ البحر بمرافئه العديدة وارتفاعها التـــدريجى حتى شوكة السلاسل الجبلية ، وبما يقطعها من الأنهار والوديان الخصيبة ، حتى تصل إلى صحراوات الشرق الجرداء . ولم تكن بهذه المنطقة أية ثروة معدنية ذات بال باستثنـاء بعض الحديد الذى كان يستخرج من أقاصى الشمال ؛ أما قطعانها وماشيتها فلم تكن لتبارى مثيلاتها فى بلاد الغال وأسبانيا ، ومع ذلك فقد كانت سورية بالغة الأهمية من الناحية الاقتصادية . كانت أنطاكية تمثل مركزاً اقتصادياً يقف على قدم المساواة مع مركزى روما والإسكندرية ، أما مدن سورية الأخرى مثل دمشق .وبيروتوس Berytus وأباميا Apamea وبيبلوس Byblus ولاوديكية Laodicea وصور وصيدا ، فقد كانت لها علاقات تجارية ترجع إلى قرون مضت . وكانت غابات لبنان الشهيرة مصدراً لخشب الأرز الذى كان يخصص لبناء الأساطيل الرومانية . وكان للريف محاصيله من التفاح والكمثرى والبرقوق والتين والرمان والبلح والعنب والزيتون ، وحقوله من القمح والشعير والعـــدس والفول . وكتب جوزيفوس يقول : « إن الجليل Galilee غنى وخصب ، تنبت فيه الأشجار من مختلف الأنواع ، وليست به بقعة واحدة لا تفلح » . كما اشتهرت دمشق بالفواكه المجففة . وكانت هناك مصانع لنسج الكتان السورى فى صورة عباءات وأردية فى لاوديكية وبيبلوس وبروتوس وصور ، كما كان الحرير المستورد من الصين يجرى نسجه فى المدن أيضا أثوابا مترفة تصدر إلى الغرب . واشتهرت صور وصيدا بصناعة الزجاج ،

نظرا لنوع رمالها الفريد ، وكانت تحفها التي يمهرها بأسمائهم صناعها العظام من أمثال أرتاس Artas وإينون Ennion تصدر إلى قبرص وروسيا الجنوبية وإيطاليا والغال وأسبانيا . وعرفت العطور والعقاقير أيضا طريقها إلى الغرب، من هذه المدن الصاخبة .

كانت هذه هي المناطق ذات الأهمية الاقتصادية في الإمبراطورية . وكان نقل البضائع من جهة لأخرى ميسورا قليل التكاليف ، وهكذا كان أيضا انتقال الأفراد . فلم تكن هناك حاجة إلى تأشيرات المرور (إلا في مصر فيما يبدو) ، كما لم تكن الرسوم التي تفرض عند النقط الجمركية أو عند حدود الولايات تتجاوز حدود المعقول . وقد ينقل الطموحون من الصناع مؤسساتهم بكامل هيئتها إلى الغرب ، إذ كانت روما أو الولايات الغـــربية بنبلائها الأثرياء في نظر السوري أو الآسيوي أرض الميعاد والمجال الحيوي للكسب والربح ، وهكذا يبدو أن أرتاس قد نقل مصنعه إلى روما ، وكان لمصنع جاسون Jason (من صيدا) فرع في كولون Cologne في أقصى الشمال . كما انتشر السوريون في كل مكان ، فكانوا في ملاقة Malaga بأسبانيا ، وكانوا في ليونز Lyons وفي غيرها من البلاد بالغال ، وكانوا على طول نهر الرين ، وكانوا في البلقان بل وفي داكيا نفسها. ولم تكن المغامرة والمشروعات الضخمة من نصيب التجار السوريين وحدهم . فقد حل تجار بيثينيون Bithynians بماينز Mainz وبوردو وأقام صائغ من ليـــديا مصنعه في سويسرا ، ووصل بعض تجار تريفيس إلى رايتيا Rhaetia وداكيا . وتحدثنا المصادر الأدبية تارة ، والنقوش تارة أخرى عن أسفار طويلة ، إلا أنها تشهد بدورها على مدى التسهيلات النسبية واحتياطات الأمن التي كانت مكفولة للمسافرين . وإن رحلات بولس الرسول لمثل معروف مطروق على حرية الانتقال التي كانت مكفولة للمواطن الروماني ، فقد استطاع أن يزور مدن آسيا الصغرى الغربية ،

وأن يعود إلى زيارتها مرات ومرات ، وأن يتنقل بين مقدونيا واليونان بل يبلغ روما نفسها ويعلم هناك دون اعتراض من أحد ، كما كان مزمعا أن يسافر أيضاً إلى أسبانيا . وقد هاجر أحد اليهود وزوجه وهما Aquila وبرسكيلا priscilla من موطنهما فى بونتوس Pontus للإقامة فى روما ، وعندما رحلا مع اليهود بعد طردهم من روما ، قابلا القديس بولس فى كورنثوس . ويذكر أحد العمال العاديين من هييرابوليس Hierapolis فى فريجيا ، ويدعى فلافيوس زوكسيس Flavius Zeuxis على شاهد قبره مفاخراً بأنه مر أثناء رحلاته البحرية إلى إيطاليا بميناء كيب ماتابان Cape Matapan اثنين وسبعين مرة دون أن يصاب بسوء . ويفخر أحد تجار ميسيا Mysia بسبق مماثل : خمس عشرة رحلة إلى روما ورحلتان إلى ألمانيا وأربع رحلات إلى الدانوب ورحلتان إلى الإسكندرية ... وهلم جرا . وقد يقوم المرء برحلة بحرية بقصد الاستشفاء إلى مصر أو إلى بلاد الغال ، أو يأخذ طريقه مصعداً إلى شمال إيطاليا للاستمتاع بهواء الجبال النقى . وقد يحتفظ التاجر الثرى بمراكز متعددة له فى مدينتين أو ثلاث ، وهكذا كان ماركوس أوريليوس لوناريس شيخا لبلدتين هما يورك York ولنكولن Lincoln ، وقد خلف لنا نذرا فى بوردو Bordeaux ، لإلهته الحارسة اعترافا منه بالامتنان لرحلة عاد منها سالماً . وإنا لنميل إلى أن نتخيله فى صورة أحد تجار النبيذ يقوم بتوريد نبيذه الفرنسى المعتق إلى المدن البريطانية وإلى الحامية البريطانية فى يورك .

وإلى هذا الحد لم نتعرض فى حديثنا إلا للسفر والتجارة فى الأجزاء الآمنة من الإمبراطورية دون غيرها . بيد أن التجار الرومانيين كانوا على استعداد للمخاطرة بالتوغل إلى أبعد من ذلك . فتذكر لنا وثيقة مقطوع بصحتها أن فارسا رومانيا رحل فى عهد نيرون من كارنونتوم Carnuntum (فى الجزء المتوسط من الدانوب) مخترقا أراضى يسكنها البرابرة حتى بلغ بحر البلطيق

ثم إلى شبه جزيرة سامالاند Samaland حتى المحطات التجارية التى كان يجمع فيها الكهرمان (انظر الفصل الخامس) وعاد بكمية هائلة منه . ويصور محارب قديم من مايتز ، فى نذر الإلهة فورتونا ريدوكس Fortuna Redux ، نفسه بصورة تاجر للسيوف . وربما كانت مجموعة طرادات المحاريث التى عثر عليها بالقرب من كاسل تمثل رأس مال أحد التجار . وإن الآثار التى عثر عليها فى أنحاء متفرقة من النرويج والسويد وبولنده وفى شمال شرق ألمانيا ، وكانت تمثل أوعية معدنية وصحافا فضية وأوانى زجاجية وسيوفا ، لتعد أبلغ دليل على قيام حركة مرور ونقل نشطة تجاوزت حدود روما بمسافات بعيدة . وإن كان يرجح أن الأشياء الثمينة من بينها كانت أسلابا استولى عليها من أحد المعسكرات الرومانية ، إلا أنه من المؤكد أن الأوعية المعدنية والأوانى الزجاجية تم تبادلها بالطرق المشروعة العادلة ، وإن الطائفة الكبيرة من المعلومات التى تظهر فى مؤلفات الكتاب الرومان عن شبه جزيرة الدانمرك وعن بحر البلطيق تدل على أن تجاراً ممن كانوا يتكلمون اللاتينية قد توغلوا فعلا إلى هذه المناطق . ولم نقف بعد على القصة الكاملة للحملات الرومانية ضد سارماتيا Sarmatia التى يرجح أنها قادتهم فيما وراء كاربائيا Carpathia إلى بولندة الجنوبية وأكرانيا . ومما لا شك فيه أن التجار ووكلاءهم قد توغلوا إلى أعالى أنهار مثل سيريث Sereth وبروث Pruth ودنيستر Dniester وربما تكشف لنا الحفريات فيما بعد عن بعض الآثار الهامة هناك .

وبرغم أن نشاط القوافل المتجهة إلى البلاد الشمالية كان موفوراً عظيما ، إلا أنه يتضاءل أمام نشاط القوافل المتجهة من سورية شرقا عبر بارثيا إلى الصين والقوافل المتجهة من سورية جنوبا عن طريق مصر ثم البحر الأحمر والمحيط الهندى إلى الهند وسيلان والملايو وتايلاند ومنها أيضا إلى الصين . إذ كانت ترد من الشرق التوابل والأحجار الكريمة والحرير والنفائس

الأخرى ، كما تجلب منه العقاقير التى أثنى عليها الأطباء فى القديم . وكانت القوافل الضخمة المحملة بالبضائع التى تخضع كل منها لقائد ، تقطع الطريق بين دمشق وتدمر Palmyra والخليج الفارسى ، أو تصل إلى ما وراء ذلك ، إلى حمدان ومرو ، وذلك أنه على الرغم من أن الإمبراطورية كانت تؤدى أثمان ماتحتاجه من بضائع بالذهب والفضة (مما يفسر عثورنا على مجموعة قطع النقود الرومانية فى جنوب الهند) إلا أنها كانت تؤدى هذه الأثمان أيضا بما تصدره من البضائع التى تنشدها دول الشرق مثل الرصاص والقصدير الوارد من أسبانيا والنبيذ الوارد من إيطاليا وآسيا الصغرى والأوانى الزجاجية بمختلف أنواعها ، والكتان والثياب والعباءات والغلمان والجوارى لقصور الحريم الملكية .

ولا يعنى ذلك أن التجار الرومانيين كانوا يقطعون بأنفسهم ذلك الطريق الطويل إلى الصين ، بل إن أقصى ما بلغوه فيما يبدو هو المنطقة الجبلية الوعرة الواقعة على حدود بلاد فارس وأفغانستان ، وقد أرسل أحد التجار المغامرين وكلاءه لارتياد الطريق جميعه وإبلاغه بالأحوال السائدة فيه . وعلم هؤلاء بالمراحل من الطريق التى تجتاحها العواصف حتى (البرج الحجرى) «سراقول» (Sarikol) وأن الرحلة من هذه النقطة إلى سيريس Seres (عاصمة الصين) تستغرق سبعة أشهر . وعلى طول هذا الطريق الطويل الشاق كانت ترد بالات الحرير إلى الغرب ، مثل البالة التى اصفر لونها لطول عهدها والتى عثر عليها سير أوريل شتين Sir Aurel Stein أثناء رحلاته الاستكشافية . وكان الزجاج السورى يصل من الغرب إلى كابيسى Kapisi (باجرام Bagram) ، وإلى مسافة أربعين ميلا تقريبا شمالى كابول Kabul فى أفغانستان آخذا دون شك الطريق ذاته . وقدر للإرساليات البيزنطية أن تبشر بالمسيحية فى الهند قادمة من الطريق ذاته ، وأن يهرّب الرهبان عنه أيضا ديدان القز لتأسيس صناعة الحرير فى اليونان .

وإذا كانت الرحلة إلى الصين بطريق البر طويلة شاقة ، فإن الرحلة بطريق البحر كانت أطول مدى وأشد خطورة . ومعرفتنا بقدر كبير من تفاصيلها، يرجع الفضل فيها إلى الوصف الذى رواه قبطان غير معروف فى القرن الأول حول مراحل الرحلة جنوبا عن طريق البحر الأحمر ، بالمرور بسوكوترا Socotra ، وعبور المحيط إلى شاطئ ملبار Malabar ، ثم التوغل حتى بودوكا Poduca (بونديشيرى Pondicherry) والبنغال . جاء فى وصفه : « وهناك نهر يعرف باسم نهر جانجز Ganges ... وهو أعظم أنهار الهند قاطبة ، له مثل نهر النيل موسم للفيضان وموسم للتحاريق ، ويوجد على هذا النهر مركز تجارى يعرف باسم النهر نفسه ، وعنه يرد الملاباثروم ونبات النبل الهندى واللآلئ والموصلين ذو الأصناف الراقية . ويقال إن هناك مناجم للفحم فى هذه الجهات ، وإن هناك عملة ذهبية تسمى كالتس Caltis . وتقع فى مواجهة النهر وسط المحيط إحدى الجزر ، وهى أقصى أجزاء العالم المأهول جهة الشرق ، وتقع دون الشمس عند شروقها مباشرة ، وتسمى خريسى (ملقا Malacca ؟) وهى تنفرد دون سائر المناطق التى تصادف المسافر فى رحلة البحر الأحمر باحتوائها على أفخر أنواع أصداف السلاحف . وينصح هذا القبطان بأنواع البضائع التى تجلب من هناك وبأى السلع (بما فيها الفلفل) التى يحسن شحنها عند الرجوع إلى الوطن ، وأى الكثبان الرملية ينبغى تحاشيها ، وأى المناطق يقطنها « وطنيون معادون » . ولا يرجح أنه بلغ ملقا ، بيد أن التجار اليونانيين الرومانيين قد تجاوزوا هذا الموضع أيضا بعد مضى مايقرب من مائة عام ، وقدموا أنفسهم إلى البلاط الصينى باعتبارهم مبعوثين عن الملك أنتون Antun (الذى قد يكون أنتونينوس بيوس أو ماركوس أوريليوس) . ولدينا من الشواهد الأثرية الدالة على هذا النشاط التجارى الشئ الكثير ، فقد عثر على قطع عملة رومانية فى الهند وكشف عن سلع أريتينية ترجع إلى القرن الأول فى

مرفأ يقع بالقرب من بونديشيرى Pondicherry ، واكتشف مصباح رومانى فى بونج توك Böng Tük بتايلاند ، بل وجدت بعض قطع العملة الرومانية فى الصين نفسها . ولقد اندثرت الأقمشة الحريرية والموصيلينية التى جلبت فى طريق العودة من الهند ، بيد أنه أمكن أخيرا العثور فى بومبى على تمثال صغير من العاج لإلهة « الرخاء » الهندية ، لاكشيمى Lakshmi جىء به إلى أرض الوطن ليكون زينة مترفة لقصر من قصور أحد ثراة التجار فى بومبى .

وعلى النقيض من تلك الأرباح المغرية التى كان يمكن أن تعود بها هذه الرحلات المتجهة إلى الشرق ، حيث كان بوسع أى ثرى أن يدفع بماله وهو على يقين من الربح ، فإن تيارات الأطلنطى وضباب مياه الشمال لم يكونا يبشران بذلك النجاح . غير أن المعلومات عن الأراضى الشمالية والمياه الشمالية أخذت فى الازدياد المطرد منذ عهد أوغسطس ، بل إن الأسطول أبحر فى عهده متوغلا إلى الشمال حتى الدانمرك ، واستقر التجار الرومانيون فى بوهيميا Bohemia تحت حماية ملكها ، وكانوا يقومون بتجارة رابحة . وقد توغل التجار أو وكلاؤهم بالفعل بعد هذا التاريخ فى بحر البلطيق ، وأتوا بأخبار تقول إن الايستيين Aestii (وكانوا يقطنون الشاطىء الجنوبى الشرقى لبحر البلطيق ، وهم أسلاف الإستونيين Esthōnians فى الوقت الحاضر) يتحدثون بلغة محلية « قريبة من اللغة البريطانية » . وبحلول القرن الثانى كانت كميات كبيرة من البضائع التى تصدرها الإمبراطورية كالزجاج الثمين والأقداح الذهبية والدلاء والأوانى المعدنية الزهيدة الثمن ، تصل فى رحلتها لا إلى الدانمرك فحسب بل إلى النرويج والسويد أيضا ، ولا يمكننا فحسب أن نرد كثيراً من هذه البضائع إلى المصانع العاليّة ، بل إن وجود هذه البضائع فى النرويج يرجح احتمال قيام نشاط تجارى يتركز على سواحل فرنسا أو بلجيكا أو هولندة ، على احتمال قيام هذه التجارة عن الطريق البرى القديم عبر ألمانيا والدانمرك . ومما يذكر أن نظام الموازين الذى

كان متبعا خلال عصر الحديد بالنرويج كان قائما على أساس الدينار الرومانى. ولابد أن بريطانيا أيضاً قد هيأت موقعاً طيباً يسمح للتجار باتخاذه نقطة بداية لرحلاتهم ، كما كان الحال بالنسبة للتاجر المجهول أنتونينانوس الذى أقام قبيل تأهبه لرحلة تبدأ من بونيس — أون — سولوى Bowness-on-Solway مذبحا لتكريم بعض الآلهة ، ووعد بتغشية حروف النقش بماء الذهب إذا ما أنعم عليه الآلهة بتحقيق آماله — فى الربح — التى يعلقها على رحلته هذه . كما اكتشفت كل من أوركينز Orkreys وشتلاندز Shetlands فقد أبحر العالم والمستكشف اليونانى ، ديمتريوس الطرسوسى ، أثناء ولاية أجريكولا على بريطانيا ، على ظهر الأسطول الإمبراطورى ، وعاد بقصص شعبية من الهبريدز Hebrides . كما كانت البضائع والعملات الرومانية تصل إلى أيرلنده، وخاصة إلى الجزء الشمالى الشرقى منها ،ولو أن اكتشاف خاتم أحد أطباء العيون فى جولدن فى كونتى تيبيرارى County Tipperary يدل على أنه لا بد أن مر هو بنفسه أو أحد مرضاه بالقرب من المنطقة . وأخيراً فإن العثور على وعاء رومانى مصنوع من الطين الأسمر ، عند تطهير القاع بالقرب من بوزكوبين بانك Porcupine Bank ، الذى يقع على بعد ١٥٠ ميلا غربى أيرلنده ، كما أن اكتشاف ثلاث قطع نقود رومانية يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الثالث فى قاع البحر بالقرب من شاطئ همرشورد Hammarsfjord بآيسلانده ، ليثيران مسائل شيقة وإن لم نكن بعد قد اهتدينا إلى حلها، فيمايتعلق برحلات الصيد الرومانية (وحول ما يحتمل من قيام مركز تجارى فيما بعد) وذلك فى المياه الشمالية النائية حول آيسلنده .

ومما يسّر بلوغ حركة نقل البضائع من بلد إلى بلد هذا القدر من الضخامة ، الحقيقة الماثلة فى أنه كانت هناك إلى جانب العملات المحلية (التى لم يبطل استعمالها قط) عملة واحدة رسمية مشتركة معتمدة عالمية تتمثل فى قطعة ذهبية (aureus)

وقطعة فضية (denarius) مع جزئياتها ، وكانت قيمة الأوريوس ٢٠ ديناراً ، كما سكت قطع نقود نحاسية ذات قيم مماثلة . وخص أوغسطس نفسه وخص خلفاءه من بعده ، بضرب قطع النقود الذهبية والفضية ، أما عن حق سك العملة النحاسية والبرونزية فقد ترك لمجلس الشيوخ بصفة خاصة، وربما اختص به وحده. وكان يحلو للكتاب القدامى أن يرددوا كيف أن البرابرة كانوا يعجبون بالعملة الرومانية لنقاوة معدنها وثبات وزنها ، وما من شك في أن ما كان يروى حول هذا الإعجاب قد جرت فيه يد التعديل والتشذيب بدافع من الشعور الوطني، ولكن ذلك لا يغمط من الحقيقة الماثلة في أن العملات الذهبية والفضية التي أصدرها الأباطرة قد احتفظت (باستثناء بعض الهبوط الطفيف الذي طرأ عليها من حيث الجودة في عهد نيرون) بمستواها الرفيع ما يقرب من مائتي عام . بيد أن قيمة العملات الفضية أخذت منذ عهد ماركوس أوريليوس في الهبوط البطيء وإن كان دون توقف ، وبلغ مقدار النقص في قيمتها ما يقرب من نسبة أربعين في المائة تحت حكم سبتيميوس سيفيروس. وأدخل كاراكالا تعديلا نقديا بأن خفض وزن الأوريوس تخفيضاً طفيفاً ، وقرر التعامل بقطعة فضية جديدة تساوي دينارين وتسمى أنتونينيانوس Antoninianus . وتنعكس الأحوال السيئة المتفاقمة التي ظهرت في النصف الأخير من القرن الثالث في صورة انهيار عاجل محدق بالنظام النقدي ، فما إن حل عام ٢٥٠ حتى كان الأنتونينيانوس قد هبط هبوطاً مزرياً فلم يعد يتعدى قطعة نقود نحاسية مغشاة بطبقة رقيقة من الفضة . وفي الوقت ذاته أخذت قيمة الأوريوس في التدهور حتى إنه انخفض إلى ٧٠ قمحة فقط بعد أن كانت زنته في عهد أوغسطس ١٢٢ قمحة . وكاد يصبح من المحال قيام أي نشاط تجاري أو صناعي ، وراجت طرق التعامل غير المشروعة وقوبلت بدورها بأحكام رادعة صارمة ، وما إن حل عهد جاليانوس حتى انقطع بالفعل صدور العملات المحلية . وأصبح من المحتم

تحصيل الضرائب عينا أو على شكل سبائك ذهبية أو فضية ، أو على أية صورة أخرى فى الواقع غير العملة الرسمية . وآل أمر الدولة إلى حالة تكاد تقرب من حالة الإفلاس الكلى ، وهكذا تلقى البناء الاقتصادى المحكم الدقيق للعلاقات التجارية القديمة ضربة قاصمة .

بيد أننا نتحدث الآن عن القرن الثالث وهو تاريخ بعيد . فما لا شك فيه أن نجاح روما فى توفير الأحوال الملائمة لتجارة رابحة مزدهرة ، كان عملا فذا مجيداً . ولنأخذ شاهداً من بين أعداء روما . كان يحلو لحاخامات اليهود أن يصوروا روما ماثلة أمام كرسى الديان فى يوم الحشر ، « روما هذه التى انتشرت عملاتها فى جميع ربوع العالم ، والتى يعترف بسلطانها فى كل مكان » . وأنه عندما يطلب الديان من الرومانيين أن يدافعوا عن أنفسهم ، يجيبونه بقولهم : « لقد أقمنا كثيرا من الأسواق ، وشيدنا كثيرا من الحمامات وزدنا من حصيلة الذهب والفضة إلى حد كبير ، ولكننا لم نفعل ذلك إلا لغرض واحد وهو أن نتيح للإسرائيليين فرصة التفرغ لدراسة التوراة دون ما عائق» . ولكن هذه الحجة لا تلبث أن تدحض فى يسر على أساس أن الرومان إنما فعلوا كل هذه الأشياء لكى يستمتعوا بها هم أولا وآخراً — غير أن ذلك لا يخل من الصورة الكلية التى تنطبع فى أذهاننا والتى تقوم شاهداً على ما كان يشعر به الحاخامات تجاه أعمال روما الفذة ، وعلى اعترافهم لها بالفضل والسبق . أما عن الشهود الآخرين فلم يكونوا يكنون كل هذه البغضاء لروما . فقد نعم العالم القديم منذ عهد أوغسطس وخلال فترة تربو على مائتى عام ، بحقبة لم يعهدها من العلاقات التجارية السليمة الآمنة . ولقد ردد الكاتب إثر الآخر القصة ذاتها . فكتب ابيكتيتوس قائلا : « لقد حقق لنا قيصر سلاماً شاملا ، فلا حروب ولا معارك ولا سطو ولا قرصنة ، بل فى مقدورنا أن نسافر فى أى وقت من الأوقات وأن نبحر جيئة وذهاباً بين الشرق والغرب» .

وجاء على لسان إيرينايوس Ireneaus : « نال العالم السلام بفضل الرومان ، وأصبح فى وسعنا أيضاً نحن المسيحيين أن نتحدث فى الطريق دون خوف وأن نرحل إلى حيثما نشاء » . ويستطرد الخطيب أرستيديس فى هذه الفكرة — كما هو متوقع — فيقول إن الحروب قد اختفت من الوجود بالقدر الذى يحمل المرء على النظر إليها على أنها أثر أسطورى من آثار الماضى السحيق ، وإن المرء ليرحل من بلد لآخر كما لو كان كل بلد ينتقل إليه وطناً ثانياً له ، « فلم نعد نرهب مضيق صقلية أو نخاف الدروب الرملية الضيقة التى تصل ما بين شبه الجزيرة العربية ومصر ، كما أننا لا نجزع من ارتفاع الجبال أو اتساع الأنهار أو نخشى الشعوب البربرية التى تناصبنا العداء . فكون المرء مواطناً رومانياً ، بل كونه مجرد فرد من رعيتك ، هو الضمان الكافى لسلامته » .

الفصل الثامن

دين الدولة ودين الفرد

السحر ـ المسيحية

على رغم أن الدين والمشاعر الدينيـة تعد من أصعب الأمور التى تحتمل صدور الأحكام العامة بشأنها ، بالنظر لتلك الرقعة المترامية من الأراضى ، وذلك العدد الكبير من الشعوب التى ضمتها الإمبراطورية ، إلا أن هناك بعض القواعد العامة التى لم يكن يختلف فيها بلد عن بلد أو يتباين فيهـا شعب عن شعب . كانت جميع هذه الشعوب تعتقد فى الغالب بأن الآلهة إنما هى كائنات غير مرئية ، عظيمة القوة ، أبدية أزلية ، وأنها بالطبيعة خيرة إزاء البشر ، وأنه لمـا كان الإنسان فى حاجة إلى معونتها وحمايتها فى كل مجريات حياته اليومية ، فله أن ينال رضاءها وأن يحظى بمعونتها لو أنه كرمها بالتعبد لها بانتظام وبتقديم الذبائح الواجبة وفق الطقوس التقليدية فى بلده ، ذلك لأن الآلهة كانت أشبه بمواطنين غيورين غير مرئيين أشداء ينتسبون للبلد الذى ينال رضاءهم ، كما أن طقوس الأولين هى الوسيلة الفعالة لكسب معونتهم وتأييدهم . كان الزارع فى حاجة إلى معونة عدد من آلهة الريف المختلفة كى تنمى محاصيله وتصون قطعانه وماشيته ، وكان التاجر أو البحار فى حاجة إلى المعونة الإلهية لتفىء عليه بالربح فى أسفاره والرواج لتجارته ، كما كان الصانع فى حاجة إلى معونتها كى تمنحه حذقا ومهارة فى صناعته ، فالآلهة نافعة فى كل لحظة من لحظات الحياة والعمل . وحتى الطبقات العليا من المجتمع الرومانى التى كانت تترفع عن أن تؤمن بما يؤمن به رجل الشارع ، كانت تعتقد بدورها ، إن قدر لها أن تعتقد ،

فى إله أعلى غامض مبهم، تميل إلى أن تتخيله فى صورة الإله المعروف «جوبيتر»، ومن ثم فهى تتعلق به بكل جوارحها ، رغبة فى صون الطقوس التقليدية القديمة . ذلك لأنه كما أن الشعب الرومانى قد مد سلطانه ، كذلك اتسع ملك إلههم القوى جوبيتر . فإن الآلهة الرومانية إن استرحمت على النسق الصحيح ، فإنها ستظلل دون شك المواطنين الرومانيين بحمايتها وبذلك تصون ملك الرومان فى امتداده وخلوده .

كما أصبحت بعض الآلهة الأخرى التى كانت آلهة شرقية فى الأصل ، والتى ما كانت لتقل قومية عن الآلهة الرومانية — مثل مثراس Mithras فى بلاد فارس وإيزيس Isis بمصر — آلهة عالمية . ولكنه وإن كانت هذه الآلهة قوية عظيمة ، إلا أنها لم تعد كونها آلهة يتعبد لها الأفراد ويستمدون منها عزاءهم، وقد تختار بعض النقابات أو الجمعيات مثراس راعياً لها ، ولكنه لم يكن من الميسور مطلقاً فى العصور الأولى النظر إلى هذا الإله على أنه الإله الأعلى الواحد الذى يمكن للدولة الرومانية أن تركن إليه . فذلك من شأن جوبيتر وحده .

وكان هناك إلى جانب جوبيتر « أعظم الآلهة وأفضلها » آلهة آخرون ممن ينتمون إلى مجموعة الآلهة التى تعترف بها الدولة . فكان الإله مارس أباً للشعب الرومانى ، كما تروى الأساطير ، وكان جبارا فى الحروب ، مقداماً جسوراً ، يتولى حماية الجيوش الرومانية فى ميدان المعركة ، ويحظى بالعبادة الرسمية من الفرق والقوات الرومانية جميعها . أما فستا Vesta ، فكانت إلهة نار الموقد التى لا تنطفئ ، ورمز حياة البيت والأسرة ، وعلماً على خلود روما ، أما مينيرفا Minerva فكانت إلهة كل من كانوا يعملون بعقولهم أو بأيديهم ، وهى التى تذكى مهارة الصانع الحاذق ودقة المحاسب . وكان يحتفى بهذه الآلهة جميعها ، وبغيرها مثل جونو Juno ونبتيون فى الأعياد الخاصة بكل منها وفى المناسبات

الكبرى . وكما أن السيد من البشر يكرم ويمجد بما يحيطه به أتباعه وحاشيته من ألوان الإجلال والتبجيل ، كذلك تعظم الآلهة بالطقوس التقليدية التى يقيمها كثير من العباد الشاكرين . ومن ثم يحق لهؤلاء البشر أن ينالوا تلك النعم والخيرات التى لا يستطيع أن ينعم بها غير الآلهة . ومن بين الحجج التى تذرع بها كاراكالا عندما قرر منح سائر سكان الإمبراطورية (انظر الفصل السابع) حقوق المواطنة الرومانية ، أن الآلهة الرومانية ستكون أكثر استعدادا ورغبة لأن تجزى الشعب الرومانى الورع وتسبغ نعمتها عليه ، إذا ما كرمت من هذا العدد الكبير من المواطنين الجدد .

ومن هنا جاءت أهمية دين الدولة ووفاؤه بالغرض المنشود منه ، إذ كان بوسع الجميع ومن واجبهم أن يأخذوا بنصيب فى الطقوس التى تقام فى أيام الأعياد الكبرى . أما عن قائمة أعياد الجيش فلم تكن تمثل سوى نخبة مختارة من قائمة الأعياد المدنية . وكانت العبرة بالاشتراك الفعلى فى أداء الطقوس ، فلم يكن هناك محك للدين القويم يقوم على اتباع نواميس معروفة أو تلاوة قوانين للإيمان . كان واجب المواطن الرومانى ، وعمله الدال على صدق إيمانه ، هو أن ينضم إلى المواكب فى أبهى حلة ، ويشترك فى الذبائح والقرابين وإطلاق البخور ، متوجاً بأكاليل الزهر .

ولم يكن يداخل العامة أدنى شك فيما لهذه الآلهة ولغيرها من قدرة ، وإن هذه القدرة قد تظهر فى بعض الأحيان فى صورة جلية تثير الدهش والعجب . فعندما أبرأ بولس الرسول مفلوج ليستره Lystra دهش الجمع وصاحوا قائلين إن الآلهة قد نزلت إلى الأرض فى صورة البشر ، كما سبق أن قالت الأساطير ، ولم يعتم كاهن جوبيتر أن أعد الثيران وأضافير الأغصان ليقدم قرابين الشكر . وإذا ما تهددت الأخطار الإنسان فى البحر ، فله أن يتوسل إلى سارابيس Sarapis فما هى إلا لحظة حتى يأتى الإله لنجدته كما شهد بذلك جندى مصرى فى

خطاب أرسله إلى أمه . كما أنه فى كل مكان أيضاً تستشعر فيه الحياة ولقوة والغموض — حيثما ينبثق نبع من قلب الصخر ، أو ترتفع قمم الجبال بين السحب ، أو تثير أجمة من الأشجار المعمّرة المهيبة شعورا بالصمت والرهبة — كان الرومانى يحس بوجود قوة إلهية numen (كما سماها) . وجرت العادة فى الريف أن يقام إلى جوار هذه الأماكن المقدسة ، معبد ريفى صغير لتلقى التقدمات المتواضعة التى يقدمها الأتقياء ، وهى تقدمات من اللبن أو الجبن أو الغلال أو قد تصل إلى بساطة باقة من الأزهار . إن حوريات الغاب والينابيع ، وترمينوس Terminus الإله الذى يحرس الحقول والحدود ، وفاونس Faunus إله الأراضى والغابات والمروج ، وسيلفانوس Silvanus الذى يمثل القوة التى تحلق فوق مظاهر الطبيعة الثائر سواء أكانت فى الغابات أو المستنقعات أو المحاجر — إن جميع هؤلاء كانوا ينالون ما هم جديرون به من تكريم وعبادة . قد لا تدانى آلهة الريف أو الآلهة التى تحمى الصناعات والحرف آلهة الدولة عظمة وأبهة ، ولكنها مع ذلك كانت أوثق صلة بحياة الإنسان وأعماله ، لذلك كانت أبقى على الأيام ، فظلت عميقة الجذور راسخة بالريف حتى بعد أن أصبحت المسيحية دين الدولة (انظر خاتمة الكتاب) . وكانت آلهة البلاد المغلوبة فى حاجة هى الأخرى إلى الاسترحام والتكريم من جانب الغزاة الفاتحين أنفسهم ، لأن الرومان كانوا يزعمون أنهم أعظم الأمم ورعاً وتمسكا بأهداب الدين ، وكان الرأى عندهم أن من الأفضل إرضاء هذه المخلوقات ذات الأسماء الغريبة مثل زبلزورداس Zbelsurdas فى تراقيا أو رب دوليش Doliche فى سوريا أو بلاتوكادر Belatucader فى بريطانيا ، فقد تكون فى الحقيقة آلهة رومانية فى ثياب وطنية ، وعلى أية حال فهى آلهة لها من غير شك سلطان داخل حدود أوطانها ، وعلى ذلك فلنكرمهم ولنقدم نذورنا إلى «روح أرض بريطانيا» (genio terrae Britannicae) وبذلك نضمن حمايتها لنا .

ولم يكن هذا بإيمان الجهلاء أو الأميين ، فإن ماركوس أوريليوس يقدم النصح بقوله : « أدعوا الآلهة دوماً إلى معونتكم » ويعترف بأنه كثيراً ما تلقى منهم أحلاماً كان فيها النفع والعون . وإذا كان الحلم يستغلق على فهم الرجل العامى فنى وسع العراف الحاذق أن يفسره له مقابل أجر ، وما زال تحت أيدينا أربعة فصول من بحث عن « تفسير الأحلام » وضعه شخص يدعى أرتيميدوروس Artmidorus (انظر الفصل الخامس) . وكان أرستيديس Aristides المحاضر المتجول ، على استعداد دائما لأن يقوم بكل ما كان أسكليبيوس ، إله الصحة يأمره به ، ولو تطلب الأمر القيام برحلات طويلة شاقة أو الغوص فى النهر فى أشد أوقات الشتاء برودة . إذ كانت الآلهة موجودة بين الناس تعيش بين ظهرانيهم ، ويكاد يخطئها الحصر لكثرتها ، ولقد علق أحد رجال الأعمال ، ساعة الغداء قائلا : « أيسر أن تجد فى هذه المدينة إلها من أن تجد آدميا » . كما كانت مراكز العرافة تمد يد العون أيضاً لمن كان فى حيرة من أمره : هل سأصبح عضوا فى مجلس الشيوخ ؟ هل دس لى السم ؟ هل سيطلقنى زوجى ؟ هل أصابنى سحر ؟ إن هذه وغيرها من المشاكل المحيرة للألباب المستغلقة على الأفهام يمكن أن تحل كلها بحلول مرضية مقنعة بعون الإله الذى يقصد للمشورة .

بقيت عقيدة أخرى جديرة بالذكر ، وهى عقيدة « عبادة الأباطرة » . والعبارة الأخيرة كما يجرى استعمالها عادة عبارة مضللة ، لأنه لم يحدث قط إلا فيما ندر أن أقيمت شعائر العبادة للإمبراطور إبان حكمه وفى أثناء حياته على اعتبار أنه إله بالفعل . ولكنه كان مما يتفق والأفكار السائدة فى العالم القديم أن يضم الحاكم العظيم بعد وفاته ، إلى قائمة أسماء من تعبدهم الدولة ، وبذلك يصبح إلها divus ، ولقد انتهت العقلية الفلسفية فى العصر الهلينستى إلى أن بعض الآلهة كانوا فى الواقع فيما مضى آدميين غير مخلدين ، ولكنهم

دخلوا فى عداد الآلهة نظراً لأنهم قاموا بأعمال فذة خارقة أو إصلاحات جليلة ، ولإظهارهم قدراتهم وملكاتهم . وإذا كان الحال كذلك فإنه لمن خطل الرأى أن نمسك عن الاعتراف بالفضل لرجال أفذاذ مثل أوغسطس أو تراجان أو سبتيميوس سيفيروس ممن نشروا ألوية السلام أو حققوا الانتصارات المظفرة أو انتشلوا البلاد من وهدة الحروب الأهلية . وعلى ذلك فقد كانت « للسلطة الدينية المختصة » وهى مجلس الشيوخ الرومانى أن يقرر عند وفاة أحد الأباطرة ما إذا كان الإمبراطور الراحل جديراً بشرف التأليه . ومن ثم يضاف فى حالة الموافقة إلى قائمة آلهة الدولة التى تبدأ بجوبيتر «أعظمهم وأفضلهم» ، وتضم أولئك الحكام المعترف لهم بالفضل من أمثال قيصر وأوغسطس وفسباسيان وتراجان وهادريان وأنتونيوس وماركوس وسبتيميوس سيفيروس .

ومع ذلك فلئن طلب أحد الأباطرة أن تقام له شعائر العبادة وهو على قيد الحياة لاعتبر ذلك ضلالا وزيغا لا يقدم عليه إلا رجل على شاكلة كاليجيولا أو دوميشيان . وعلى أية حال فإن مركز الحاكم ومكانته وسلطته أدت إلى أن بات يحاط ، أثناء الاحتفالات العامة والمواكب الرسمية ، بحشد من دلائل التكريم والتعظيم ، لم تكن تفترق فى الكثير عن العبادة الفعلية . قد يحرص إمبراطور مثل أوغسطس أو فسباسيان على التظاهر ببراءته من كل ما يحيط شخصه من الأبهة والعظمة ، غير أنه ما لبث فى أواخر القرن الثانى أن اتخذت حشود المرافقين للإمبراطور ، والمشاعل المتأججة التى تتقدمه فى المواكب والبخور الذى يطلق أمامه والصيحات والدعوات الإيقاعية التى تحيي مقدمه ، طبيعة الطقوس الدينية وشكلها . وكانت تتجسد فى شخص الإمبراطور بصفة مؤقتة قوة روما وجبروتها الأبديان ، ولو أنه ليس فى مقدور الناس التعبد له علانية فلهم أن يعبدوه ويقسموا بروحه (genius) . ولم يكن هناك ما يمنع

المواطن فى حياته الخاصة ، بغض النظر عن الاحتفالات الرسمية ، من أن يقيم المذابح والمعابد لحاكمه الذى ما زال على قيد الحياة اعترافاً بفضله وانتصارا له ، كما لم يكن هناك ما يمنع البحارة السكندريين الشاكرين من أن يسكبوا تقدماتهم بين يدى أوغسطس (انظر الفصل الأول) . وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه لما كان الإمبراطور ، فى نظر القبائل والشعوب التى تعيش على أطراف الإمبراطورية ، حيث المشاعر الساذجة البدائية ، هو أعظم الخلق قوة على وجه الأرض تحميه أقوى الآلهة ، فقد كان موضعاً لعبادتهم وتكريمهم ، بحيث أصبحت عقيدة عبادة الأباطرة الراحلين والطقوس التى تقام أمام روح الإمبراطور الذى ما زال على قيد الحياة genius ، تهيء ديانة من نوع خاص تسمح للجميع بأن يشتركوا فى طقوسها ، وأن يعبروا بها جميعاً — بغض النظر عن الجنس أو الوطن أو اللغة — عن حبهم العميق وولائهم لرأس الإمبراطورية ، وإن هذا لما يفسر العادة التى لوحظت كثيرا فى التكريس باسم الإله المحلى مقرونا باسم الإمبراطور ، فقد كان الإمبراطور القاسم المشترك الأعظم لأضعاف مضاعفة من الآلهة والأرواح .

يتحتم أيضا عند الحديث عن عبادة الأباطرة أن نوضح خطأً نظرياً قد يقع فيه الكثيرون . فمما لا شك فيه أن لفظتى « العبادة » و « العقيدة » فى نظر القارىء الحديث لا تدلان فحسب على فرائض ونصوص التعبد والشكر ، بل تدلان أيضاً على طريقة توجيه الصلاة . فهى إما صلاة من أجل النفس أو من أجل الغير . ولكنه بغض النظر عن فقرتين أو ثلاث وردت لبعض الكتاب المتأخرين ، لا يبدو كما لو أن الرجل العامى كان يتصور أن يقيم الصلاة لإمبراطور حيا كان أو ميتا ، طلبا للنعم والبركات ، ولم يصل إلى علمى أيضا أن حدث أن سجل إنسان مشورة تلقاها فى رؤيا أوحى بها أحد هؤلاء الحكام المؤلهين ، وإن كان الاعتقاد السائد هو أن هذه كانت من بين الوسائل التى يشترك فيها الآلهة إذا أرادوا

إسداء معونة أو هداية إلى واحد من بنى البشر . وإنه لمن الخطورة بمكان أن نقطع برأى فى مسائل شائكة مثل النظريات الدينية وطرق تطبيقها فى العالم القديم أو العالم الحديث ، ولكنه قد تكون أوفق نظرة إلى عقيدة « عبادة الحاكم » هى أن نتخيلها فى صورة احتفال شعبى يشبه ذلك الذى يقام لرفع الشكر لله أو لإحياء ذكرى أحد المصلحين ، تقيمه طائفة من الناس فى المناسبات الكبرى وفى روح من الحماس الوطنى . أما فى المناسبات العادية ، فعمل الإمبراطور المقرون بإله آخر هو أن يكون بمثابة همزة وصل بين المصلى المتعبد وسائر المواطنين .

وإلى هذا الحين كان اهتمامنا منصبا على الدين سواء أكان الدين العام الرسمى أو الخاص بالأعمال والحرف ، حيث كان للمتعبد أن يدعو الآلهة إلى صون الدولة وإطالة عمر الإمبراطور أو لأن تمن عليه بالثروات والمحاصيل الوافرة والرحلات المربحة إلى آخر هذه المنافع المادية التى حسب العالم القديم أن فى استطاعته الحصول عليها من الآلهة ، على شريطة أن تلقى التكريم اللائق بها . أما إذا عجز الآلهة عن الوفاء بالتزاماتهم فى العقد ، فالويل لهم . إذ تخرب مذابحهم وتمسخ صورهم وتقذف معابدهم بالحجارة . وقد تبلغ حال مدينة يفقد أهلها الأمل ويعمهم السخط على الصورة السالفة ، درجة كبيرة من الخطورة ، حتى أنهم يفقدون روحهم المعنوية إذا تزعزع إيمانهم . لذا فرضت الدولة عقوبات صارمة على كل شخص تؤدى أقواله إلى استثارة « عقول الشعب الضحلة بمخاوف وهمية » . إذ أنه لم يكن أمام الفرد العادى ، إذا ما خاب ظنه وتملكه اليأس على الصورة السالفة أو هزته كارثة مفاجئة إلا أن يطرق أحد سبيلين : إما السحر أو إحدى العقائد الأجنبية » .

إن شيوع السحر وانتشاره فى ذلك الزمن ، وعلى ذلك النطاق الواسع ، لحقيقة تدعو إلى الرثاء ، بيد أنه ليس لمثلها أن تثير الدهشة فى جيل لا يزال

علم الفلك يستأثر فيه بنصف نهر فى بعض الصحف ولا زال للأحجبة ومجلبات الحظ والعرافين قسط من الذيوع . ومن الغريب أن تختلط فى ذلك الخضم الهائل من أدب السحر القديم ، الأهداف الروحية السامية مع المطالب الرامية إلى إرضاء الشهوات المادية والجسدية . فكان الفلكى أو العراف على استعداد — إذا ما سئل المشورة ، أن يقدم العلاج الذى يلائم جميع الأفراد ويتفق مع كافة الإمكانيات المادية ، ففى وسع المرء أن يبتاع لديه خريطة تبين مواضع النجوم والكواكب فى مختلف الأوقات ، أو أن يتلقن عنه فن سحر أعدائه ، وقد تنزل الفتاة المغضبة الحسود اللعنة بغريمتها التى سلبتها عشيقها فتفقدها قدرتها على السمع أو تشوه خلقتها أو تصيبها بالبلادة والخمول ، أو أن يأمل لاعب فى سباق العربات الحربية أن يسحر جياد منافسيه فيشل أرجلها عن الحركة . وقد كشفت أعمال التنقيب فى الغالبية العظمى من الولايات عن مثل هذه اللعنات والدعوات التى روعى فى دفنها أن تكون أوجه الألواح المكتوبة متجهة إلى أسفل كى يتسنى للأرواح الشريرة — ذلك لأن أهل العالم القديم كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا فى وجود مثل هذه الشياطين الشريرة كما انهم كانوا يرهبونها أشد الرهبة — أن تقرأ الرسالة المكتوبة فى يسر ، وبعض هذه اللعنات قد صيغ فى لغة وأسلوب عاليين وبعضها كتب فى أداء وهجاء يكشف بوضوح عن أمية أصحابها ، بيد أنها جميعاً تميط اللثام على نحو مؤسف مخز عن أحط المشاعر التى تنطوى عليهـــا النفس البشرية . أما من اسودت سرائرهم وأرادوا بإخوانهم الشر والسوء ، وتاقت نفوسهم إلى تحضير بعض الأرواح وتسخيرها لخدمتهم ، فكان فى وسعهم أن يتلقنوا — مقابل أجر — تلك الأسماء الشاذة الغريبة للشياطين الأجنبية ذات السطوة والبطش مثل ريخاريث Richerith وبازاخوخ Bazachuch ، بل وفى مقدورهم أن يتعرفوا على ذلك الاسم الخفى الذى يجل عن الذكر والذى يمكن له أن ينزل أعظم الآلهة من عليائه ليكون عبدا مطيعا لهم . وقد تتطلب العملية تكاليف باهظة وجهوداً شاقة من

صوم إلى تهجد بالليل إلى طقوس منفزة كريهة ، فقد قيل لامرئ في إحدى الوصفات أن يمسك عن الطعام سبعة أيام ، وأن يحضر ديكا كبيراً أبيض اللون ، ثم يحتث رقبته عند شروق الشمس ، ويشرب دمه . وقد تنطوى على أخطار أيضا ، لأنه كان عليه بعد مضى سبعة أيام أخرى، أن يعد طعاما ويأكله تاركا نصفه ، وأن يأخذ طريقه إلى الغرب ثم يلقى الجزء الذى لم يأكله ، وعند ذلك — كما تقول التعليمات — يجب أن تعود مسرعا إلى مكانك وأن تغلق عليك بابك وإلا لحق (هو) بك ، لأنه إذا لحق بك ، فستلقى على يده الموت العاجل ».

وقد يجد العابد الغيور الذى يرغب فى مخاطبة إلهه وجها لوجه ، غرضه المنشود لدى أحد الكهنة المصريين ، فيتولى هذا الكاهن إدخاله إلى حضرة الإله ، بعدالصوم والتطهير اللازمين . وكانت هذه هى التجربة التى مر بها طبيب فاشل يدعى ثيسالوس Thessalus ، قال : « أخذنى الكاهن إلى إحدى الحجرات وطلب إلىّ أن أخبره بما إذا كنت أود التحدث إلى شبح أحد الأموات أو إلى إله من الآلهة . فأجبته بأنى أريد التحدث مع أسكليبيوس ، وأضفت بأنه سيتوج كل ما أبداه لى من عطف لو سمح لى بالتحدث منفرداً مع الإله فوعدنى بتلبية طلبى فى شىء من الإعراض (ورأيت دليل امتعاضه واضحاً على سرائر وجهه) بيد أنه قطع على نفسه مثل هذا الوعد على أية حال فى النهاية . وهكذا فإنه بدأ بأن أغلق علىّ باب الحجرة وطلب إلىّ أن أجلس فى مواجهة العرش الذى ينتظر أن يتربع عليه الإله ، ثم استحضر أسكليبيوس بقوة تعاويذه السحرية ، وعند ذلك أغلق الباب وأحكم الرتاج . وتركت فى مجلسى ، وإذا بجسدى وروحى جميعهما قد استبد بهما الروع لرؤية مشهد رائع عجيب (وإن اللسان البشرى ليعجز عن وصف طبيعة وجه الإله أو بريق الجواهر التى تغطيه) إذ رفع الإله يده اليمنى وخاطبنى قائلا : « أيها السعيد

ثيسالوس ، لقد أكرمك أحد الآلهة اليوم ، أما البشر فلن يلبثوا أن يحيطوك — عندما يصلهم نبؤك وما حققته من نجاح — بالإكرام والتعظيم كما لو كنت إلها . لك أن تسألنى ماشئت وسأجيبك إلى طلبك كيفما كان عن كرم وسخاء » .

وكشف الإله له فى النهاية عن أسرار علم عجيب ، هو علم النبات الفلكى ، أى معرفة المواسم التى تبلغ فيها الأعشاب والنباتات غاية قوتها من حيث صلاحيتها للاختيار والإفادة منها . وغنى عن البيان أن ثيسالوس قد أثرى بعد هذه الرؤيا ثراء فاحشاً . ويأتينا تعقيب ينم عن شك وارتياب فى هذه الرواية جميعها من كاتب مسيحى يدعى هيبوليتوس Hippolytus (كان يحمل لثيسالوس ضغينة فيما يبدو) ، يشرح لنا فيه كيف أنه فى الإمكان « إظهار أى إله » ، وذلك بأن يخط على الحائط الرسم المطلوب ثم يلطخه بمزيج قابل للاشتعال أو بمواد فسفورية مضيئة .

وما من شك فى أن الكهنة لم يكونوا جميعهم من المخادعين، وأن كثيرين ممن اجتاحتهم الرغبة فى رؤية آلهتهم كانت لديهم مرام روحية سامية ، بيد أن غالبية من كانوا يسعون إلى الاتصال بالآلهة كانوا يرمون إلى اتخاذ ذلك وسيلة للتحكم والسيطرة على العالم المحيط بهم : ولا مراء فى أن البعض كانوا يلتمسون الطمأنينة النفسية والإيمان ، وقد خلف لنا ضابط رومانى ، كان معينا لحراسة سور عند كارفوران Carvoran على قطعة من الحجر ، نذرا واعترافاً جديرين بالاعتبار ، فقد اهتدى خلال نوبات حراسته ووحدته بالليل ، إلى أن الأرض جميعها تخضع لحكم إله واحد هو « العدالة » السمائية . غير أن الحقيقة الماثلة فى أن الكثيرين قد سعوا لنيل رؤى خاصة وفى أن البعض كان يعيش فى عالم تسكنه الأرواح والشياطين ، لتدل على أن دين الدولة لم يكن بكاف ، وأنه لم يمس أغوار النفس البشرية ويتعرف على آمالها ، كما لم يطفىء ظمأها الروحى .

وقد يزعم البعض أن مثل هذه المخاوف ومثل هذه الآمال ما كان يعانيها

غير الجهال ، على حين أن المثقفين إما أنهم كانوا يجدون العزاء في الفلسفة أو كانوا يسيرون في طريق عقيدة تؤمن بإله واحد . ولكن الفلسفة لا تبرئ المرء بالضرورة من المعتقدات الخرافية ، كما أن التأملات اللاهوتية يندر أن ترضى نفسَ الرجل العادى الذى يريد جوابا شافيا لذلك السؤال المحير : ماذا أفعل لأخلص ؟ وكان بورفيرى Porphyry تلميذ أفلوطين (انظر الفصل الخامس) على استعداد — رغبة منه في إحباط حملات المسيحيين (على الديانة الوثنية) وأملا في تعديل وتشذيب المعتقدات الدينية التقليدية في الوقت ذاته ، لأن يتحلل من الكثير إلغاء الأساطير أو التماس المعنى الرمزى لها وإبطال التضحية بالذبائح الدموية وإدخال نظام تقدمات البخور ، ولكنه كان بذلك سيسلب الديانة القديمة روحها وينتزع هذه الروح انتزاعا في نظر الفرد من عامة الناس ، الذى يتشوف إلى الطقوس والمراسيم والاجتماعات ومظاهر الأبهة والعظمة . وبالنسبة لهذا الفرد الذى لا تطمئن نفسه إلى عقائد الدولة أو إلى الديانات الفلسفية ، وفي الوقت ذاته يأنف من السحر، فلقد كان للآلهة الأجنبية «العالمية» ، مثل مثراس وإيزيس (ونقتصر هنا على ذكر أشهرها) سحر كبير يستولى عليه .

وكان موطن مثراس الأصلي هو بلاد الفرس . وكانت الأساطير الفارسية تميل إلى تصوير تاريخ العالم في صورة صراع عظيم هائل بين أهرامازدا Ahuramazda (قوة الحق والنور) وأهريمان Ahriman (قوة الباطل والظلمة) وكان مثراس يقف بالنسبة لهاتين القوتين إلى جانب الحق والصدق . وكان على من يريد عبادته أن ينضم إلى جماعة أخوية يتعاهد أعضاؤها عن طريق مراسم معينة للتدشين وعن طريق المآدب المشتركة ، على أن يخلصوا لبعضهم البعض ، وعلى أن يسلكوا سبيل الصدق والصلاح ، وهما خلتان تمدان الإنسان بالقدرة على الثبات والصمود في مواجهة متاعب الحياة الدنيوية وفي

الحروب الكونية أيضاً . وكانت اجتماعاتهم تعقد فى كهف من الكهوف سواء كان طبيعيا او صناعياً ، تثبت فى أقصاه لوحة بارزة تصور مثراس فى أعماله وآلامه بصحبة رفاقه وتابعيه ، وكان الداخلون فى هذه العقيدة — الذين كان لهم أن يرتقوا رتبا دينية مختلفة — يوعدون بمراسم رمزية معينة ، بحياة مباركة فى مستقبل أيامهم . وكان خليقا بهذه العقيدة ، فى تحبيذها ودعوتها إلى الولاء والشجاعة والصدق والأخوة ، أن تجتذب الجند وتأسر ألبابهم ، حتى أن اجتماعات أتباع مثراس شاعت فى مدن الحاميات وفيما حول معسكرات الحدود فى الولايات الغربية وكذلك فى الموانى البحرية . ورأى بعض الباحثين ، استناداً إلى بعض الشواهد الواهنة فيما يبدو ، أنه كان من الممكن أن تصبح عقيدة مثراس بمضى الزمن الدين الرسمى للرومان ، بيد أن ذلك لم يحدث على أية حال .

ورغم أن عقيدة مثراس كانت عقيدة سامية داعية إلى الكفاح ، إلا أنها لم تحث على الفضائل التى تفوق هذه رقة ونبلا ، كما أنها قضت بوجه قاطع بإبعاد النساء عن حظيرتها . غير أن ثمة آلهة أخرى هى التى أوفت بما كانت تدعو إليه الحاجة ، وكانت هذه هى الإلهة إيزيس . كانت مصر وطنها الأصلى غير أنه ما إن إنتشرت عقيدتها وذاعت حتى زعم المؤمنون بها بأنها ليست مجرد إلهة وطنية بل هى الينبوع والأصل الذى نشأت عنه الحركة والحياة بمختلف صورهما ، وأن الآلهة والإلهات التى تتعبد لها سائر الأمم إن هى فى الواقع إلا إيزيس بذاتها ، اهتدى البرابرة إلى بصيص وقبس من نورها تحت أسماء متباينة . وإذا دخلت ردهة معبد من معابدها العديدة ، فسيلاقيك تمثال قائم لامرأة شابة رقيقة رشيقة ، بيد أنها أم وملكة ، تحمل طفلها بين ذراعيها ، وعند قاعدة التمثال يرى نقش يروى أعمالها المجيدة ووعودها : « إنى إيزيس ملكة جميع البلاد . . لقنت الشعوب كيف تكرم صور الآلهة ، وأقمت معابد

الآلهة ، وأطحت بعروش الطغاة ، وأنعمت على النساء بحب الرجال لهن ، وجعلت للعدل قوة تفوق قوة الذهب والفضة . . . وقننت جزاء للظالمين ، وأمرت بالرحمة للضارعين ، وإنى لأكرم من يأخذ بثأر عن حق ، العدالة هى فى جانبى ، إننى سيدة الأنهار والرياح والبحار ، أسكن أمواج البحر وأثيرها ، وأنا من أشعة الشمس ، وكل شىء رهن بإشارتى ، أطلق المأسورين ، ولى السيادة على أسفار البحر ، وأسست المدن المحصنة ، ولى الغلبة على القدر ، وينبغى على القدر أن يطيعنى » .

كانت هذه فى واقع الأمر إلهة قوية جبارة ، فهى أعتى من القدر المخوف نفسه ، إلهة تفخر بأن لها سلطانا ، لا على الطبيعة وحدها ، بل على قلوب البشر أيضاً ونفوسهم ، وإنها مؤسسة كل مظاهر العدالة والنظام ، وكل أساليب الحياة المستقرة ، أى أنها كانت أصل الحياة المدنية ، وهى لم تنهض « بالعدل » وحده بل « بالرحمة » أيضا ، وإلى جانب ذلك كانت هذه إلهة عانت تجربة الألم والحزن ، فهى لا تقدم يد العون فحسب ، بل تقدمها مشفوعة بالرحمة والشفقة . ولقد لقيت عقيدتها رواجاً عالمياً ، وأثار كهنتها بثيابهم البيضاء وأدواتهم المصرية الغريبة الفضول والرهبة . كما انتشرت معابد دياناتها فى جميع مدن الولايات الكبرى ، وكانت تماثيلها تزين فى الغالب بتقدمات وهدايا طائلة الثمن إلى حد يدعو إلى الدهشة ، ففى معبد بأسبانيا بالقرب من أشبيلية Seville — على سبيل المثال — أبى أحد المتعبدين إلا أن يكسو تمثال الإلهة إيزيس بأثمن الحلى وأفخرها ، فكان أن قدم لها إكليلا وقرطاً وقلادة وأساور وخواتم لأصابعها ، بالإضافة إلى اللآلىء والأحجار الكريمة التى ظهرت فى نسق يليق بعروس من القرون الوسطى .

ومع ذلك فإنه على الرغم مما حظيت به هذه الديانات من شيوع ونفوذ ، إلا أنه لم يكن لأى منها هيئة مركزية تتفرع إلى فروع ، وإلا لما سلمت من

نظرات الشك والريبة . فإن الحكومة الرومانية لم تكن تلق بالا لما قد يعتنقه المواطن من مبادئ ، فطالما أنه كان يسهم فى الاحتفالات الرسمية للدولة أولا وقبل كل شىء ، فله مطلق الحرية بعد ذلك فى أن يتعبد لأية آلهة أخرى ، على شرط ألا تكون عبادته هذه من العبادات التى تعتبر هدامة تخريبية أو من تلك التى يخشى منها أن تحول دون قيامه بواجباته الوطنية . وينبغى أن تتخذ جميع الديانات والجمعيات صفة العلانية وأن تكون مباحة للجميع : كما يحتم الحصول على موافقة المسئولين الحكوميين على طبيعة مثل هذه الجمعيات وقوانينها الداخلية ، أما إذا اجتمع رجال ونساء ببعضهم البعض فى جنح الظلام وفى سرية فلابد أنهم ينتوون شراً ويضمرون سوءاً . وكان شعور الرومانيين إزاء الاجتماعات الليلية السرية بصفة عامة ، هو أنها دون أدنى شك اجتماعات ثورية ، إن لم تكن منافية للآداب إلى جانب ذلك . ولذلك فإنه على الرغم مما كانت تبديه روما من تسامح بالنسبة لمعظم العقائد ، فقد كانت مضطرة بحكم شعورها الفطرى وتقاليدها أيضا إلى النظر نظرة ريبة وشك إلى مثل هذه الديانات ذات الصبغة القومية كاليهودية والدرويدية ، لا لسبب إلا لأن هاتين الديانتين كانتا ترتبطان أشد الارتباط بالحياة القومية لليهود والغاليين

وقد عمد الرومان ، فى أعقاب الثورة اليهودية التى نشبت عام ٦٦ ، إلى تدمير هيكل اليهود فى أورشليم لكى يشلوا نشاط هذا الدين ، فلم يبق أمام اليهود بعد ذلك إلا سبيلان هما إشعال نار الثورة ، فلا يلبث أن يسارع الرومان إلى قمعها ، كما حدث فى بعض الحالات ، أو أن ينصاعوا ويبدأوا العمل فى صون دينهم دون حاجة إلى الهيكل كما فعل يوحنا بن زكاى الذى لجأ إلى جامنيا jamnia (وتبعد مسافة ثلاثين ميلا تقريبا عن أورشليم) حيث واصل العبادة فى المجمع وبذلك ضمن الحياة والبقاء للديانة اليهودية .

ورغم أن الخراب والدمار قد لحق بأورشليم وهيكلها فقد ظل نصف

« الشاقل » الذى كان يؤديه كل يهودى ورع لخزينة الهيكل مستحقاً للدفع ، إلى الإله جوبيتر الرومانى فى هذه المرة . بيد أنه بقيت بعد ذلك مشكلة محيرة تتعلق بما ظهر فى صورة مذهب منبثق عن الدين اليهودى ، ألا وهو تلك العقيدة غير المشروعة التى كانت تمارسها طائفة من الرجال والنساء أطلق عليهم على سبيل السخرية « أتباع خريستوس » أو المسيح (Christiani) . وكان نيرون قد عاقب البعض منهم سنة ٦٤ بدعوى الحرق العمد ، ورغم أن نيرون لم يكن يحظى بسمعة طيبة إلا أن المواطن الرومانى العادى كان يشعر ، فيما يبدو ، أن المسيحيين ، حتى إن كانوا أبرياء من جريمة الحرق العمد ، إلا أنهم ينتظمون فى جماعة تحوم حولها الشبهات على نحو أو آخر . وأصبح إجراء نيرون سابقة تاريخية يمكن الاستناد إليها فى المستقبل .

كيف بدت هذه الديانة فى نظر الحكومة الرومانية ؟ إننا نعلم تمام العلم أن أتباع هذه الديانة كانوا يؤمنون بأنه قد تبدت لهم رؤيا جديدة عظيمة لله ، فى صورة الأب المحب لجميع البشر ، إذ ظهر الله نفسه فى جسد ابنه الذى عاش على الأرض كإنسان ، وعلم الناس « ببشارة الملكوت » وأيد تعاليمه بقوات وعجائب ، وحكم عليه الوالى الرومانى بالإعدام لارتيابه فى أنه حرض على الثورة ، إلا أنه كسر شوكة الموت وصعد مرة أخرى ، وقبل صعوده عن الأرض أسس مجتمعا جديداً تحكم علاقاته محبة الله والناس ، أما المسيحيون ، فقد كانوا يحيون ، بوحى من روحه القدس وفى انتظار مجيئه ، حياة صلاح ومحبة ، محققين رغبات سيدهم . أما بالنسبة للرومانيين الذين لم يكونوا يهتمون اهتماما كبيراً بأحوال ولاية اليهودية — حتى أن ما رواه المؤرخ تاكيتوس عن الديانة اليهودية انطوى على أخطاء مزرية — فإن مؤسس الدين المسيحى بدا فى نظرهم ثائراً متمرداً نفذ فيه حكم الإعدام بالفعل ، أما عن أتباعه فهم يمثلون طائفة ينذر نموها المتزايد بالخطر . ذلك لأن الحركة قد انتشرت

بسرعة مذهلة فى جميع أنحاء سورية وآسيا الصغرى وأحدقت بمدن تقع فى قلب بلاد اليونان ، بفضل حماس الرسل والتلاميذ الأوائل فى القيام بالتبشير ، حتى أنه بحلول عام ٦٠ بلغت الدعوة للدين المسيحى قصبة الإمبراطورية نفسها على يد بولس الرسول . وكان أوائل المعتنقين للدين الجديد من سكان المدن ، غير أن بلينى ، والى بيثينيا علم لعظيم دهشته وهلعه عام ١١٢ بأن العدوى قد سرت إلى القرى نفسها ، وهى التى كانت دائما أشد البقاع استمساكا بأهداب الدين ، وأن الشعب قد أخذ فى هجر الديانة القديمة . وكانت الدعوة إلى العقيدة الجديدة تبدو فى نظر الرومان ، مقترنة فى كل مكان بالاضطرابات وأعمال الشغب (وسفر أعمال الرسل يقدم لنا وفرة من الأدلة على ذلك) ، ثم إن امتناع أتباعها عن الاشتراك فى المناسبات والأعياد المدنيـة ، بالإضافة إلى طابع العزلة والانطواء الذى كان يبدو بخاصة على الأميين من المؤمنين ، وما جرى عليه المسيحيون من جمع الأموال لمعونة المرضى والمعوزين ، كل ذلك أثار الريبة فى النفوس ، وجر إلى نسج قصص تقول بالأعمال البشعة التى يمارسها هؤلاء وباختلاطهم وشذوذهم الجنسى ، وبأكلهم للحوم البشر وبتقديمهم الضحايا البشرية . ولعل ذلك يوضح الدافع الذى حدا بالوالى بلينى إلى ألا يسارع إلى إعدام من يقرون بأنهم أتباع للسيح Ohristiani فحسب ، بل من لم يستجيبوا إلى نداءات النصح بالتخلى عن عقيدتهم ، رغم أنه كان يطلق سراح المنكرين لهذه العقيدة ، على أن يثبتوا صدق دعواهم بأن يسبوا المسيح ويسجدوا أمام تمثال الإمبراطور . ولقد أيد نيرون هذا الإجراء عندما استشاره بلينى ، ورغم أن نيرون لم يكن من دأبه أن يقبل اتهامات مبهمة غير محددة « لأن فى ذلك ما يجافى روح العصر » فإنه أخذ برأى بلينى فى أن هؤلاء المسيحيين المتعلقين بعقيدتهم قد حق عليهم العقاب . ذلك لأن الامتناع عن تقديم فروض التكريم للآلهة الرومانية وتمثال قيصر إن هو إلا خيانة عظمى .

وهكذا بات الاعتراف باعتناق الديانة المسيحية قرابة عام ١٢٠ جرما قد يفضى إلى الموت . ولو أنه لم تكن هناك حركة قمع حكومية منظمة ، إلا أن الحاكم الفاشل أو الحاكم الذى لا يتمتع بحب الجماهير ، كان يجد أن من الأوفق إلى أقصى حد ، إذا ما واجه سخطا مصدره قلة المحاصيل أو الفيضانات ، أن يصرف أذهان الشعب إلى هذه الجماعة التى لا تبدى شعورا بالتعاون والتى تحوم حولها الشبهات . بيد أن من كانوا يقدمون للمحاكمة سواء كانوا متعلمين أو غير متعلمين ، رجالا أو نساء ، كانوا يؤثرون أن يساموا العذاب والموت بين أنياب الوحوش الضارية فى الملاعب العامة ، على أن ينكروا المسيح أو يسبوه ، ويبتهجون بالشهادة لمحبته وسلطانه (ومن هنا جاءت لفظة شهيد) . لقد صاح القديس بوليكارب Polycarp قائلا : « خدمت سيدى ستا وثمانين سنة ، ولم يسئ إلى قط ، فكيف لى أن أسب مليكى الذى خلصنى ؟ » . إن هناك سلسلة طويلة من « أعمال الشهداء » تحيى ذكرى محاكماتهم وأقوالهم ، وطريقة مقتلهم ، وكانت بعض هذه الأعمال قصيرة المبنى بسيطة المعنى مثل تلك التى كانت لدى أهل الريف فى سكيلى Scili فى أفريقيا ، حيث كان المتهمون يقابلون النطق بالحكم وهم يلهجون بالشكر لله ، وبعضها الآخر فيه إتقان وإحكام مثل رؤيا بيربتيوا perpetua ، غير أن هذه تشترك جميعا فى أنها مؤثرة تحز فى النفوس . وترتبت على هذه المحاكمات بمضى الزمن نتيجتان الأولى هى الإعجاب غير الصريح لدى الوثنيين بهذه البطولة والشجاعة وما نتج عن ذلك الإعجاب من إثارة الفضول إلى معرفة دوافع هذا الاستبسال وأسبابه ، والثانية هى قيام حركة دفاع منطق عن العقيدة المسيحية .

ومع أن ماركوس أوريليوس لم يلحظ عن المسيحيين غير صفة العناد السافر ، إلا أن معاصره غالين كان كريما فى الإشادة بهم ، فكتب يقول : « معظم الناس لا يستطيعون متابعة البراهين المنطقية التى تعتمد على الاستنتاج والاستنباط ،

ولذلك فهم فى حاجة لأن يتعلموا بضرب الأمثال . ولهذا نلحظ فى عصرنا هذا أن من يدعون بالمسيحيين يجمعون أطراف عقيدتهم من الأمثال . ومع ذلك فهم فى بعض الأحيان يتصرفون كما لو كانوا فلاسفة لحما ودما . أما عن ازدرائهم للموت فهو أمر نستطيع أن نشهده جميعا بأعين رءوسنا ، وفضلا عن ذلك فهم يأنفون ، بدافع من التواضع ، من الانسياق وراء الملذات الحسية ، وقد قطع بعضهم بالفعل أشواطا بعيدة فى مضمار ضبط النفس وحكمها وفى السعى الحثيث لبلوغ مرتبة الكمال ، إلى حد أصبحوا معه لا يقلون مثقال ذرة عن الفلاسفة الخلص » . كان هذا هو الشعور الذى انطبع فى ذهن العالم المدقق فما بالنا بالأثر الذى ترك فى أذهان الرجال والنساء ممن لا يحكمون العقل بل العاطفة . وقد حدث فى كثير من الأحيان أن تحركت نفوس الجنود القائمين بتنفيذ حكم الإعدام ، ودفعتهم إلى الاستفسار عن هذه العقيدة ثم إلى اعتناقهم إياها ، وكان استشهاد واحد من المسيحيين هو الذى حمل محاميا أفريقيا يدعى ترتوليان على الإيمان فى نهاية الأمر ، وقد أصبح ترتوليان بعد ذلك من أشد أنصار الدين المسيحى ، وأثبتهم على المحاجاة .

ومن ثم فقد كانت هذه هى النتيجة الثانية ، ألا وهى الدفاع عن العقيدة الجديدة ، والبرهنة على مسايرتها للعقل والمنطق . فعندما كثر عدد المسيحيين واجتذبوا بعض المثقفين إلى حظيرة كنيستهم ، قد شرع هؤلاء فى توجيه الرسائل إلى الأباطرة يبرهنون فيها على أنه ليس هناك ما يحول بين المسيحيين وبين أن يكونوا مواطنين مخلصين يحترمون القانون ، وإنهم فى الواقع لكذلك ، ويخبرونهم أيضا بالحياة الجديدة السعيدة التى تأتت لهم ، والعبرة كانت بالأعمال لا بالأقوال . قال أحدهم : « نحن لا نحسن الحديث المنمق السامى ولكننا نحيا حياة سامية » . ويعلن آخر : « إن المسيحيين يعيشون على الأرض ، أما مملكتهم فهى فى السماء . إنهم يحترمون القوانين الموضوعة ، بل يتجاوزون فى حياتهم

عدالة هذه القوانين » . ولكن هذا الأدب الدفاعى ، دفع بدوره إلى الهجوم الفعلى أو بالأحرى إلى الهجوم والاحتجاج »، فقد أخرج أحد الرومانيين ، ويدعى كلسوس Celsus عام ١٧٠ تقريبا مؤلفا أسماه « التقليد الحق » هاجم فيه من ناحية قصة الإنجيل التاريخية عن المسيح وشخصه وتعاليمه ، وناشد المسيحيين من ناحية أخرى ، بنبذ هذه الزلة الحمقاء والبدعة المستحدثة والعودة إلى « التقليد الحق » . ونادى بأنه لا سبيل إلى تجنب الأخطار التى تهدد الإمبراطورية من جانب البرابرة إلا بتكتيل الجهود وتوحيد صفوف الشعب (انظر الفصل التاسع) .

ولم يكن من شأن الهجوم العقلى المنطقى الذى رمى الديانة الجديدة بالنزق والجهل إلا أن أسفر عن دفاع عنها يستند إلى الحجة والمنطق ، كما نتج عنه أيضا هجوم مضاد يستهدف نزق الديانة الوثنية ومنافاتها لشريعة الآداب . وكان ظهور ترتوليان Tertullian فى أفريقيا وكليمنت Clement وأوريجن Origen فى الإسكندرية دليلا على أن المسيحية بدأت تستأثر بقلوب رجال من بين المفكرين والمثقفين والأثرياء . كان فى وسع ترتوليان أن يهيىء كل إمكانيات خبرته القانونية للدفاع عن الحياة المسيحية وشرح غوامضها ، وكان فى مقدور كليمنت أن يستغل علمه الرفيع الآسر لكى يصبغ المسيحية بصبغة فلسفية ، أما أوريجن فقد قدم بين يدى الكنيسة ، نظرا لطاقته الكبيرة وعلمه الغزير ، نصوصا صحيحة ، وشروحا وفيرة ، وعلما لاهوتيا يقوم على أساس الاستدلال والاستنتاج (فى تأملات جريئة إلى حد بعيد) . كما نشر أيضا كتيبا للرد على كلسوس ، وأتاح لنا كتيبه هذا ، لما تضمنه من فقرات كبيرة من أقوال كلسوس والحجج التى ساقها ، أن نستعيد محتويات كتاب « التقليد الحق » الذى كان سيضيع تماما لو لم ينشر أوريجن رده .

وانفردت هذه العقيدة بخاصيتين لم تتوافرا لغيرها من العقائد ، أولاهما

جماعتها المنظمة المراعية لسنن الدين ، وروح الخير والبر التى تظل الجميع .
لقد دعا كليمنت من روما (عام ٩٠ تقريباً) المسيحيين إلى أن يحذوا حذو الفرق الرومانية ويتمثلوا بروحها ، فهم فى ائتلافهم وولائهم للضباط المتولين عليهم — أى الأساقفة والقساوسة والشمامسة — وفى الاتصال الدائم بين جماعاتهم المختلفة ، أشبه بالجيش ، والاستعارات العسكرية شائعة معروفة . ووجدت مشاعر المحبة المتبادلة مخرجاً ومتنفساً لها فى الصدقات والهبات المنظمة . أطعموا الجائع واسقوا العطشان وآووا الغريب واكسوا العريان وزوروا المريض والمحبوس ، كانت هذه هى وصايا ربهم وإلههم (متى ٢٥ : ٣٤ — ٤٠) ، ولذلك فهى وصايا مطاعة طاعة حبور ومحبة . وكان ينظر إلى الافتقار إلى روح المحبة والتعاطف على أنه دليل على الضلال والزيغ . إذ كتب إجناتيوس Ignatius يقول : « انظروا إلى هؤلاء الذين يحملون أفكاراً خاطئة عن محبة المسيح ، كيف أنهم يخالفون مشيئة الأب . إنهم لا يبالون بالمحبة ولا يأبهون بأرملة أو يتيم أو إنسان فى ضائقة ، وهم لا يهتمون بالسجين أو الكسيح ، أو الجائع أو العطشان . ويتنحون بعيدا عن السر المقدس والصلاة . . . » .
وبعد ذلك بأعوام عندما اجتاح قرطاجنة الوباء وشاع فيها الخراب والدمار ، ولاذ بالفرار من المدينة الموبوءة من استطاع ، بقيت الجالية المسيحية (تحت قيادة كيبريان Cyprian الموحية) صامدة ثابتة لتواصل أعمال الإغاثة ، كما أسهمت بمبلغ كبير لافتداء النساء والأطفال الذين أسرهم الغزاة النوميديون . قد تكون موارد المسيحيين ضئيلة ، لأن كثيرين منهم لم يأخذوا بقسط من التعليم ، كما كانت اجتماعاتهم تعقد فى دور خاصة ، سرا وخفية (لأن مبانى الكنائس لم تكن قد وجدت بعد) غير أن ذلك لم يفت فى عضدهم أو يؤثر فى روحهم المعنوية . كان بوسعهم أن يرحلوا إلى أى مكان دون ما عائق ، واستطاعوا أن ينظموا أنفسهم ، بفضل الاجتماعات والمجامع التى كانت تعقد بقصد تبادل

الخبرات ومناقشة المشاكل ، فى جماعة مترابطة متماسكة متينة البناء ، قوية الإيمان بالله وعظيمة الثقة بنفسها . ودعت الحاجة إلى الإكثار من المجامع والاجتماعات بين مختلف الجماعات ، ذلك لأن الدين المسيحى (شأنه شأن جميع الحركات الروحية الجديدة) بدأ فى التلوث فى محيطه الخارجى ، بجماعات غريبة متطرفة ، فظهر هناك الغيبيون والأدريون الذين كانوا يأملون فى أن يصلوا إلى المعرفة الإلهية بالتأمل والصوم والاستغراق ، أو هؤلاء المتزمتون الذين كانوا يأبون إلا أن يمتنعوا عن القيام بأبسط صور النشاط البشرى وأبعدها عن الضرر . بيد أن عقد المجامع كان معناه أنه لم يكن هناك من مكان يخلو من قلب مركزى قوى شديد التمسك بالتقاليد القويمة .

وكان المسيحيون قد بدأوا منذ ذلك التاريخ ينتزعون شيئا من الإعجاب غير الصريح من جانب جيرانهم الوثنيين . فكان هؤلاء يقولون : « رجل طيب حقاً ، فلان بن فلان ، إنه مسيحى » أو « انظروا كيف يحبون بعضهم بعضاً » . ورغم أن الشهادة بالدين المسيحى كانت تنطوى على الموت ، إلا أن جماعة المسيحيين كانت تنمو وتكثر فى سرعة مذهلة . وما إن انتصف القرن الثالث أو كاد حتى أصبح المسرح مهيئا لاختبار للقوة بين أتباع الديانة التقليدية القديمة والمؤمنين بالعقيدة الجديدة .

الفصل التاسع
سنوات الخطر

يمثل عهد سبتيميوس سيفيروس (١٩٣ — ٢١١) نقطة تحول فى تاريخ الإمبراطورية . فقد كان عليه لبلوغ السلطة العليا أن يبز فى مضمار الدهاء والمكر ، خصمين من خصومه أحدهما ظهر فى بريطانيا والآخر فى سورية ، وأن يتغلب عليهما أيضا ، وهكذا اهتزت أركان الإمبراطورية واضطربت أحوالها بنشوب الحروب الأهلية ، كما اختل - علاوة على ذلك الميزان - الاقتصادى بازدياد رقعة الضياع الخاصة التى يمتلكها الإمبراطور — إلى حد كبير نتيجة لمصادرته ممتلكات خصومه . ولا سبيل إلى إنكار ما تحلى به من صفات حميدة تجلت فى قيادة رشيدة ونفاذ بصيرة وعزم وتصميم ، غير أن وحشيته وبطشه بخصومه قد جرا إلى انكماش البقية الباقية من طبقة النبلاء المثقفين الذين كانوا يحيطون بالإمبراطور فى القديم مما أوجب عليه الالتجاء فى اختيار حكامه وولاته إلى طبقة أخرى تختلف عن سالفتها فى النشأة والنظرة إلى الحياة ، على حين أن الثراء الهائل الذى رفل فيه العرش جعله محطاً الأنظار ومطمع كل قائد طموح . ولما كان سبتيميوس واقعى النظرة ، فقد تبين الأخطار التى ينطوى عليها المستقبل ، وأدرك الأهمية الحيوية البالغة التى ترتبط بتكوين جيش كبير يدين له بالولاء ، ولم يعمد سبتيميوس ، رغبة منه فى ضمان ولاء الجيش له إلى رفع راتب الجندى فحسب ، بل سمح له فيما يرجح بعقد قران رومانى شرعى أثناء مدة خدمته ، وبأن يعيش خارج الثكنات ، ومن ثم يصبح أبناؤه مواطنين رومانيين يتمتعون بكافة حقوق المواطنة الرومانية ،

كما لا يعدم أن يتبع هؤلاء الأبناء حرفة آبائهم . كانت نصيحة سبتيميوس لولديه وهو على فراش الموت « تضامنا وانقدا قواتكما عن سخاء .. وماعليكما بعد ذلك أن تهتما بشيء آخر » . لقد كان نصحاً يتفق وحال دولة توشك أن تقاتل من أجل حياتها ووجودها ، وفى وقت هى فى أشد الحاجة فيه إلى أن تعبىء جميع إمكانياتها ومواردها من الرجال والمال والمتاع للذود عن حدودها . وفى مثل هذه الأحوال الطارئة كان للولاء التام وتآلف النفوس والأفهام ، أهمية بالغة ، كما لم يكن الإمبراطور هو الذى تنبه وحده إلى الخطر المحدق ، فقد وجه كلسوس قرابة عام ١٨٠ رسالة بعنوان « التقليد الحق » لمناشدة المسيحيين الرجوع إلى سواء السبيل ، وقد كان كلسوس رجلا مثقفاً مفكراً ، درس بعض الوثائق المسيحية ، وهاله ما اعتبره طبيعة هدامة تنذر بالشر والويل (انظر الفصل الثالث) . وقد أخذ كلسوس على عاتقه ، خشية أن تنبت داخل حدود الإمبراطورية جماعة عنيدة غير متعاونة ، ترفض الانضمام إلى عبادات الدولة ، ولا تلتزم بالتقاليد المعروفة ، أن يقارع المسيحيين الحجة بالحجة وأن يكسبهم إلى جانب الحكمة والصواب . وأشار إلى ما بدا له فى العقيدة المسيحية من قبيل السخافات والأباطيل ، فقال إن الفكرة ذاتها التى تقول بنزول إله ما من الأعالى لكى يشاطر الإنسان حياته الشقية الكادحة ، لفكرة عجوجة ، غريبة على الطبائع الإلهية . وهل من إله عاقل يواجه عامداً الآلام والعذاب والموت ؟ كم هو قائد مهين ذلك الذى يتخلى عنه جنوده فى اللحظة الأخيرة ! إن ما ينبغى على المسيحيين أن يفعلوه هو أن ينبذوا هذه الحماقات وأن يعودوا إلى عقيدة آبائهم التقليدية وما درج عليه أسلافهم ، حتى يتسنى جمع الكلمة وتوحيد الصفوف تحت لواء الإمبراطور ، لصد العدو البربرى ، وبذلك يتيسر صون الإمبراطورية وصون شعوبها وصون عقائدها (بما فيها عقيدتهم المسيحية) من الدمار والعدم .

وما من شك فى أن الإمبراطور كارا كالا ابن سبتيميوس سيفيروس كان

يضع نصب عينيه هذه الأهداف ذاتها عندما خطا فى عام ٢١٢ تلك الخطوة المشهودة فى منحه حقوق المواطنة الرومانية بالفعل لجميع السكان الأحرار فى الإمبراطورية . ولن تغض بحال ، نظرة السخرية التى تنظرها فى العصر الحديث إذ تقول إن مقصد كاراكالا كان زيادة عدد دافعى الضرائب الذين يسهمون فى نفقات الإمبراطورية بزيادة عدد من يحملون حقوق المواطنة الرومانية ، لن تغض بحال من شأن هذه الخطوة الكريمة واللفتة النبيلة ، التى كانت المرمى البعيد لسياسة مدروسة مرسومة فيما يختص بمنح حقوق المواطنة الرومانية والتى كان لها أن تستأثر بأخيلة الأجيال المتأخرة . ومما يجدر بالملاحظة تلك الإشارة التى أوردها كاراكالا فى ديباجة مرسومة إذ يقول إن الآلهة الرومانية خليقة بأن تبتهج بذبائح الشكر التى يقدمها هذا الحشد من المواطنين الجدد . إن اشتراك الجميع فى عبادة الآلهة الرومانية ، إن هو إلا رمز ودليل على وحدة الإمبراطورية ، وهو قمين بأن يحفظ رضاء الآلهة ويكفل حمايتها للإمبراطورية من كل خطر يتهددها .

كانت نواقيس الخطر قد دقت خلال السنوات الأولى من القرن الثالث . وطرق سبيل الهبات والمنح التى تدفع للبرابرة ، بيد أن هذه لم تلبث أن تضخمت وبهظت إلى حد كان لكاراكالا أن يعلن معه أنها قد أصبحت تساوى نفقات الجيش بأكمله . وفى النهاية لم تعد تجدى الرشوة ، وهبت العاصفة بعد عام ٢٤٠ هوجاء لا تبقى ولا تذر ، وتدفقت حشود البرابرة على الحدود كالسيل الجارف من كل جانب ، ففى الغرب تدفق البرابرة إلى سويسرا وفرنسا ، بعد أن عبروا نهر الرين ، عامدين إلى السلب والنهب وسفك الدماء ، وأخذ الفرنجة طريق البحر ، وأغاروا على الشاطئ الشرقى لأسبانيا ، أما فى الجهة الشمالية الشرقية ، فقد وصل القوطيون — وهم يتتبعون المجارى المتجهة صوب الجنوب من الأنهار الروسية — إلى البحر الأسود ، وأوقعوا الهزيمة بالجيوش الرومانية فى شبه

جزيرة البلقان ، تحت قيادة ملكهم كنيفا Kniva ، بل قتلوا الإمبراطور ديكيوس Decius (٢٥١) . ثم أجبروا السكان الوطنيين على بناء السفن ومدهم بالناقلات فأغاروا بها على شاطئ بونتوس Pontus (شمال شرقى آسيا الصغرى) وإذ ازدادوا جرأة وجسارة ، شقوا طريقهم فى بحر إيجة ، مستبيحين الجزر والمدن . وسارعت ميليتس وأفسس وأثينا وأزمير وغيرها من المدن القديمة الشهيرة التى لم تشهد أى صدام مسلح منذ قرون ، إلى إعادة بناء أسوارها وارتجال الاستحكامات ووسائل الدفاع . أما فى الشرق ، فقد واجهت روما الأسرة المالكة الساسانية الفتية التى أطاحت بحكم بارثيا وهددت الولايات الواقعة على الحدود بالخطر . ولم يوقع ملكهم الجديد العظيم سابور الأول Sapor I الهزيمة بالجيوش الرومانية فحسب ، بل إنه أسر فى عام ٢٦٠ بالفعل الإمبراطور فاليريان Valerian حيا .

وهكذا انتهكت خطوط الدفاع الرومانية فى ثلاثة جوانب ، وكان وقوع الهجمات فى وقت واحد شديد الوطأة على الإمبراطورية . لقد كان واضعوا الخطط العسكرية الأوائل فى الإمبراطورية ، وهم يدعون ألا يتحد البرابرة قط ، ويلجأون إلى الحيل السياسية لدعم هذا الرجاء أيضا ، يكتفون بعدد ضئيل من الفرق بشرط نشرها فى مواقع حربية ممتازة والاستعانة بنظام محكم للمواصلات ، وكانوا على استعداد لأن يجردوا — بصفة وقتية — القوات الدفاعية عن منطقة من المناطق كى يدفعوا بالإمدادات إلى منطقة أخرى . بيد أنه لم يعد فى الوسع الإسراع بنقل الفرق من الغرب لمساعدة الشرق ، فقد شغل الجميع على حد سواء . وثالثة الأثافى أن الإمبراطور لم يكن عليه فحسب أن يواجه البرابرة المغيرين من الخارج ، بل كان عليه أيضا أن يعالج أمر المتمردين فى الداخل ، الطامعين فى عرش الإمبراطورية . وقد اعتبر رئيس المدينة التجارية العظيمة تدمر Palmyra ، وهو أوديناثوس Odenathus نظراً

لخدماته ، حليفاً لروما ومندوباً لها ، ولكنه ما لبث أن ازداد غروراً وطموحاً. فما إن حل عام ٢٦٨ حتى كانت أرملته زنوبيا Zenobia قد احتلت سوريا ومصر وبذلك سيطرت على أعظم مصدر للقمح الذى تزود به إيطاليا والعاصمة الرومانية ، هذا وإن كانت مقاطعة إفريقيا ظلت سالمة . واجتاح الوباء الإمبراطورية ، علاوة على ذلك بين عامى ٢٥١ و ٢٦٦ .

وكان الموقف خطيراً للغاية . فقد قتل القوطيون أحد الأباطرة وأسر الساسانيون آخر ، وانتهكت استحكامات الحدود فى عدة مناطق ، بل أغرى ضعف الإمبراطورية ذاته حشوداً جديدة من الغزاة ، ولما كانت الحاجة ماسة إلى القوات المتمرسة للدفاع عن المراكز الهامة للمواصلات ، فقد اقتضى الأمر ائتمان فرق أقل دربة وقوة على الحدود أو تركها فى حراسة مستعمرات كان أهلها من البرابرة فى الأصل . ولم يكن بد من بذل بعض التضحيات ، وهكذا انسحب الإمبراطور أوريليان (٢٧٠ — ٢٧٥) فى الجزء الشمالى الشرقى إلى ماوراء نهر الدانوب وتخلى عن داكيا وإن لم يسلم لبريطانيا . وكان على الأباطرة فى بعض الأحيان ، بدلا من أن يوجهوا البرابرة ، أن ينقلبوا أولا على الطامعين فى العرش ، ولو أنه يحدث فى بعض الأحيان أن ينفض بعض الجنود من حول قائدهم الذى رفعوه هم أنفسهم إلى كرسى الحكم ، أو يقتلوه غيلة ، كى لا يواجهوا حرباً أهلية . وأخذ البرابرة الكثيرين من السكان المدنيين عبيدا أرقاء فى بلادهم ، وجردت الحقول من العمال ، بل إن من بقى من الزراع فى عمله فى المناطق الآمنة بعض الشىء أنهكته مطالب الموظفين وسرقات الجنود اليائسين المتعمدة المباشرة ، وانخفضت قيمة الفضة العادية إلى حد أصبحت معه معدومة القيمة تماماً (انظر الفصل الرابع) ، وأضرب عمال سك النقود فى روما عامى ٢٧٠ و ٢٧١ عن العمل ، ولم يكن بد من تهدئتهم بمعركة مسلحة ، وبذلت الطبقات الغنية جهودا يائسة للتملص من التكاليف الوبيلة التى يتحملها أفرادها عند توليهم الوظائف العامة .

كان هذا هو الموقف خلال الفترة الكئيبة العصيبة بين عامى ٢٥٠ و ٢٧٠ . وكان من حسن الطالع أن ظهر هناك أباطرة لم يقطعوا الأمل قط فى قضية الجمهورية ، وجنود مدربون متمرسون نخورون أيضاً أشد الفخر بالفضائل الرومانية ، وبذلك أمكن بجهود بطولية — تحت إمرة قواد أفذاذ مثل أوريليان وكلوديوس الثانى وبروبوس ودقلديانوس — أن يوقف فى النهاية تيار الغزو ، وأن تستعيد الإمبراطورية المتداعية وحدتها . وكان الجنود والقواد على حد سواء يفدون فى الغالب من إليريكوم Illyricum (وهى أراضى البلقان) وكانت نقودهم تحمل أسطورة الفخار التى تقول «ببسالة إليريكوم» Virtus Illurici كما أن صورة الذئبة ترضع توأميها التى تحملها هذه العملات تدل على أن هؤلاء الريفيين المتشبعين بالروح الرومانية كانوا يشعرون بأن بسالتهم وشجاعتهم تستوى مع تلك التى كانت للجنس الرومانى ، وأنهم جديرون بالذود عن مدينة صمدت عشرة قرون . وإن كان قوادهم ، الذين لم يعودوا بعد شيوخاً أو نبلاء، بل كانوا جنوداً نشأة ومولداً ، يفتقرون إلى الثقافة وإلى علم بالأسس الاقتصادية ، إلا أنهم أقدموا بالفعل على اتخاذ تدابير حاسمة فى موقف كان جد خطير ، كما دلت إصلاحاتهم التى انتهت بالصورة الجديدة التى ظهرت عليها الإمبراطورية فى عهد دقلديانوس على أن فى وسعهم أن يأخذوا العبرة من أخطاء الماضى وأن ينقلوا ما يصلح من خبرات أعدائهم . ولكنه ينبغى قبل أن نشرع فى سرد هذه الوقائع ، أن نعود إلى الصدام بين الحكومة والمسيحيين، الأمر الذى زاد من مرارة هذه السنوات العصيبة .

بالرغم من أن المسيحيين ظلوا هدفاً للشك والريبة منذ أن أنزل بهم نيرون العقاب بدعوى الحرق العمد ، إلا أنهم لم يتعرضوا حتى هذا الحين لأى نوع من الاضطهاد الحكومى الواسع النطاق . قد تفلح الأحقاد الشخصية فى بعض الأحيان فى إثبات إدانة الخصوم ، وقد يلجأ إلى ذلك بعض الموظفين

ممن لا يحظون بحب الجماهير ليصرفوا الأنظار عن مساوئهم ، وعلى أية حال فإن هذه الطائفة كانت تنمو وتزداد ، وضمت إلى صفوفها رجالا مثقفين متفقهين (هكذا كان أناتوليوس ، على سبيل المثال ، فرغم أنه كان مسيحيا إلا أنه كان على قدر من سعة العلم والاطلاع حدت إلى دعوته إلى نظارة المدرسة الأرسطالية فى الإسكندرية) ، وكان فى وسع الكثيرين منهم أن يتوجهوا بالالتماسات إلى السلطات الحاكمة وأن يؤلفوا لجمهور القراء وثائق مكتوبة فى الدفاع عن العقيدة المسيحية . وقد أشرنا من قبل إلى أسماء البعض منهم (انظر الفصل الثامن) ، ويطالعنا فى القرن الثالث رجلان بلغا أقصى ما يمكن أن يبلغه عالم وثنى من علم ، استغلا علمهما وملكات الشرح والتوضيح لديهما فى مناصرة الديانة والدفاع عن قضيتها . وكان كلاهما من الإسكندرية . ويأخذنا أولهما ويدعى كليمنت بتسامحه الكبير وسعة أفقه ، فمن رأيه أن القانون قد مهد السبيل لمعرفة طريق السيد المسيح ، وأن الفلسفة كانت هاديا لليونانيين إليه ، قال : « إن الطريق إلى الحق واحد ، بيد أنه كالنهر الذى يجرى على مدار السنة ، تتدفق إليه قنوات لا حصر لها من كل حدب وصوب » . كما يستنبط من العنوان الذى وضعه لواحد من مؤلفاته والذى يقول : « كيف يمكن للرجل الغنى أن يخلص ؟ » ، إن أثرياء ومثقفين من الرجال والنساء قد أخذوا إبان هذه الفترة فى الانضمام إلى صفوف الكنيسة ، لحرص كليمنت على أن يعلم هؤلاء كيف يستغلون ثرواتهم على النحو الصحيح . أما أوريجن Origen ، فإنه رغم افتقاره إلى طلاوة الأسلوب ودماثة الخلق اللذين كانا لسلفه فإنه كان مفكراً بعيد الغور ، ومصلحا عظيم الطاقة ، ولعله كان أيضا أول عالم لاهوتى مدقق فى الكنيسة المسيحية . ولقد سبق أن تحدثنا عن تعليقاته وشروحه للكتاب المقدس وعن دحضه لحجج كلسوس (انظر الفصل الثامن) . ولما كان مفعما بالإيمان الصادق بأن النصر سيكتب فى النهاية لمشيئة الآب فى المحبة ، فقد كان له أن ينغمس فى تأملات ذهنية بلغت حد الجرأة ، كما لم يتردد فى أن يشير إلى سخف تفسير

بعض نصوص الكتاب المقدس تفسيراً حرفيا ، كما هو حال الإصحاح الأول من سفر التكوين . ولعل معالجته للمشكلة التى حار فيها بالفعل علماء عصره ، وهى المشكلة المتعلقة بحقيقة كاتب « الرسالة إلى العبرانيين » تكشف لنا عن منهجه النقدى وعن تعقله واتزانه . فبعد أن يشير إلى أنه لابد لأى امرئ فى مقدوره إدراك الفروق بين أسلوب وآخر أن يلحظ على الفور أن الأسلوب اليونانى الذى كتبت به الرسالة أنصع فى الواقع من أسلوب بولس المعروف ، برغم أن المشاعر التى أعرب عنها لا تقل قوة بحال عن المشاعر التى وردت فى كتابات الرسل الموثوق بها والمقطوع بصحتها ، يدلى بوجهة نظر خاصة فيقول : « إن الأفكار هى أفكار بولس الرسول غير أن الأسلوب وطريقة التعبير هما لشخص تذكر تعاليم الرسول ، ثم أخذ يكتب فى فسحة من الوقت ما قاله معلمه . وعلى ذلك فإذا نادت كنيسة بأن هـذه الرسالة هى من وضع بولس الرسول ، فلتحمد على ذلك ، لأن الواقع أن الأولين لم يسلموها للأجيال التالية قائلين جزافا بأنها له . أما عن الكاتب الفعلى للرسالة فعلم ذلك عند الله وحده » . ولم يكن هناك بأس من أن يؤمن رجال علم وثقافة كهذين الرجلين ، بالقوة الكامنة فى الإقناع بالنقاش والمحاجاة وأن يراودهم الأمل فى كسب العالم الرومانى فى النهاية إلى الدين المسيحى بهذه الوسيلة . والواقع أن بعض أقطاب المسيحية مثل الأسقف ميليتو Melito أسقف سارديس Sardes كانوا على استعداد فيما يبدو للتفاوض مع الحكومة للوصول إلى نوع من « التوفيق » .

ولكن عداء الحكومة ما لبث أن ازداد ، كما لو كان الأمر خارجا عن إرادتها ، باقتراب الأخطار التى تهددت الدولة . ففى ٢١ أبريل سنة ٢٤٧ أحيت روما ذكرى العام الألفى لإنشائها بإقامة احتفال عظيم قدمت فيه النذور وآيات الشكر لآلهتها . وقد طلب إبانها الإمبراطور ديكيوس القائم بالحكم آنذاك إلى جميع المواطنين أن يظهروا روحا جماعية مؤتلفة ويعربوا عن ولائهم

بالاشتراك فى هذه الذبائح ، وسارع كل من رغب فى أن يبعد الشبهة عنه أو شاء أن يعلن على الملأ عن إيمانه ، إلى استخراج « شهادة التضحية » من السلطة المختصة ، وقد آل إلينا عدد من هذه الشهادات على أوراق بردية . ولكنه لما لم يكن فى وسع المسيحيين أن يعبدوا الآلهة الوثنية — برغم أن بعضهم كان على جانب من الثراء ونفاذ البصيرة بحيث عول على شراء مثل هذه الشهادات دون الالتزام بفروض العبادة الوثنية — فقد صبت الحكومة جام غضبها عليهم ، وبرغم أن ديكيوس توفى بعد فترة وجيزة (٢٥١) إلا أن الإمبراطور فاليريان Valerian واصل سياسته . ولقد بلغ الاضطهاد والعنف فى منطقة من المناطق هى بونتوس — ولو أن ذلك لم يحدث إلا فى هذه المنطقة وحدها — درجة سوغت لبعض سكانها من المسيحيين ، إما عن سخط أو يأس ، أن يعاونوا بالفعل الغزاة بإرشادهم إلى الطرق الداخلية فى البلاد أو بإخبارهم بمواضع الضياع الغنية (انظر الفصل الثالث) .

بيد أن الامبراطور جاليانوس Gallienus أمر فى عام ٢٦٠ بوقف الهجوم وسمح للمسيحيين ببناء الكنائس وامتلاك العقارات ، فلم يعد بهم حاجة إلى الاجتماع فى الدور الخاصة سرا وخفية ، وأصبح فى الإمكان توجيه أموال الصدقات إلى بناء الكنائس وتأثيثها وتزيينها . وإن ضخامة كنيسة نيكوميديا Nicomedia أو روعة الآنية والأثاث الذى زودت به كنيسة كيرتا Cirta بإفريقيا التى كانت تحتوى عند مصادرتها فى عام ٣٠٣ ست كؤوس فضية مع الشمعدانات والمصابيح ، ليدلان على مدى استجابة المسيحيين الموقف الجديد من جانب الحكومة الرومانية . وسارت عملية « التوفيق » فى تدرج بطىء ، فشرعت الطائفة فى نبذ بعض مظاهر انطوائها القديم ، وانخرط المسيحيون فى جيوش الإمبراطورية وعمل بعضهم فى مجالس البلديات وتقلدوا الوظائف العامة ، بل تولى بعضهم مناصب كهنوتية وثنية . والجدير بالذكر أنه كان فى وسع المدافعين

عن المسيحية أن يشيروا فى فخر إلى أن تاريخ الجاليات المسيحية يتسم فى معظمه بالولاء للحاكم ، فلم يتآزر المسيحيون قط ، فيما عدا الحالة الوحيدة الخاصة ببعض المزارعين فى بونتوس ، مع عـــدو أيا كان ، كما لم يظاهر مسيحيون خائنا .

وقبل أن نتناول بالحديث الأسباب التى حالت دون إتمام التوفيق المنشود ، ينبغى أن نعرج على ذلك العمل الفذ الذى حققه الأباطرة المحاربون العظام ؛ ألا وهو استعادة وحدة الإمبراطورية . لم يكن بغريب أن يحسب الناس خلال الفترة الحالكة التى مرت بها روما عامى ٢٥٠ و ٢٧٠ أن روما قد يقضى عليها قضاء مبرما . فقد خرب القوطيون المدن الواقعة على بحر إيجة واستباح الفرنجة مدن أسبانيا ، وبدأت الغزوات على بريطانيا من جانب الساكسونيين والإيرلنديين ، وإن كنوز قطع العملة المخبأة لأبلغ دليل على الذعر والانكسار ، لأن هـذه دفنها أصحابها المرتاعون المذعورون على أمل أن يعودوا لاستردادها يوما ما .. لكنهم لم يعودوا قط . وأطل الطامعون والمطالبون بعرش الإمبراطورية برؤوسهم من كل مكان ، بعضهم كان يعمل بدافع من أطماعه الخاصة ، والبعض الآخر رفعته جماعة ساخطة من الجيش ، فظهر فى الغال بوستوموس Postumus وتتريكوس Tetricus وادعى فابالاث Vapallath فى تدمر بأحقيته فى عرش الإمبراطورية . ولكن هذه الحركات لم تكن فى غالبيتها تهدف إلى الاستقلال أو الانفصال عن الامبراطورية ، والواقع أن الولايات وبخاصة الجنود الذين ولدوا بهـا ، قد هبوا لنجدة الإمبراطورية فى تمثل للروح الرومانية يكاد يبلغ حد المغالاة والشطط . وكان القواد المحليون يسيطرون ، كما هى الحال ، على أجزاء من المحيط الخارجى بينما كان الأباطرة يخوضون غمار المعركة فى قلب الخطوط الدفاعية ذاتها . إن الحقيقة الماثلة فى أن هذه الأجزاء الصلدة من الإمبراطورية قد نهضت للوقوف فى وجه الأعداء ، ونظمت استحكاماتها الخاصة بهـا ؛

لتدل على أن لفتة كاركالا الكريمة قد لقيت جزاء وفاقا، وعلى أن المواطنين الرومانيين الجدد كانوا على استعداد، لا لأن يمارسوا ما للمواطنة الرومانية من حقوق بل يضطلعوا أيضا بما تفرضه من واجبات . ولم يقم هناك أى دليل على رغبتهم فى الانفصال أو شق عصا الطاعة ، كما لم تحدثهم أنفسهم قط بالانضمام إلى الغزاة ، وقد خطت كثير من الولايات — بمحض إرادتها — خطوات جريئة . ويمكن القول بأن الحكومة لم تقدر بالفعل عظم الطاقة والحماس اللذين كانا لهؤلاء السكان المحليين ، وأنها لم تولهم ما هم جديرون به من ثقة ، وفى هذه النقطة بالذات يظهر سوء تصرف الحكام فى معالجة الموقف .

ومع أنه كان فى وسع القواد والوحدات الإقليمية أن توقف زحف المغيرين — بصفة مؤقتة — إلا أنه كان فى استطاعة الجيش النظامى وحده ، بقوته وتماسكه وروحه العالية ، أن يصدهم ثم يوقع الهزيمة بهم ، وتطلبت الأحوال الجديدة تعديل نظم الجيش الرومانى البائدة تعديلا كليا، وتغيير خططه وأسلحته . ولعل جاليانوس كان أول من وعى الدرس وأول من أدخل تعديلات ماسة . لم يكن سلاح الفرسان قط من الأسلحة القوية التى يعول عليها فى الجيش ، وكان يزود عادة بفرق من القوات المساعدة ، فأنشأ جاليانوس لمواجهة ضرورة جديدة سلاحا للفرسان Equites (جندوا من دالماشيا) يخضع لقيادته مباشرة ، مقره ميلانو التى كانت تمثل مركزاً هاما للمواصلات . كما أخذ عن الفرس نظام الفرسان الذين يحملون الأسلحة الثقيلة Catafractarii (أى القوات المدرعة التى كانت دروع السلاسل تستر فيها كلا من الفارس وجواده) والرماحين الذين يتسلحون بمثل أسلحتهم والذين ظهر خطرهم واضحا أمام أعين القواد الرومانيين إبان صراع روما مع بلاد فارس . كما لم يعد هناك غناء عن رماة السهام الراكبين ، وكانت روما تجند خيرة رماتها من بين أبناء المنطقة الشرقية ، من مملكة أزروهوين Osrhoene الصغيرة . ولم تظهر أهمية هذه

التشكيلات إلا فى أواخر القرن الثالث ، كما كون جاليانوس ، بالإضافة إلى ذلك جماعات جديدة من الحرس الخاص (Protectores divini lateris) ينتقون من بين كبار الضباط للقيام بالخدمة فى مقر قيادة الإمبراطور ، وبذلك تحولت هذه الجماعة إلى ما يشبه كلية أركان حرب لتخريج القواد العظام .

وهكذا يتضح أن القواد الرومانيين ، المحافظين على تقاليدهم ، لم يكونوا يتعلمون من هزائمهم فحسب ، بل ينقلون عن أعدائهم أيضا ، كما كان لوقع الغزوات آثار أخرى . فقد باتت المدن التى لم تشعر قط منذ قرون بالحاجة إلى الوقاية ، والتى تجاوز عمرانها نطاق أسوارها القديمة ، تواجه مشكلة عاجلة تتعلق بإقامة التحصينات ووسائل الدفاع . وأصبح من الضرورى إقامة الأسوار الجديدة على جناح السرعة ، وهذه لم تكن تهدف إلى تمكين المدن من الصمود أمام الحصار ، لأن البرابرة لم يعرفوا شيئا عن فنون الحصار ووسائله ، بقدر ما كانت تهدف إلى معونتها على حماية نفسها من الفرسان المغيرين، فقد كانت الحاجة تدعو إلى العوائق الفعالة لا إلى التحصينات المنظمة المحكمة . ولعل أشهر الأمثلة على ما حدث هو ذلك السور الهائل الجديد البالغ طول قطره اثنى عشر ميلا ، والذى بنته أيدى مدنية لا أيدى عسكرية مدربة ، والذى أحاط به الإمبراطور أوريليان مدينة روما . غير أنه كلما توالت الاختراعات الجديدة ، على مر الزمن ، ظهرت أسلحة أخرى للهجوم والدفاع . فقد طور المهندسون الرومانيون أنواعا مختلفة من آلات إطلاق القذائف المعتمدة على قوة ضغط الحبال المفتولة ، فكان سلاح المدفعية هذا يتألف من المنجانيقات catapultae (والفلقة التى يعرفها جيدا كل تلميذ بالمدرسة هى صورة مبسطة لها) والـ ballistae (التى أطلق اسمها على علم المنجانيقات) ، والبغال ، onagri (وسميت كذلك لشدة ركلها وعنفه) التى كانت باستطاعتها أن تقذف أحجارا يبلغ وزنها ١٠٠ رطلا فضلا عن مداها الذى يصل إلى مسافة ٨٠٠ قدم . وكان فى الإمكان

استخدامها أول الأمر ضد المهاجمين من البرابرة ، ومن ثم أصبح من الضرورى إعادة بناء أسوار القلاع المتاخمة للحدود كى تسمح بإقامة قواعد تستطيع تحمل ثقل هذه الآلات وقوة ارتدادها . وبعد هذا التاريخ أيضا جرى تحصين المراكز الهامة والعواصم العسكرية بتطبيق نظام محكم للأسوار المزودة بالشرفات والفتحات التى تنصب عليها المدفعية ، بالإضافة إلى أبراج الأركان التى توفر النيران المتقاطعة ، إلى جانب الأخذ بكل التدابير الممكنة لإحباط خطط المغيرين وتمزيق صفوفهم . ولقد استطاع الأباطرة المقاتلون العظام وهم كلوديوس الثانى (٢٦٨ — ٢٧٠) وأورليان (٢٧٠ — ٢٧٥) وتاكيتوس (٢٧٥ — ٢٧٦) وبروبوس (٢٧٦ — ٢٨٢) ، بهذه التشكيلات الجديدة وهذه القوات المتخصصة فى مختلف الأسلحة وهذه الأسلحة الجديدة ، واستنادا إلى ماهو أعز من ذلك وأبقى ، ألا وهو الروح العالية والنفوس التى لايتطرق إليها اليأس ؛ استطاعوا أن يردوا الغزاة على أعقابهم وأن يستردوا الأراضى التى اجتاحها العدو وأن يدعموا كيان الإمبراطورية المتداعى . وقدر لإمبراطور مقاتل وعبقرى آخر فى شئون الإدارة والحكم ، ألا وهو دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) أن يضم فى نظام موحد جديد جميع هذه التدابير التى اتخذت للدفاع عن الإمبراطورية وصيانتها ، وبذلك أتاح للدولة سبيل مجابهة مشاكل العصر والتغلب عليها .

كان دقلديانوس ينحدر عن أب يشتغل بالزراعة فى إليريكوم التى برهنت من قبل على أنها أعتى أجزاء الإمبراطورية وأشدها بأساً ، وعرف أثناء خدمته بالجيش بتقلبه السريع فى مراتب الجند وبزه لأقرانه ، وقد بلغ كرسى الملك بقتل شاغله . وكان من الطبيعى أن يعقد دقلديانوس عزمه ويحزم أمره على ألا يتكرر مثل ذلك بالنسبة له ، فأصبح من المقرر أن يتمتع الإمبراطور منذ ذلك التاريخ بأعظم قسط من الحماية . كما بات من الضرورى العمل على

وضع خطة منسقة للدفاع تشمل عدة حدود مجتمعة ، وتخضع لقيادة ضباط أكفاء يمكن الاطمئنان إلى ولائهم وإلى أنهم لن يرفعوا راية العصيان . كما روى ألا تقوم هناك حركات انفصالية ، بيد أنه لم يكن هناك مفر من الاعتراف بالوحدات الإقليمية التى تمت بالفعل (مثل وحدة نوفيمبو بيولانا Novempopulana فى ولاية أكويتانيا Aquitania التى يبدو أنها قد أصبحت تمثل فى القرن الثالث وحدة إدارية منفصلة) . ولقد روعى فى وضع خطة دقلديانوس الدقة البالغة فى جميع تفاصيلها فجاءت متناسقة متسقة الأجزاء ، غاية فى الإحكام ، ويكفى هنا أن نذكر خطوطها الرئيسية .

أولا : تقسيم السلطة ، شعر دقلديانوس أنه لم يعد فى وسع إمبراطور واحد أن يتخذ بمفرده القرارات وأن يصدر الأوامر بالنسبة لمثل هذه الرقعة المترامية من الأراضى ، ومن ثم ينبغى أن يكون له شريك ومعاونون ، وعلى ذلك فقد دعا ماركوس أوزيليوس فاليريوس ماكسيميانوس M. Aur. Val. Maximianus ، ويدعى عادة ماكسيميان إلى الاشتراك معه فى حكم النصف الغربى من الإمبراطورية ، بالرغم من أنه كان من المؤكد أن مركز دقلديانوس بإرادته الحديدية وشخصيته الفذة سيفوق فى القوة مركز شريكه ، وحمل ماكسيميان مثله لقب أوغسطس Augustus وكان لكل منهما مساعدون يسمون قياصرة توكل إليهم مهام الحكم فى مناطق معينة . وهكذا أصبح لدقلديانوس — فى الوقت الذى كانت له فيه السيطرة أيضا على شريكه — الإشراف على النصف الشرقى من الإمبراطورية (ويشمل جميع الأراضى الواقعة شرقى البحر الإدرياتيكى) وقد عين جاليروس Galerius مساعدا له أى « قيصرا » ، ووكلت إليه مسئولية الإشراف على أقاليم البلقان بوجه خاص . وكان ماكسيميان هو أوغسطس النصف الغربى من الإمبراطورية ، أما مساعده القيصر كونستانتيوس Constantius ، فكانت تخضع له ولايات الغال وأسبانيا وبريطانيا . وارتبط

الشركاء الأربعة بأواصر المصاهرة ، وعلى حين أن الشريكين الكبيرين كانا يلقبان بالجوبيتريين Jovii (واللقب مأخوذ من اسم الإله جوبتر ، نظرا لمرتبتيهما السامية) فإن الشريكين الصغيرين كانا يحملان اسم الهرقليين Herculei ، نظراً لأن كلا منهما كان يؤازر سيده بما يقدمه من خدمات وما يبذله من جهود ، بالإضافة إلى أنهما كانا يعملان على دعم الإمبراطورية . وقيل — وإن لم تثبت صحة هذا القول — إن دقلديانوس لم يتيسر له بذلك التخلص فحسب من خصومه الذين قد يظهرون فى المستقبل ، بل ضمان تتابع الأباطرة على العرش بطريق نظام ثابت للتنازل يقضى بأن يخلف كل قيصر الأوغسطس الذى يترأسه ، وأن يتخذ هو بدوره مساعدا له .

وسار دقلديانوس فى خطة التقسيم أشواطا أخرى . فتقرر ألا تترك أية وحدة من الأراضى أو أية وحدة إدارية على قدر من اتساع الرقعة أو القوة بحيث تغرى الوالى عليها بالاستقلال بها . وفى وسط هذا الحشد من الموظفين ، كان للمتنافسين والخصوم أن يراقبوا بعضهم البعض ، وأن يحد كل منهم من حرية الآخر . وكان معنى وجود حكام أربعة ، قيام أربع عواصم ، وعلى الرغم من أن جيوش كل من الحكام الأربعة ، كانت جيوشا متنقلة ، وأنه كان فى وسع أى حاكم أن يقيم مقر قيادته فى أفضل نقطة يراها ملائمة ، فإن هذه العواصم لم تلبث فى الواقع أن استقرت فى كل من تريفيس (ترابر Trier على نهر موسيل Moselle) وميلانو فى شمال إيطاليا وسرميوم Sirmium (متروفتزا Mitrovitza على نهر سيف Save) ونيكوميديا Nicomedia فى غربى آسيا الصغرى . ولا جدال فيما كان لهذه النقطة من أهمية كبرى باعتبارها مركزا لطرق المواصلات . وعلى الرغم من أن مدينة روما نفسها قد تدهورت سياسيا ، بعد أن هجرها أباطرتها الرومانيون ، إلا أنها ظلت تتمتع بهيبة ومكانة بالغتين ، كانتا سنداً وعوناً للأسقف المسيحى الذى أقام بها بعد ذلك بقرون . أما بالنسبة

للولايات ، فقد تقرر أن يكون حاكم الولاية منذ ذلك الحين موظفا إداريا فقط ، ليست له الإمرة على القوات التى قلدت قيادتها ، للكونتات (Comites) والدوقات (Duces) وتحددت رقعة الولايات وتضاءلت نتيجة لتقسيم الولايات إلى ولايتين أو أكثر بحيث بلغ المجموع الكلى ما يقرب من مائة ولاية . وانتظم هذا الحشد الكبير من الوحدات الصغيرة فى منظمات جديدة أوسع نطاقا تمثلت فى اثنتى عشرة منطقة إدارية يدير شئون كل منها نائب Vicarius وكانت بريطانيا بولاياتها الأربعة تؤلف منطقة إدارية واحدة ، كما كان الحال مع أسبانيا بولاياتها الست ، أما فى الشرق فإن منطقة أوريينز Oriens كانت تضم ستة عشر ولاية ، وآسيا عشر ولايات . . . وهلم جرا . ولابد أن نفقات الحكم وحدها مع وجود أربعة أباطرة وأربع معيات ، قد ارتفعت ارتفاعا كبيرا ، واقتضى الأمر لتوفير المال اللازم لذلك وضع نظام جديد للضرائب ، وعلى ذلك أعيد مسح أراضى الإمبراطورية من جديد وفرضت ضرائب جديدة (قابلة للتعديل مرة كل خمسة عشر عاما) .

وتميزت هذه الخطوة شأنها شأن جميع الخطوات التى اتخذها دقلديانوس بالدقة والإحكام . فجاءت عملية مسح الأراضى وإحصاء السكان دقيقة صارمة . وحملت الوحدة الضرائبية اسما لاتينيا قديما iugum ، بيد أنها لم تعد مقياسا مساحيا بسيطا . فقد تقرر أن يجرى تقدير مختلف أنواع الأراضى على أساس القدرة الإنتاجية لكل منها وبحسب عدد الأفراد المشتغلين فى فلاحتها . فتقدر أراضى زراعة الغلال الخصيبة فى شمال إيطاليا أو شمال إفريقيا بتقدير يفوق تقدير أراضى المراعى والغابات فى الولايات الشمالية . ورئى أن يعدل التقدير الأصلى للضرائب الذى وضع سنة ٢٩٧ مرة كل خمس عشرة سنة ، وسميت مدة الخمس عشرة سنة هذه فيما بعد بالاصطلاح الدال عليها : indictio . ولم يكن بغريب أن يقابل النظام الجديد بالهجوم والانتقاد باعتباره نظاما صارما

جائرا ، ولاغرو فما من نظام ضرائبي قوبل بالهتاف والتصفيق . ولكنه يبدو كما لو أن هذا النظام قد أفلح فى توفير الأموال اللازمة للدفاع عن الإمبراطورية الجديدة وتصريف شئونها ، وكيفما كان الحال فقد أحل بالفعل الانتظام والاتساق (مع الأمل فى التعديل) محل الفوضى العارمة أو الجبايات القسرية التى كانت سائدة خلال العهد البائد . ربما كان ثمن ذلك باهظا بيد أنه دفع مقابل العودة إلى سيادة القانون والنظام .

وبمثل هذه التدابير سعى دقلديانوس إلى وقاية الإمبراطورية من الأخطار الرئيسية التى أنهكت قواها فى الماضى ، فى الوقت الذى وضع فيه — باستخدامه عملة جديدة — حدا للتدهور النقدى المزرى وللفوضى المالية التى كانت سائدة من قبل . فتقرر ضرب قطعة نقود ذهبية جديدة هى الأوريوس aureus تزن واحدا من ستين من الرطل ، على حين كانت القطعة الفضية تزن واحدا من ستة وتسعين من الرطل ، ويساوى الأوريوس الواحد خمس عشرة قطعة فضية أو مائة سسترت Sestertii . وفيما بعد حل محله السوليدوس Solidus الذى أدخله قسطنطين ، وكان يزن واحدا من خمسة وسبعين من الرطل ، وجرى تداول هذه القطعة بعد سنة ٣٢٤ (انظر الفصل العاشر) فى جميع أنحـــاء الامبراطورية .

وأعاد دقلديانوس أيضا تنظيم خطط الدفاع وأساليب القتال فى الإمبراطورية فدعم بذلك الإصلاحات التى تمت خلال العصور السالفة . وأمكن التغلب على خطر اختراق العدو لعدة جبهات فى وقت واحد ، بأن وضعت أربعة جيوش جديدة تابعة للإمبراطورية Palatini تحت إمرة القواد الأربعة . وكانت هذه الجيوش الأربعه تضم مجموعة من القوات المتنقلة السهلة الحركة التى روعيت فى اختيار أفرادها وفى تدريبهم العناية الفائقة ، وكانت هذه تصاحب الإمبراطور فى حملاته (Comitatenses) ومن ثم كان فى الإمكان أن يهرع بها — إذا مادعت

الحاجة — للدفاع عن آية نقطة يتهددها الخطر ، اما على طول الحدود ، فكانت ترابط قوات من الدرجة الثانية (Limitanei) لتلقى صدمة الغزو الأولى (وصد الغزاة إن أمكن) . بيد أنه على صخرة الجيوش « البلاتينية » الصلدة وحدها كانت تتكسر فى النهاية موجة الغزو ويرتد الغزاة على أعقابهم . وقد أخذت طائفة كبيرة من القوات المتخصصة — مثل الفرسان المسلحين بالأسلحة الثقيلة وجنود المدفعية وقوات الهجانة والحفارين والمتسللين إلى آخرهم — مكانها فى الجيش الجديد .

فنى كل ناحية من النواحى ، ابتدع دقلديانوس (أو نقل عن آخرين) تدابير جديدة لدرء الأخطار التى تهددت الجيلين السابقين . فاستعيد كيان الدولة الرومانية واستردت الأراضى التى كان العدو قد اجتاحها ، ورد البرابرة على أعقابهم ، أى أن الدولة أصبحت تتمتع — من الوجه النظرية — بالأمن والسلم ، بعد أن خرج أباطرتها من الحرب مظفرين ، بيد أنه لا جدال فى أن جهود الحكام جميعها كانت تتجه إلى ربط كافة موارد الإمبراطورية بعجلة الحرب والتأهب لكل طارئ . والحقيقة أن كل شيء كان يتوقف خلال هذه الحقبة — كما كان الحال أيضا خلال القرن الماضى — على كفاءة الجيوش الرومانية وولائها ، ومن ثم كان لهدف الاحتفاظ بكفاءة الجيش وولائه الأسبقية على كل شيء . فرفع سيفيروس راتب الجنود بالفرق الرومانية ومنحهم امتيازات عدة (منها السماح لهم بعقد قران شرعى أثناء مدة خدمتهم) وكان الجندى فى طريقه إلى أن يصبح طفل الدولة المدلل . وتتردد الشكوى من إغاراتهم وسرقاتهم التى كانوا يرتكبونها ضد المجتمعات الريفية المسالمة ، بين طيات العرائض التى كان يرفعها أهل الريف فى القرن الثالث (راجع الفصل الرابع) ، ولذلك كانت هناك حاجة ماسة إلى حاكم على جانب كبير من القوة يستطيع فرض نظام صارم ، فكانت استجابة دقلديانوس لهذه الحاجة من

أجل الخدمات التى أداها . ولكن طاعة الجنود الواجبة للإمبراطور لا تقل أهمية عن شعورهم بأنهم يجدون فيه لا القائد فحسب بل النصير والظهير .

ويتمثل هذا المبدأ على نحو واضح جلى فى الديباجة الغريبة التى قدم بها للمرسوم الشهير الذى صدر فى عام ٣٠١ ، وكان يقضى بفرض حد أقصى لأسعار كافة السلع المباعة تقريبا . تستهل الديباجة فى اتزان وهدوء برفع آيات الشكر إلى الآلهة من أجل النصرة على العدو واستعادة السلام وانخفاض الأسعار لصالح العالم ، ولكنها لا تلبث أن تلهب ظهور الموردين والتجار لشحوم وجشعهم برميهم بأقذع العبارات وأعنفها ، فتقول : إن هـــذه الآفات تحط بالجندى العامل ، حيثما تزابط قوات من الجيش ، وتشتط فى الطلب وتبهظ الثمن إلى حد « يعجز فيه اللسان البشرى عن أن يجد الألفاظ التى يصف بها هذا السعر أو ذلك العمل . قد يحدث فى بعض الأحيان أن يجد الجندى عند شرائه لسلعة واحدة ، نفسه وقد سلب كلا من راتبه ومنحته ، وهكذا يذهب كل ما أسهم به العالم لإقامة الجيوش ليتخم هؤلاء اللصوص وأرباحهم البغيضة ، ويبدو أن جنودنا يقضون بأيديهم على الأمل فيما سيجنون فى مستقبلهم وعلى ثمار جهودهم الماضية أيضا ، إزاء حيل هؤلاء الانتهازيين ، وهكذا ينتزع هؤلاء المفسدون الناهبون للدولة نفسها ، من الجنود يوما بعد يوم أكثر مما يمكن للجنود فى واقع الأمر تحصيله .. وهلم جرا . وتنم اللهجة السائدة فى المرسوم جميعه عن غضب جامح وحشى ونقمة على «أعداء الدولة» تنتهى بفرض عقوبة الإعدام على من يخالف فئات الأسعار التى حددها المرسوم والتى تمثل الحد الأعلى maxima . « ولا ينبغى أن يظن أحد منكم أن هذه عقوبة صارمة ، لأن فى وسعكم لو اتبعتم طريق الاعتدال والقسط أن تتجنبوا فى يسر هذا المصير» .

كما يكشف هذا المرسوم عن نقطة ثالثة . فقد ساد الاعتقاد إذ ذاك بقدرة الدولة على الإشراف على كافة الأمور ، كما اعتور هذه الحقبة تدهور فى الناحية

الانسانية للقوانين والعقوبات . لعله من اليسير أن نسخر من عبث فرض حد أعلى للأسعار دون النظر إلى المنطقة التى يتم فيها التعامل ، وصحيح أيضا أن المرسوم لم يلبث أن أصبح حبرا على ورق . بيد أنه لايبدو من الإنصاف أن ننحى على دقلديانوس باللائمة لجهله بالحقائق الاقتصادية التى ظلت خافية عدة قرون . ولكنه بغض النظر عن هذه الناحية ، فإنه لما يثير أعمق مشاعر النفور والعجب أيضا ، والأمر الذى يتعارض أشد التعارض مع الروح التى سادت القرن الثانى ، عقوبة الاعدام الوحشية الصارمة التى كانت جزاء أقل مخالفة . لاجدال فى أن أخبث الأمراض تتطلب أخطر سبل العلاج ، غير أننا نلحظ فى كافة قوانين ذلك العصر إيمانا لا بالمنطق والانصاف ، بل بالقسر والإجبار المقرونين بالإرهاب .

وثمة ظاهرة رابعة اتسمت بها هذه الفترة هى تألق نجم آسيا الصغرى التى أصبحت بمثابة همزة وصل حيوية فى شبكة المواصلات ، واعتبرت منطقة منتجة للمواد الغذائية لتزويد الجيوش المرابطة فى الشرق وفى الجهة الشمالية الغربية . واقترن تألق نجم آسيا الصغرى بازدياد أهمية المضايق ، وليس أدل على ذلك من إقامة دقلديانوس مقر قيادته فى نيكوميديا ، ثم بلغت ذروة مجدها عندما وقع اختيار قسطنطين للمدينــــة اليونانية القديمة بيزنطة على الجانب الأوربى لتكون قصبة للبلاد ومركزا الإمبراطورية الموحدة جمعاء .

كان شبح مشكلة الدفاع الحيوية جاثما على الإمبراطورية طوال السنوات الأخيرة فى الجزء الثانى من هذا العصر . إن صون سلامة الامبراطورية تطلب تجنيد القوات ، وكانت الجيوش البلاتينية الأربعة التى استحدثت مؤخراً — كما أسلفنا — القلب الصلد لنظم الدفاع ، بيد أنه كان يتحتم أيضاً أن تتوافر القوة للجنود العاديين Limitanei الذين كانوا يرابطون فى القلاع والحصون المتاخمة للحدود . وعلى حين كانت الجيوش البلاتينية جيوشاً متنقلة ، فقد آل أمر قوات الولايات هذه إلى أن أصبحت ترابط فى نقط ثابتة وتجند محليا . ومنذ أن سمح سيفيروس

للجنود العاملين بالزواج . أصبحت الزوجات والأبناء يألفون الحياة فى أحياء مدنية تقع خارج المعسكرات أو أسوار الحصون ، وكان من الطبيعى أن ينشأ كثير من الأبناء على حرفة آبائهم ويلتحقون بفرق الآباء عينها . وغالبا ما كان الأباطرة يلجئون رغبة منهم فى الإسهام فى الاحتفاظ بأعداد القوات ثابتة عن طريق إمدادها بأفواج متلاحقة من المجندين ، إلى إقطاع الأراضى للكثيرين ولو كانوا من البرابرة وإلى تشجيعهم على الاستقرار والزراعة ، على شريطة أن يلتحق أبناؤهم بجيوش الإمبراطورية . وبالنظر إلى ذلك يمكن القول بأن عملية صبغ الجيش بصبغة بربرية كانت قد بدأت بالفعل . ولكن الأمر كان متوقفاً على أية حال على معدل قبول هذه العناصر النصف رومانية بل وغير الرومانية على الإطلاق بالجيش . وكان من الممكن أن تحقق مثل هذه السياسة نتائج طيبة ، لو تيسرت لها فسحة من الوقت ولقيت ظروفاً سلمية ، بيد أنه لو استمر الضغط الخارجى دون انقطاع فلا سبيل لإمبراطورية منهكة القوى أن تحتمل ذلك طويلا . وإذا لم تكن الجيوش متشبعة تماما بكل من الروح والتقاليد الرومانية ، فهل يؤمن جانبها فى المحن والأزمات ؟ إن الرد المباشر على هذا السؤال فى نظر رجال مثل الأباطرة المقاتلين هو وجوب العمل على تطهير الجيوش من العناصر البينة الغدر أو غير الجديرة بالثقة ، ويبدو كما لو أنه قد تم طرد المسيحيين فعلا قبل عام ٣٠٠ . وأصبح الواجبان الرئيسيان والمشكلتان اللتان تشغلان الأباطرة منذ عام ٣٠٠ هما الاحتفاظ بكفاءة القوات المسلحة وولائها أولا ، وضمان تزويدها بالإمدادات التى تعتمد عليها دون انقطاع ثانياً .

الفصل العاشر

العمل من أجل الوحدة

قسطنطين

إن النظام الجديد الذى وضعه دقلديانوس (انظر الفصل التاسع) قد ضم فى خطة شاملة محكمة كافة الإصلاحات العسكرية والأساليب الناجحة لجباية الضرائب والقواعد الصارمة للإشراف الحكومى التى دلت التجربة على حاجة الإمبراطورية الماسة إليها جميعا . ولا يمكن أن نقطع بما إذا كان دقلديانوس قد انتوى أن يبقى نظام التقسيم الرباعى للسلطة وللأراضى قائما أبدا ، وذلك لأن الظروف الطارئة سلبته القدرة على التحكم فى زمام الموقف كله ، غير أنه مما لا شك فيه أن نظامه الجديد أفلح فى استرجاع الحدود القديمة وفى سحق عناصر الفوضى الداخلية . بيد أن ذلك النجاح عينه الذى أحرزه دقلديانوس فى مضمار استعادة البلاد لوحدتها قد جر بعض زملائه إلى المطالبة بتحقيق قدر أعظم من الوحدة الشكلية الظاهرية . كان قيصر دقلديانوس الخاص يدعى جاليريوس ، وكان راعى غنم أبا عن جد ، وارتقى فى مراتب الجيش بفضل بأسه ووحشيته ثم لم يلبث أن برهن على جدارته واستحقاقه لأن يعين فى منصب القيصر بانتصاراته فى جبهة الدانوب وأمام الفرس . ولما كان جاليريوس أحد مواطنى إليريكوم ، ممن تشبعوا بالروح العسكرية الصارمة وتطبعوا بالطابع الرومانى المتطرف الذى عرف عن هذه المنطقة ، ولما كان متحمسا للوحدة متعصبا لها ، فقد ساءه أن يكثر عدد المسيحيين وتقوى شوكتهم ورأى وجوب الحد من نفوذهم وإرغامهم على الانصياع . بيد أنه لم يكن لدى دقلديانوس أدنى رغبة فى الالتجاء إلى أساليب الضغط والقمع وظل على هذه الحال حتى وقعت سلسلة من الحوادث

كانت من بينها حادثتان من حوادث الحرق العمد (التى لا يستبعد أن يكون جاليريوس هو مدبرها) فدفعه ذلك فى النهاية إلى إصدار طائفة من المراسيم فى عام ٣٠٣ تحتم على جميع المواطنين الرومانيين (دون أى من تلك الاستثناءات التى كان يسمح بها فى الماضى) القيام بتقديم الضحايا الوثنية المعروفة وتأدية فروض الديانة الوثنية فى المناسبات المقررة، على الوجه الأكمل، وتقضى بأن يطرد من يمتنع من الجنود عن ذلك من الخدمة، أما إذا ما ركب أى مسيحى رأسه فليلق به فى السجن ويوقع عليه العقاب وتصادر ممتلكاته، وتدمر مبانيه، على ألا تراق فى ذلك الدماء، وهكذا بدأ فى الثالث والعشرين من فبراير، العهد الذى أطلق عليه المسيحيون «عهد الاضطهاد الأعظم». وقد دمرت فرق من الجنود كنيسة نيكوميديا وخربتها وأجرى المسئولون تحقيقات مع القساوسة والشمامسة طالبين إليهم تسليم الأناجيل وأثاث الكنيسة، كما سجن وأعدم الكثيرون منهم. وإن روح العصر التى كانت تتمثل فى الالتزام القاتل بحرفية القانون لتنعكس فى وضوح وجلاء على الحقيقة الماثلة فى أن بعض المسيحيين كانوا يساقون قسرا إلى المذابح ويجبرون بالقوة الغشوم على وضع البخور فى المباخر، على حين أن بعض الجلادين كانوا يملأون فى بعض الأحيان كف جثة هامدة بالبخور ثم يقذفون بها إلى نيران المذابح، كأنما يجب أن تنفذ هذه الأيدى سواء أكانت حية أو ميتة ما قضى به المرسوم الإمبراطورى.

بيد أن الاضطهاد لم يقع بدرجة متساوية، فلم يكن جميع الحكام على استعداد لأن يذهبوا إلى أقصى حدود التطرف والوحشية. فلو أن قيصرا واحدا، جاليريوس، كان هو الموعز بالاضطهاد المحرض عليه، فإن قيصر الغرب، كونستانتيوس كلوروس Constantius Chlorus عالج الأمر باعتدال كبير. وقد زعم أنه كان عريق الأصل كريم المحتد، إلا أن الثابت أنه كان رجلا مثقفا موهوبا، أما عن دياناته فقد كان من أتباع عقيدة «الشمس القاهرة»

التى لا بد أن ابنه قسطنطين قد ألم بها . فاكتفى بتدمير كنائس المسيحيين ، دون أن يقتل أحدا منهم . ومما يذكر أن دقلديانوس نفسه الذى أصدر هذه المراسيم ، لم يكن متحمسا لها تحمس قيصره التابع له . والحقيقة أنه لم يمض وقت طويل على إصداره لمرسومه حتى أصيب بانهيار عصبى واحتجب عن الأنظار مدة ثمانية عشر شهرا . ولم يظهر على الملأ بعد هذه الفترة فى عام ٣٠٥ ، وقد ظهرت عليه دلائل السقم والمرض ، إلا ليعلن تنازله وتنازل زميله ماكسيميان عن العرش ، وما إن تم ذلك حتى رفع كل من قسطنطين وجاليريوس إلى مرتبة الأغاطسة Augasti واختارا بدورهما قيصرين Caesares لهما ، وأصبح فى وسع دقلديانوس بعد ذلك أن يتقاعد فى قصره الجديد فى سبلاتو Splato لكى ينعم بجلال القصر ووحدته . أما فى الشرق فقد كان هناك جاليريوس وقيصره الجديد ماكسيمين دايا Maximin Daia ، وقد جمعا بين التصميم والعزم والقسوة والبطش والموهبة الخارقة فى وضع التدابير والخطط الرامية إلى استئصال شأفة هذه الطائفة المنبوذة والقضاء المبرم على مبادئها الخطرة ، ولم يكتفيا بقمع المعاندين فحسب ، بل أعلنوها حربا شعواء ، بالدعاية والمؤتمرات الشعبية وبث الأفكار ، بل استعانوا بالتدابير الإصلاحية الإيجابية أيضا . فكان على التلاميذ بالمدارس أن يتشربوا بشعور معاد للمسيحية باستظهار وثيقة ملفقة مزورة تحمل اسم « أعمال بيلاطس » Acta Pilati على زعم أنها أقوال بيلاطس البنطى عن محاكمته للسيد المسيح ، أما فى الريف فإن « شعور السخط الذى تشربت به الجماهير من تلقاء نفسها » قد طفح فى صورة عرائض وملتمسات تطالب الحكومة باستئصال شأفة هذه الطائفة الوبيلة ، وأهم من ذلك أنه تقرر أن يرفل الكهنة الوثنيون فى أفخر ثياب علاوة على مراعاة الدقة البالغة فى اختيارهم من بين المعروفين بمكانتهم ووقارهم وسمو خلقهم . واستطاع الأباطرة بمثل هذه التدابير أن يتصدوا للمسيحية وأن يقاوموها مقاومة فعالة ، وقدر لهذه الخطة وذلك الإصرار أن يحققا الغرض المنشود لعدة أعوام مقبلة .

وفى هذه الأثناء توفى كونستانتيوس فى الغرب سنة ٣٠٥ ، ونادى الجيش البريطانى فى يورك بابنه قسطنطين فىاليوم ذاته (٢٥ يوليه) إمبراطورا . ولم يكن هذا يتفق بحال مع الخطة الموضوعة ، ولكنه لما كانت هناك بقية من القوات المعادية يجب التصدى لها وقهرها ، فقد اعترف جاليريوس فى النهاية — باعتباره الإمبراطور الأكبر — بالأمر الواقع ، وإن تم ذلك على كره منه . وأفلح الحكام الأربعة وهم جاليريوس وماكسيمين دايا فى الشرق وماكسنتيوس Maxentius (ابن ماكسيميان) وقسطنطين فى الغرب فى الاحتفاظ بسلامة الحدود ، فلم يجرؤ أى فريق من البرابرة على اختراقها ، وتوجت بذلك أنظمة دقلديانوس بالنصر . وإذ كان جاليريوس مشغولا بالشئون الداخلية ، ماضيا فى اضطهاد المسيحيين فى وحشية وقسوة ، انتابه مرض ما لبث أن اشتد عاماً بعد عام إلى أن اضطر فى النهاية إلى إصدار مرسوم فى ابريل سنة ٣٣١ يقضى بوقف الاضطهاد . وحينذاك أعلن وهو على فراش الموت فى صوت متهدج متقطع تتخلله الأنات والآهات ، كيف أنه كان يؤمل أصلا فى أن يحمل المسيحيين على الرجوع عن طريق الضلال ، ولكنه يبغى السماح لهم الآن بالحياة مرة أخرى ، وبإقامة الدور التى يجتمعون فيها ، واختتم حديثه قائلا : « وفى مقابل هذه المنة فإنهم ملزمون بالدعاء لإلههم بصوننا وصون الدولة وصون ذواتهم ، حتى تتوافر للدولة السلامة من جميع النواحى وكى يعيشوا هم فى دورهم فى ظل الهدوء والأمن » . وثمة ناحية جديرة بالتنويه فى تلك الفكرة التى استبدت بذهن الإمبراطور إلى ساعة وفاته، والتى تتمثل فى وجوب المحافظة على سلامة الإمبراطورية بأى ثمن ولو تطلب الأمر أيضاً التضحية بالمبادىء والقيم التى يؤمن بها المجموع .

ولم يكن هناك مفر من أن يؤدى موت جاليريوس فى مايو سنة ٣١١ إلى قيام المؤامرات والفتن والمنازعات بين المطالبين بالعرش على اختلاف درجة

أحقيتهم به . ففى الشرق أفلح غاليريوس أيضاً أخيراً ليكينيوس Valerius Licinianus Licinius فى أن يوطد فى النهاية مركزه فى منصب الأوغسطس ، أما فى الغرب فقد نشب النزاع على الحكم بين قسطنطين ، الذى كانت تدين له بالولاء كل من ولايات بريطانيا وأسبانيا وفرنسا من جانب ، وماكسنتيوس الذى كان يسيطر على إيطاليا وإفريقيا وولايات شمال الألب من جانب آخر . وعقد قسطنطين العزم فى النهاية وبتأييد من جنده على الإقدام على غزو إيطاليا نفسها . وكان ماكسنتيوس قد بذل فى السنوات الأخيرة كثيراً من الجهد والمال فى سبيل تزيين روما وإعادة بنائها ، كما وضع فى اعتباره دعم استحكاماتها وحصونها ، ولهذا السبب نادى بنفسه على قطع العملة بأنه «حامى مدينته» Conservator urbis suae ولكن من الغريب حقاً أنه قد خلف وراءه فعلا أمن استحكاماته الجديدة — ولعله غلب على أمره من جراء تصايح الدهماء — لينازل قسطنطين خارج أسوار المدينة فى معركة حاسمة ، فلقى جيشه هزيمة منكرة فى معركة ملفيان بريدج Milvian Bridge (وتبعد ثلاثة أميال عن روما) وذلك فى الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ٣١٢ ، ومات هو غرقاً فى مياه نهر التيبر أثناء فيضانه الخريفى . ولم يكن ثمة خصم ، له من القدرة ما يمكنه من منازعة قسطنطين فى مناداته بنفسه أوغسطساً على الغرب ، كما سارع قسطنطين لكى يكفل لنفسه بعض الأمن فى المستقبل القريب ، إلى الاجتماع بليكينيوس زميله فى الشرق وعقد آصرة مصاهرة معه .

بيد أنه كان مقدراً لمعركة ملفيان بريدج أن تسفر عن نتائج أعظم شأناً ، وأشد خطراً ، فإنها وثقت فى الواقع صلة قسطنطين بإله المسيحيين وزادت فى ولائه له ، وبذلك غيرت بالفعل وجه التاريخ العالمى . بيد أنه لا يجب أن نخطىء فهم اللفظة التى يجرى استعمالها فى أغلب الأحيان ، وهى لفظة «اعتناقه» للمسيحية ، إذ لم يعلن قسطنطين قط بصورة علانية وفى التو عن إيمانه بإله

المسيحيين ، كما لم يحاول أن يفرض بالقوة الدين المسيحى على رعاياه . فقد كانت العملية أشد من ذلك تعقيدا وأكثر تدرجاً . فلابد أن مشكلة المسيحيين وإلههم قد شغلت ذهنه منذ وقت طويل ، كما قد شغلت أذهان كل الحكام المتأخرين . لم يتحمس أبوه كنستانتيوس للاضطهاد قط ، ولا يستبعد أن كان بين أهل بيته أتباع للدين المسيحى ، لأن إحدى بناته كانت تحمل اسم أنستاسيا Anastasia ومثل هذا الاسم مسيحى دون شك . ولم يكن ليفوت قسطنطين أن يلحظ أن أباه ، دون أبناء جيله تقريبا ، قد مات فى فراشه ميتة سالمة . أما الأباطرة الأوائل الذين ناصبوا المسيحيين العداء — نيرون ودوميشيان وديكيوس وفاليريان — فقد تعرضوا لميتات انطوت على وحشية أو مهانة ، فقد ضرب دقلديانوس فى السنوات القليلة الماضية بالعجز والمرض ، ومات جاليريوس من أثر داء مبرح قاس ، واختطف الموت ماكسنتيوس غريقا فى مياه نهر التيبر وقت فيضانه ، وبدا كما لو أن أوفق سبيل — وبالنظر إلى الحقائق السالفة — هو عقد « صلح » مع هذا الإله القوى .

ويبدو أن قسطنطين قد مر وهو فى هذه الحالة النفسية الذهنية بتجربة دينية عميقة ، قص طرفا منها (وإن لم يحدث ذلك إلا بعد انقضاء عدة أعوام على الحادثة) على صديقه المؤرخ الكنسى أوسيبيوس Ausebius . ومؤدى ما رواه قسطنطين لأوسيبيوس هو أن حيرته وقلقه وتردده فى اختيار السبيل الأوفق لمواجهة القوات العارمة التى حشدها عدوه ماكسنتيوس ، صلى إلى إله أبيه (ولا بد أن ذلك هو الشمس القاهرة) صلاة طويلة لحوحة . وإذا به يرى هو (وجيشه) فى أصيل يوم من الأيام ، فى أفق السماء صليبا واضح المعالم يقع فوق قرص الشمس ، وعليه كلمات تقول « بهذه العلامة تغلب أعداءك » . وظهر له المسيح فى تلك الليلة فى حلم ومعه علامة الصليب التى ظهرت نحو ظهر ذلك اليوم ، وأمره أن يصنع لها صورة يحملها فى المواقع كترس يحميه من

أعدائه . فما عتم أن استدعى العمال لصنع الراية الشهيرة Labarum وهى راية عسكرية انفرد بها ، على شكل حربة تحمل صورة الامبراطور يعلوها إكليل نقش داخله حرفا XP وهما الحرفان الأولان من اسم المسيح Christos .

ربما كانت هذه الرواية عن سيرة قسطنطين تعود إلى عشرين عاما انصرمت بعد وقوع معركة ملفيان بريدج . بيد أن لدينا قرينة أخرى أسبق تاريخا هى ما كتبه لكتانتيوس Lactantius ، وكان مسيحيا ، فى عام ٣١٥ ، إذ قال إن قسطنطين قد جاءه فى حلم عشية المعركة أن يضع « الشارة المقدسة للآب » على دروع جنوده ، واستجابة لهذا الأمر خاض جنوده المعركة ضد ماكسنتيوس وقد ظهرت على دروعهم علامة XP . وأسفر هذا اليوم التاريخى المشهود وهو ٢٨ اكتوبر عن نصر مؤزر ، نصر لم يكن ينتظر قط (فمن كان يحلم أن يهجر ماكسنتيوس أسوار روما التى دعمت استحكاماتها وحصونها مؤخرا ؟) بيد أنه كان انتصارا سريعا تاما ساحقا .

والرأى عندى أن هاتين الروايتين اللتين تصفان — فيما يبدو — رؤيتين منفصلتين ، وقعت إحداهما فى وقت ما قبل المعركة والأخرى عشية المعركة ذاتها ، صحيحتان صادقتان إلى حد بعيد نظرا لأنهما تتفقان فى الواقع تمام الاتفاق مع طبيعة العقلية الوثنية . ولم يكن قسطنطين فى صلواته التى رفعها آنذاك وفى تنفيذه للأوامر الصادرة إليه منكرا بالضرورة فى تلك اللحظة عينها للآلهة الرومانية ، فالأمر لا يعدو أنه كان يبتهل لإله آخر ، إله غير رومانى بالطبع ولكن قوته فيما يقال عظيمة . ولا مراء فى أن إلها يستجيب إلى الصلوات بمثل هذه السرعة وينعم بذلك الانتصار الساحق مجازاة لقسطنطين على طاعته له ، لابد أن يكون حاميا جبارا شديد البأس ، ولا عجب بعد هذا البرهان أن يعقد عزمه دوما على تأييد عقيدة هذا الإله المسيحى وفرائض ديانته .

والحقيقة أن قسطنطين أمر عقب انتصاره بإقامة تمثال له فى مدينة روما يصوره حاملا صليبا فى يده اليمنى ، مع نقش يوضح أنه أحرز النصر « بهذه

العلامة المنقذة ، ولكن الظروف لم تكن تسمح له بالإفصاح علانية عن معتقداته الخاصة مهما كانت قوتها إلا بطريق تدريجى تراعى فيه الحيطة والحذر ، وإلا فسيقضى على وحدة العالم الرومانى التى تحققت بشق الأنفس . وبالنظر إلى ذلك لا يمكن اعتبار قسطنطين « مسيحيا » ولكنه أقرب إلى شخص موال ومؤيد للإله المسيحى ، ولم يكن فى الإمكان إعلان القبول التام للدين إلا بعد مضى فترة من الزمن .

وعلى الرغم من ذلك فإن خطواته التالية جديرة بالتنويه . فلما كان قد أصبح بالفعل حاكما للغرب ، فقد اتفق على عقد اجتماع مع أوغسطس الشرق الجديد ليكينيوس فى ميلانو فى أوائل عام ٣١٣ ، وتعهد الشريكان بكفالة الحرية المطلقة للعبادة لجميع المواطنين ، وكان ذلك معناه وقف اضطهاد المسيحيين . وهكذا لم يزد ليكينيوس وقسطنطين على أنهما « أجازا » رسميا اعتناق الدين المسيحى ، ولكنه على حين أن ليكينيوس لم يزد على اعترافه بالإله الأعظم summus deus ، فإن قسطنطين وثق صلته بالآباء المسيحيين ، وأعرب عن رضائه على رجال الإكليروس المسيحى clerici نظرا لأن صلواتهم وتضرعاتهم تثبت دعائم الإمبراطورية ، ومنذ سنة ٣١٨ يمكن تبين الحرفين الأولين من اسم السيد المسيح وهما XP وإن لم يكونا بارزين واضحين، على الخوذة التى يلبسها قسطنطين فى صوره على قطع العملة . وفى التشريع أيضا برزت كثير من النقط الجديرة بالملاحظة . ولكنه وإن كان قد تيسر لقسطنطين وليكينيوس أن يتفقا على الإيمان بإله أعظم Summa deitas أو على أى اصطلاح آخر يتوخى جانب السلامة فى عموميته وغموضه ، فقد برزت بمضى الزمن نقط للخلاف حول مسائل أعظم خطراً ، ولم يكن هناك مفر من وقوع شجار بين الشريكين اللذين لم يلبثا أن انقلبا إلى خصمين ، انتهى بخروج قسطنطين منه بعد معركة خريسوبولس Chrysopolis فى ١٨ سبتمبر سنة ٣٢٤

متوجا بالنصر ، فأصبح بذلك الحاكم الأوحد لنطاق السلطة الرومانية .

وهنا أيضا لم يلجأ قسطنطين إلى الإصلاحات الجبرية الصارمة . فإن الهدف الأول لأى إمبراطور ، كما يدركه كل مواطن رومانى هو تحقيق السلم والوحدة والأمن للدولة الرومانية ، وليس من سبيل إلى ذلك بغير شعب موحد متآلف يذود عن حياضه جيش قوى ، ثم يتحتم لتزويد ذلك الجيش بالمؤن ألا يتوقف دولاب العمل فى كل من ميدانى الزراعة والصناعة ، ثم إن أمر القيام بنفقاته يستلزم جباية الضرائب على نحو دقيق صارم . وليس بوسع إمبراطورية تظللها وحدة حقيقية أن تتبع نظام التقسيم الذى وضعه دقلديانوس ، فقد استنفد هذا النظام أغراضه ، وينبغى الآن أن يكون لها إمبراطور واحد وعاصمة ثابتة بدلا من أربعة أباطرة لكل منهم عاصمته المتنقلة وبلاطه الخاص . كما ينبغى أن تقع هذه العاصمة فى موقع يفى بمقتضيات العصر ، فى مركز خطوط المواصلات ذاته على الطريق الممهد العظيم الذى يربط بين الحدود الشرقية والحدود الشمالية الغربية . ولم يعد فى مقدور روما أن تفى بهذه الحاجة ، ووجد قسطنطين ضالته فى المدينة التجارية اليونانية القديمة بيزنطة التى تقع على بحر مرمرة ، وتشرف على النقطة التى تفصل بين أوربا وآسيا . ولما كانت هذه المدينة تحتل موقعا طبيعيا حصينا — وقد كادت خطط سبتيميوس سيفيروس الجسور العاتى إبان حصار دام ثلاث سنوات — ولما كانت الطبيعة قد وهبتها مرفأ ممتازا هو القرن الذهبى ، فقد كانت تمثل الموقع الأمثل للعاصمة الجديدة فى الدولة التى أرسيت دعائمها من جديد ، أما عن مدينة روما القديمة بما كانت تحمله ذاكرتها من صور الحياة فى ظل النظام الجمهورى ، وما كان عليه شيوخها الأرستقراطيون المثقفون من التعصب والتشبث بتقاليد الماضى ، فكانت تبعث فى نفسه الضجر والسأم ، وهنا وفى العاصمة الجديدة لن تقدم الذبائح قط إلى الآلهة الوثنية ، بل ستقام بها على عكس من ذلك كنيسة شامخة جديدة تمجد الإله الواحد الحق .

وهكذا أصبحت القسطنطينية (وهى مدينة استانبول الحديثة) تلقب «بروما الجديدة» ، وباتت عاصمة ورمزا فى الوقت ذاته للإمبراطورية الناهضة. بيد أن هذه الإمبراطورية كانت فى حاجة أيضـــا إلى الجيوش ، لأن رؤيا «بروبوس» حول استتباب السلام الوشيك (انظر الفصل الرابع) لم تكن بعد قد دخلت فى عالم الواقع ، وكان من الضرورى التأهب للحرب والدفاع . ومن ثم وجب على كافة الطبقات أن تواصل نشاطها ، وتطلب هدف ضمان توفر الأيدى العاملة أن يتخذ الأبناء حرف آبائهم وأصبح العمل سواء أكان فى الأرض أم فى مصانع الأسلحة والملابس أم فى وسائل النقل بمثابة حرف متوارثة . ولما كانت مسألة ضمان توفير المواد الغذائيـة مسألة حيوية ، فقد شرّع قسطنطين بمقتضى مرسوم من قبله ، ما كان مألوفا بالفعل فى بعض المناطق ، ألا وهو ربط العمال الزراعيين coloni بالأرض التى يفلحونها . وقد آلت إلينا الفقرة الرئيسية لهـذا المرسوم . ويمضى قسطنطين بعد أن يقرر واجب ملاك الأراضى فى إرجاع المزارعين الفارين ودفع ضريبـة الرأس المطلوبة فيقول : « ويحسن أن يصفد المزارعون coloni الذين يعمدون إلى الفرار حينا بعد حين بالأغلال ، ويعاملوا معاملة الرقيق حتى يجبروا على القيام بالواجبات التى لا تليق إلا بالأحرار » . والجانب المظلم للمعنى الذى تنطوى عليه هذه العبارة الأخيرة مؤداه فى إيجاز : « إذا أبى إنسان أن يواجه المصير الذى قدر له ، فليرد إلى الرق والعبودية » . وما من شك فى أن حاجة الدولة هى التى دعت إلى ذلك ، بيد أن هذا المرسوم مهد الطريق لنظام الرق ، وباتت العصور الوسطى على الأبواب .

وكان قسطنطين يشعر أن من واجبه أن يبرهن بكل ما يملك عن امتنانه لهذا الإله المسيحى الذى كان له نعم النصير والمعين . وما من شك فى أن الله سيعين الإمبراطورية ويصونها إذا ما اجتذبت إلى عبادته جماعات أخرى من المواطنين ، وعلى ذلك فقد أعفى كهنته (Clerici) ، بمقتضى مرسوم صدر عام ٣١٩

من جميع الواجبات غير الكهنوتية . جاء فى المرسوم «ويعفى الذين يسمون بالإكليروس Clerici إعفاء كليًّا من كافة الواجبات(Munera)، حتى لا يتسنى لأى امرئ يريد انتهاك حرمة الدين ، أن ينتزعهم من خدمتهم الكهنوتية المقدسة . وفى سنة ٣٢٢ قرر قسطنطين نهائيا إعفاء المسيحيين جميعا من مؤونة الاشتراك فى مراسيم الدولة الوثنية ، كما شرع فى بناء الكنائس بنفسه وقوى فى الآخرين الدافع إلى ذلك ، وأمر بزيادة عدد نسخ الكتاب المقدس حتى تتوفر للكنائس الجديدة النسخ(١) الخاصة بها ، كما أسبغ على رجال الدين المسيحى طائفة أخرى من الامتيازات . وكان يشعر أولا وقبل كل شىء بأن الله قد وضع على عاتقه عبء الحيلولة دون وقوع شقاق بين المؤمنين المسيحيين ، وكان يؤمن بدوره ، وقد نشأ على الطبائع الوثنية ، بأن الانقسام حقيق بأن يؤدى إلى انهيار بنيان الدين القويم ، فيكون من جرائه ابتعاد رحمة الإله الذى لحقت به الإساءة . عندما واجه قسطنطين الهرطقة والبدع الدينية لجأ أول الأمر إلى وسائل الضغط والقمع ، ولكنه ندم على ذلك فيما بعد ، فقال : « ليس لغير الأحمق أن يأخذ سبيل الانتقام ، فى حين أنه يجب أن نكل ذلك إلى الله ، لا سيما وأن من واجبات ديانتنا أن نوقن بأن كل ما نعانيه من خبل هذا الصنف من الناس إن هو فى نظر الله إلا استشهاد » .

وقد رؤى أن وسيلتى النقاش والإقناع أجدى من القمع. حدث منذ خمسة قرون مضت أن استدعى حاكم رومانى ، عن حسن نية ، أقطاب المدارس الفلسفية المختلفة ، وطلب إليهم أن يسعوا بكل سبيل إلى حسم الخلافات المذهبية القائمة بينهم . أما قسطنطين فقد استدعى بدوره وفى واقعية رومانية بحتة ، أساقفة جميع الولايات لحضور مؤتمر عام فى نيقيّا Nicaea ، وفى مايو عام ٣٢٥

---

(١) وتطلب ذلك البت فى أمر الكتب التى يجب تضمينها «العهد الجديد» من الإنجيل، ومن ثم تم تقرير القانون الكنسى .

افتتح بنفسه رسميا هذا الاجتماع الجليل (وهو أول المجامع المسكونية الكنسية) وأعرب عن أمله ورجائه فى أن تتم وحدة المسيحيين واجتماع كلمتهم .

وهكذا توصلت الإمبراطورية الرومانية بعد ما راودها من شكوك وما أظهرت من عداء طيلة هذه الأعوام إلى نوع من «الوفاق» مع الدين المسيحى الذى كان مقدرا له أن يصبح الدين الرسمى للإمبراطورية ، وذلك فى خلال ثلاثة أجيال . لقد كانت هذه فى الواقع خطوة جبارة ، وإن كان هذا لا يمنع أن تنتقد ويثار بشأنها الجدل ، وهل كان من الخير للكنيسة المسيحية أن تقبل على هذا النحو رعاية وحماية الدولة التى سامتها العذاب والاضطهاد ؟ وربما قيل أيضا إن غرم الكنيسة المسيحية من جراء ذلك كان أفدح من غنمها . فعلى حين أن الجهر باعتناق الدين المسيحى كان ينطوى فى الماضى على خطر كبير ، ومن ثم يتطلب شجاعة نادرة فقد بات منذ ذلك التاريخ مأمون العاقبة ، بل عونا على قضاء الحاجات ونيل الرغائب ، ومن ثم لم يكن ينتظر من الأجيال التالية أن تحتفظ بالروحانية السامية والحماس والغيرة على الدين اللذين عرفا عن الأجيال السالفة . ولقد احتدم الجدل طويلا حول الدوافع التى حدت بقسطنطين إلى إحداث هذا الانقلاب الخطير وحول مدى إخلاصه فى ذلك ، ولكن لما كان من المحال الحصول على براهين قاطعة ، ولما كان الميل والهوى حقيقين بأن يؤثرا فى الحكم على هذه المسألة ، فلا يسعنى هنا إلا أن أعرب عن وجهة نظرى الخاصة .

نشأ قسطنطين فى عالم وثنى يؤمن بتعدد الآلهة ، عن أب كان يميل دون شك إلى ضرب من ضروب الإيمان بإله واحد يتراءى فى صورة الشمس ، كما تشبع خلال سنى تكوينه الأولى بالإيمان بالشمس ، باعتبارها ربة الإمبراطورية .

الرومانية ، ولا يستبعد أن فرصاً قد أتيحت له من قبل لأن يتعرف على الإله المسيحى « شمس البر » ، ولابد أنه أطال التفكير والتأمل فى قوة ذلك الإله وفى عقيدة أتباعه ، وإذا كان قسطنطين قد آمن بعدالة قضيته ضد ماكسنتيوس (الأمر الذى تدعمه كافة القرائن) ، فإن مغزى كبيراً تنطوى عليه الحقيقة الماثلة فى أن الأمر الذى تلقاه ردا على صلاته كان مرتبطا بالرمز المسيحى المميز ، وهو الصليب الذى شوهد فوق قرص الشمس التى كان أبوه يتعبد لها . ولئن كان قسطنطين قد سعى بعد ذلك النصر المؤزر الذى أسبغ عليه إلى أن يفى بدينه بإقامة المبانى الفخمة وإحاطة رجال الدين المسيحى بمظاهر التكريم وشمول الكنيسة بوجه عام بعطفه ورعايته ، فمرد ذلك تعلقه بروح الديانة الوثنية وبعقيدة الإنسان البدائى . بيد أنه عندما شرع قسطنطين ، فيما بعد ، بدافع من شعور عميق فى هذه المرة بفضل الله عليه فى أن يسائل نفسه قائلا : « ومن أنا حتى يفعل الله كل ذلك من أجلى ؟ » ، فلا نعود نلحظ روح الاعتزاز الوثنى أو التقيد بتنفيذ عقـــد ملزم ، بل نلمس بدلا من ذلك دلائل قاطعة على اتضاعه وإيمانه .

ولا شك فى أنه شرع منذ عام ٣١٢ وما تلاه ، يوثق علاقته بالأساقفة والآباء الروحيين ، ليستزيد منهم بجوهر عقيدته علما ، كما حاول أن يتعلم المزيد ممن كانوا يبدون أقدر من غيرهم على إدراك وتفسير مشيئة الآب . وإنا لا نتجاوز حدود الإنصاف إن قررنا — لو حق لنا أن نحكم استناداً إلى أقواله التى تأكدت نسبتها إليه فى العصر الحديث — إن هـذه الأقوال تميط اللثام عنه فى ثوب رجل يؤمن بإله كان له أن يطلق عليه اسم « الآب » . بيد أنه أب من طراز الآباء الرومانيين القدماء ، فى صرامته واستبداده ، وهذا الإله ذو قدرة وجبروت ، كما أنه وإن كان يرضى عمن يعمل بشرائعه ، إلا أنه قاض عادل وإن كان صارما شديد البطش فى عقابه . ولا تنطوى هذه هذه النظرة على مشاعر تميز الروح المسيحية بوجه خاص ، إذ أنها لا تكشف

عن محبة الله بقدر ما تكشف عن رهبته . وليس لنا أن نعجب ، لو كانت هذه هى نظرته حقاً ، عن امتناعه عن التقدم للمعمودية حتى أصبح على فراش الموت ، إن المعمودية كما علّمنا ترتوليان وغيره تغفر جميع الخطايا ، ولذا فالويل للإنسان الذى ينساق إلى الزلات من جديد بعد معموديته. وفى هذه النقطة بالذات كان هناك الكثير مما يثير مخاوف الإمبراطور وقلقه ، فلابد أنه كان يدرك ما كان عليه خلقه من حدة وانحراف ، الأمر الذى أدى به عام ٣٢٦ إلى أن يقضى بالموت فى ساعة واحدة على ابنه كريسبوس Crispus وزوجته فاوستا Fausta لأسباب يتعذر التحقق منها فى الوقت الحاضر ، ولو أن الكتاب الوثنيين كانوا أسبق إلى إلصاق التهم الخلقية بهما . وكيفما كانت دوافعه ، فإنه لم يقبل المعمودية على يد أوسيبيوس إلا بعد أن أدرك أنه قد أشرف على الموت ، وعند ذلك صعدت روحه إلى بارئها فى الثانى والعشرين من مايو سنة ٣٣٧ .

وبرغم أننا لا نستطيع أن نتبين فى معتقدات قسطنطين الدينية كثيراً من مبادىء الدين المسيحى إلا أن الجانب الأعظم من القوانين التى سنها بعد عام ٣١٥ تكشف عن طبيعة إنسانية خيرة . كما اتسمت بعض التدابير التى اتخذها بالجلال والسمو ، وكشفت عن احترام وتقدير للنفس البشرية ، فى عصر قسّت فيه الحروب المتتالية والمعارك المتلاحقة قلوب الناس وسلوكهم وطبعتهم بطابع من الوحشية والقسوة . لم يلغ الرق — وما من حاكم من بنى البشر أمكنه أن يفعل ذلك بجرة من قلمه — بيد أن قسطنطين وضع فى اعتباره ألا تشرد العائلات التى تعمل فى ضياع الإمبراطور فى حالة بيعها ، كما أنه قضى بأن يدان السيد الذى يعامل عبده بفظاظة وقسوة تفضى به إلى الموت ، وفى النهاية ، تهيأت للعبد جميع الفرص كى يبرهن عن جدارته واستحقاقه للحرية والعتق .

وثمة قوانين أخرى كانت ترمى بوجه خاص إلى مساعدة الفقراء أو الضعفاء

أو المنكوبين ، فإذا ماعجز مزارع عن الوفاء بدينه فلا ينبغي أن يحجز على عبيده العاملين فى الحرث أو الثيران التى تجر المحاريث لاستيفاء هذه الديون ، لأن ذلك سيحرمه من الوسيلة الوحيدة التى يملكها والتى تمكنه من سداد الدين ، وقضى مرسوم آخر بحماية الأبناء الذين يفقدون أمانهم من جميع آبائهم أو خداعهم، وفرضت فى عام ٣٢٠ عقوبات رادعة على جريمة الاغتصاب . والقانون لا يمكن أن « يتأثر بالأشخاص » قط ، وعلى ذلك تقرر أن يحاكم المتهم بجريمة جسيمة فى الولاية التى ارتكبت بها ، لا فى موطنه حيث قد يؤثر جاهه ونفوذه على مجرى العدالة . وقضى بألا يثقل كاهل الكهنة والحاخامات اليهود بالواجبات المدنية بل يعفون منها شأنهم شأن الكهنة المسيحيين . وسن قسطنطين لسكان المدينة — رغبة منه فى تخصيص « يوم للراحة » — قانوناً يقضى بأن « تغلق المصانع ودور المحاكم فى يوم الشمس المكرم (وهو اليوم الذى ما زال يسمى فى الإنجليزية بوم الشمس « الأحد ») ، وإن كان لا يحق أن تتعطل فى ذلك اليوم أعمال البر أو الرحمة مثل إطلاق سراح العبيد ، كما أنه لا ينبغى أن يضيع عمال الريف فرصة جمع المحاصيل والغلال . وصدر عام ٣١٦ مرسوم يحتج على عادة وسم وجوه المجرمين بوصمة العار لأن هذه الوجوه « قد رسمت على صورة طلعة الله البهية » . ولا ينبغى كذلك إجبار المجرمين المدانين على احتراف المصارعة أو ممارسة أى عمل إجرامى « لأن مثل هذه المشاهد الدموية أصبحت نابية غريبة على عصر سلم وهدوء » . ولعل آية ذلك التغيير الذى طرأ على الطابع السائد فى التشريع ، المرسوم الذى صدر فى عام ٣٢٠ والخاص بمعاملة المساجين داخل السجن . فقد قضى بألا يصفد المساجين بأغلال حديدية ثقيلة تحز فى الأبدان ، بل ينبغى أن تكون الأغلال خفيفة . وأن يسمح لهم بالضوء الكافى وبممارسة الرياضة اللازمة لأبدانهم ، كما تقرر أن يعاقب السجانون عقاباً رادعاً على فظاظتهم وقسوتهم . وأخيراً فقد سن قسطنطين عام ٣٣١ قانوناً يقضى بحرمان الآباء من أبوتهم لأبنائهم الذين

يطرحونهم فى العراء ويتخلون عنهم ، وهذه عادة شاعت فى أوساط الوثنيين وقد نهى عنها كلية الكتاب المسيحيون ، وقضى هذا القانون بأن من يعثر على طفل مطروح وينقذه ، فله الحق الكامل عليه .

ولعل فى هذه النخبة المختارة من القوانين ما يكفى لإلقاء بصيص من الضوء على الطابع الإنسانى الخير الذى ظهر على بعض تشريعات قسطنطين ، لقد كان الإمبراطور يرمى بمثل هذه التدابير وتلك القوانين إلى تحقيق ثلاثة أهداف فى وقت واحد ، وهى مواجهة متاعب الحالة الاقتصادية والاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية ، والعمل بما اعتقد أنه يمثل مشيئة الآب . ذلك لأن العالم لم يعد ينعم بذلك العيش الرغد فى ظل الثقافة والعلم ، الذى كان ينعم به فى عهد مثل عهد أوغسطس أو هادريان ، فإن سبعين سنة أو تزيد من القتال والكفاح قدهبطت بالمستوى الذهنى والعلمى فى البلاد ، واستنفدت موارد الإمبراطورية ، فلقد كان الأباطرة الذين تولوا الحكم فى مستهل القرن الرابع جنوداً أولا وقبل كل شىء ، لهم الحماس والقوة ، ولهم الصلابة والإيمان والعزم ، وإن كانوا ينزعون — عند ما تعوزهم الحيلة — إلى الأمر والنهى والردع والقسر . وتكشف الأقوال التى وردت على لسان قسطنطين — رغم صدقها الذى لا شك فيه — عن حال رجل لم تتيسر له فرص التعليم الرسمى العام ، فباتت تطربه الألفاظ المطولة والعبارات الرنانة الطنانة . بيد أنه اضطلع بواجباته على خير وجه وأبلى فيها البلاء الحسن ، بأن كان على حد تعبيره « عين الله الساهرة على من هم خارج حظيرة الكنيسة » ، وهو وإن احتل أعلى مرتبة يمكن أن يبلغها إنسان على الأرض ، فهو يعترف فى خشوع بأنه عبد خاطىء . وهو لم يدخل إلى أحضان الكنيسة إلا وهو على فراش الموت . وبهذه الصورة قضى ذلك الرجل الغريب الأطوار العظيم المكانة نحبه ، وغرابة أطواره تكمن فى جمعه بين متناقضات فهو مخلص سليم الطوية ، داهية واسع الحيلة فى الوقت ذاته ، وهو مؤمن بالدين المسيحى متوجس متخوف تخوف الوثنى ،

وعظم مكانته تكمن في أنه كان رومانياً خالص الطبع فى حكمته وقدرته على حسم الأمور ، وفى تقديره الفطرى لساعة التحفز وساعة الهجوم .

وربما راوده الأمل وهو على فراش الموت فى أن يتولى أبناؤه الثلاثة حكم الإمبراطورية التى قسمها فيما بينهم ، فى ظل السلام والوئام ، ولعله أمل أيضاً فى ألا تكون لوحدة الإمبراطورية انفصام ، بيد أنه كان حقيقاً به أن يدرك أن آماله لم تكن إلا سرابا . ذلك لأنه ، رغم جميع الاصلاحات التى تمت ، فقد ظل البرابرة يترقبون بالمرصاد خارج الحدود ، على أهبة واستعداد لأن يقتحموها عند ضعف أية نقطة منها ، ولم تعد الدولة تتجه بإمكانياتها إلى السلام والوفرة والإنتاج بل سخرت مواردها لمواجهة أزمة دائمة متفاقمة ، تثقل فيها كواهل جميع طبقات الشعب بالضرائب الباهظة ويدفع أبناؤها إلى العمل دفعاً . وبغض النظر عن النفقات المعهودة لكل من الجيش والجهاز الحكومى ، فلابد أن كانت التكاليف الإضافية التى استلزمتها أعمال البناء والتحصين والتزيين « لمدينة القسطنطينية » (كما عرفت طوال ستة عشر قرناً تقريباً) ، أو « روما الجديدة » ضخمة باهظة .

لقد تغيرت نظرية الحاكم والحكومة تغييراً شاملا فى روما الجديدة التى انتقل إليها مقر الحكم ، بعد ثلاثة قرون ونصف قرن من إعلان رئيس الجمهورية الأول الحرب على كليوباترة رغبة فى الاحتفاظ بسيادة روما وإيطاليا . ففى عام ٢٥ ق . م . كان يدير دفة الأمور فى الإمبراطورية ويمسك بقيادها رجل ذو سلطة عليا ، لا يزيد مع ذلك عن كونه مواطناً عادياً لا يتميز بشىء عن سائر المواطنين ، يفخر بأنه يلبس « التوجا » ، وهو اللباس الوطنى العادى . ويحيا فى دار لا تختلف عن الدور البسيطة التى كان يقطنها النبلاء الرومانيون ، وكان قريب المنال رهن الإشارة خاضعاً لأحكام القانون . وقرابة عام ٣٣٧ كان هذا العالم ذاته يخضع لحاكم له كل سلطات ومظاهر العاهل المطلق ، وإن كان لا ينقصه إلا أن يلقب بذلك ، ويعلو درجات ودرجات فوق عامة المواطنين ، وهو فوق القانون لا يخضع لأحكامه — كان بوسع خلفائه فى الواقع أن

يزعموا أنهم هم مصدر القانون — ويتميز بفخامة وأبهة ملبسه (إذ كان يضع على رأسه تاجاً أو إكليلاً مثلثاً ويرتدى حللا من الأرجوان أو الحرير المطرز وينتعل حذاء مرصعاً بالأحجار الكريمة) وهو لباس لا يدانيه بحال لباس رعاياه، ويقيم فى قصر يتميز بالضخامة والتعقيد، ولا يظهر لشعبه إلا فى القليل النادر، كما لا يمكن الدخول فى حضرته إلا بعد المرور بطبقات الحجاب والأغوات والمآمير، ثم لا تكون تحيته إلا تحية خشوع ورهبة تكاد تقرب من خشوع العابد لربه. ذلك لأن قسطنطين نقل وطور مراسيم البلاط الملكى ذات الأبهة والجلال التى دأب أسلافه الأباطرة على اقتباسها من بلاد الفرس فى عهد الأسرة المالكة الساسانية، كما أسبغ على البلاط وأقسامه طابعاً قريب الشبه من طابع التقديس الدينى. كما أن أسماء القصر نفسه، ومجلس الدولة الأعلى والخزانة وحرس الإمبراطور الخاص، كانت تكرّم بأن تقرن بصفة التقديس. ولا نحسب أن هذه المظاهر لم يكن لها ما يمهد لها، فقد ورد فى أشعار صغار الشعراء خلال القرن الأول تعبير «الإمبراطور دوميشيان المقدس» أو «يديه المقدستين»، بيد أنه لم يكتب لهذه العادة فى ذلك العهد الذيوع والانتشار فحسب، بل أصبحت جزءاً لا يتجزأ من لغة الحياة اليومية. والحقيقة أن تقاليد بلاط قسطنطين التى تطورت على يد شرلمان والإمبراطورية الرومانية المقدسة، قد أصبحت الأصل الذى نشأت عنه جميع المراسيم الدبلوماسية والحكومية فى العصر الحديث، سواء فى ظل النظم الملكية أو الجمهورية. وربما قيل إن مثل هذا الضرب من الحكم الفردى المحاط بمظاهر الأبهة والعظمة، كان لازماً للتأثير على الجند المتمردين وإلقاء الرعب فى نفوسهم أو إثارة عجب أهل الريف البسطاء، بيد أنه ليس من شأن هذا الزعم إلا أن يكشف عن مدى ابتعاد النظام الإمبراطورى فى عهوده المتأخرة عن مبادئ المدينة الدولة الخاصة بالحرية الفردية والاستقلال فى الرأى. أما عن الحرية الفردية فلم يبق من معالمها إلا القليل، كما أوشك أن يندثر ذلك المستوى العالى للرأى العام المثقف الذى كان سائداً فى وقت ما فى حواضر الولايات،

لأنه لم يتسع وقت أباطرة القرن الثالث، كما لم يكن لديهم الميل إلى تلقين شعبهم الذى نال الحقوق السياسية مؤخراً ، المسئوليات الكاملة المترتبة على حقوق المواطنة الرومانية .

بيد أنه ليس من الإنصاف فى شىء أن ننحى باللائمة فيما انحدرت إليه الأمور على قسطنطين ، لأن ذلك معناه أنه كان قادرا على النظر إلى مشاكل عصره بمنظار القرن العشرين . إن ما كان يرمى إليه قسطنطين ، وما سعى إلى تحقيقه بكل الإمكانيات التى توفرت لديه ، هو تهيئة أسباب الاستقرار والقوة ، فى جميع النواحى ، لمجموعة البلاد الخاضعة للحكم الرومانى ، وحمايتها من تلك الأخطار التى تكشفت عنها أنياب القرن الثالث ، ولكى يحقق هذا الهدف لجأ إلى أحدث أساليب عصره الفنية وأقدرها على تحقيق الغرض المنشود . ففى الميدان العسكرى طور نظم دقلديانوس الخاصة باستخدام القوات الإقليمية التى يتم تجنيدها محليا بقصد حراسة الحدود وتلقى الصدمة الأولى للهجوم ، مع الاحتفاظ بجيوش صغيرة متنقلة مدربة ، فى الوقت ذاته ، لكى يهرع بها إلى النقطة المهددة بأعظم قسط من الخطر (أو حيث نفذ العدو) . كما استخدم القوات المدربة على الأسلحة الخاصة على نطاق واسع ، فكان هناك رماة السهام والمقاليع وجماعات الهجانة والرماحون والفرسان ذوو الدروع الثقيلة (catafractarii) والحفارون والمتسللون ، على حين أن المهندسين الرومانيين توصلوا إلى تصميم منجانيقات رهيبة (انظر الفصل التاسع) . وختم قسطنطين هذه التطورات والإصلاحات بالخطوة المنطقية الحتمية ، ألا وهى تعيين قائدين فى القيادة العليا يسميان رئيسين Magistrii . وكان دقلديانوس قد أطلق سلفا هذا اللقب على رؤساء الديوان الإمبراطورى ودواوين الدولة ، مثل ديوان المحفوظات والعدل والمراسلات . أما الآن فيبدو أن قسطنطين قد عين رئيسين عسكريين أحدهما رئيس للمشاة Magister Peditum والآخر رئيس للفرسان Magister Equitum وكانا يعتبران ، نظرا لما كان لهما من سلطة عليا على حكام

الولايات وعلى الموظفين العسكريين الأدنى منهم رتبة ، بمثابة رئيسين لأركان حرب الإمبراطورية (ويليان فى المرتبة الإمبراطور مباشرة) . ولعله من الطريف أن نذكر أن هذا اللقب كتبت له الحياة إلى وقتنا هذا فى المنصبين المعروفين فى انجلترا باسم « أمين السجلات » The Master of the Rolls و « أمين العتاد الحربى » The Master of Ordnance . أما فى ميدان خدمات النقل والحراسة ، فقد روعى إجراء تدريبات مستمرة للأساطيل الإقليمية — وهى أساطيل بريطانيا والبحر الأسود وموريتانيا — والأساطيل النهرية الصغيرة ، كما تقرر إنشاء محطات للصيانة (reliquationes) فى المواقع المناسبه . وكانت الطوائف المشتغلة بأعمال النقل النهرى تنظم فى نقابات لضمان وصول الإمدادات للجيوش دون انقطاع . كما طبق نظام النقابات على مهن ، أخرى ، بيد أن المقصود به كان دائما ضمان تدفق الأيدى العاملة بلا انقطاع إلى المرافق والمنشآت العامة . وبدا كما لو أن استخدام العبيد فى زراعة الضياع الواسعة هو الحل القريب للمشكلة التى تتعلق بكيفية زيادة محاصيل الغلال وغيرها من المواد الغذائية . واكتسحت العملة الجديدة المؤلفة من قطعتين ذهبيتين هما الـ aureus والـ solidus وقطعة فضية ثالثة ، وهى التى كانت بمثابة تعديل لإصلاحات دقلديانوس النقدية (انظر الفصل التاسع) اكتسحت العملات المحلية والإقليمية اكتساحا تاماً ، وكاد يراد بها نظراً لوحدتها ودقة وزنها أن تهيء وسيله ثابتة للتعامل بعد التدهور والانهيار المفجع الذى طرأ على العملة فى القرن الماضى .

أما فى الدين فقد سار موكب الإصلاح والتجديد بطيئا شيئا ما . كان قسطنطين قد اكتشف — فى اعتقاده — الإله الواحد الحق ، إلها استطاع أن يؤيد أتباعه بنصر مؤزر لا يدانيه ما يمكن أن يمنحه إله كجوبيتر أو هرقل فلا شك فى أنه كان يحرص على نيل الخلاص لنفسه وروحه — وقد رأينا

كيف أنه أرجأ معموديته حتى اللحظة الأخيرة — بيد أنه كان أشد حرصا من ذلك على صون الدولة الرومانية res Romana وعلى أن يوفر لها أسباب السلامة والأمن . ورأى أن ذلك لا بد وأن يتحقق لو أمكن إقناع السكان فى كافة أنحاء الإمبراطورية بنبذ الآلهة القديمة واعتناق الدين الجديد . ولكنه على الرغم من أن قسطنطين كان يأمل فى بلوغ هذا الهدف ، إلا أنه كان أحصف من أن يفرض رغباته على شعبه طفرة واحدة . وتتفق نظرته فى هذه النقطة مع ما أعرب عنه أحد معاصريه وهو هيلارى Hilary أسقف بويتيرز Poitiers وربما كان قسطنطين هو الذى أخذ برأى هيلارى ، إذ احتج هذا الأسقف بشدة وجرأة على إجبار جماهير الرجال والنساء على الإيمان جماعياً بالعقائد الدينية وقال : « إن الله أباح الطريق إلى معرفته للبشر جميعا ولكنه لم يطلبها منهم قسراً » . ثم جهر بقوله : « وهو يأبى الإيمان الذى يأتى عن طريق الإجبار والقسر » . وبغض النظر عن ذلك ، فإن الحكمة والمنطق رسما لقسطنطين طريق التأنى ، وحذراه من مغبة إشاعة الانقسام فى الإمبراطورية . ذلك لأن ثمة صفة كانت تميز فيما يبدو جميع أباطرة ذلك العصر — على اختلاف طباعهم — وهى الولاء الصادق والانكباب التام على صون الإمبراطورية . إن الإيمان بالدولة الرومانية res Romana والرغبة فى خلودها أبد الدهر كان فى الواقع هو الديانة الحقيقية لدى هؤلاء الأباطرة وإلى جانب هذا الهدف يتضاءل كل شىء .

خاتمة

مع أنه لم يقدر لقسطنطين أن يستولى على السلطات الواسعة التى تمتع بها أوغسطس الميمون الطالع أثناء حكمه ، إلا أنه تولى ، قبل وفاته عام ٣٧٧ ، مقاليد الأمور فترة من الزمن أتاحت له أن يترك الخلافة على الإمبراطورية من بعده هادئة مستتبة وأن يضمن استقرار نظام حكمه الجديد . فقد باتت مقاليد الحكم فى يد طبقة محدودة العدد عظيمة المران والدربة ، لم تكتسب خبرتها بالدراسة الأكاديمية النظرية بقدر ما اكتسبتها بالممارسة والتطبيق العملى ، وجمعت أطراف معارفها فى مدرسة الحملات وميادين القتال وما أشقها من مدرسة ، فضلا عن أن الحكومة كانت تؤثر طريق القسر والإجبار على لين أساليب الجدل والإقناع . وحظيت هذه الطبقة بتأييد المثقفين الرومانيين واليونانيين ، ومؤازرة رجال الدين المسيحى Clerici ، الذين كان من بينهم من استوعب أروع ما حوته الثقافة القديمة .

كان نظام الحكم الجديد هذا يبشر فى أول عهده بآمال عراض ، بيد أنه لم تمض خمسون سنة حتى لقى الجيش هزيمة منكرة على يد القوطيين عند أدريانويل Adrianople ، وفى خلال مائة السنة احتلت واستبيحت روما « القديمة » نفسها ، وفى خلال مائة وخمسين سنة (برغم أن « روما الجديدة » ظلت تنعم بالأمن وترفل فى مظاهر الأبهة) كان آخر إمبراطور رومانى على الغرب قد خلع عن عرشه على يد البرابرة . ولنا أن نتساءل عما بقى بعد ذلك .

ربما كان الحديث عن اللغة هو البداية الموفقة لإجابتنا على هذا السؤال . فاللغة اللاتينية ، اللغة الرسمية للإمبراطورية ، كانت قد رسخت وامتدت جذورها فى الولايات الغربية ، إلى حد كفل لها البقاء كأساس للغات الحديثة فى فرنسا

واسبانيا والبرتغال ثم إيطاليا وجزرها بطبيعة الحال (١) . أما فى بريطانيا فإن اللغة اللاتينية قد طغت على (أو أضافت إلى) اللغة الكلتية البريطانية القديمة بالدرجة التى سمحت بتخلف نسبة ضئيلة من المفردات اللاتينية فى لغة الحياة اليومية فى كل من ويلز Wales وبريتانى Brittany . أما فى شرقى سويسرا والتيرول Tyrol فإن اللهجات الحديثة للغتى ريتورومانش Rhaeto-Romansch ولادين Ladine ، تنحدر مباشرة عن اللغة اللاتينية . واندثرت اللغة اللاتينية فى شمال إفريقيا فى نهاية الأمر ، ولكنه ما زالت هناك فى بضع قرى فى دلماشيا وفى رومانيا الحديثة إلى الشرق لغة رومانية ، يتألف نصف مفرداتها تقريبا من جذور لاتينية . وبالنظر إلى أن اللغة تحمل معها أثنا انتشارها التقاليد والأفكار التى ترتبط بها ، فإنه يمكن القول بأن أوربا الغربية هى سليلة الإمبراطورية الرومانية ، بل إن انجلترا نفسها التى أدت غزوات الساكسون لها إلى محو اللغة اللاتينية بها ، تلقت فيضاً من هذه اللغة عن طريق الغزو النورماندى ، ولذلك فإن أبناءها ما زالوا يعيشون فى ميادين الفلسفة والقانون والتعليم والدين فى عالم لاتينى .

أما فى النصف الشرقى من الإمبراطورية ، حيث كان مقدم اللغة اللاتينية متأخراً ، فلم تلبث هذه اللغة أن انمحت تماماً ، ولو أنها بقيت فى رومانيا . بيد أن اللغة اليونانية ظلت لعدة قرون متأصلة راسخة فى كل من جنوب البلقان والأناضول وسورية ومصر . ولم ينقطع حبلها إلا فى القرنين السابع والثامن ، حين اجتاحت فتوحات العرب مصر وسورية . وكان انقطاعها انقطاعاً لا رجعة فيه ، فأخذت اللغة اليونانية فى الانحسار شيئاً فشيئاً حتى انحصرت فى الساحل الغربى من آسيا الصغرى والقسطنطينية وشمال بحر إيجة

---

(١) ويقال إن فعل « أحب » يجرى تصريفه فى سردينيا حتى يومنا هذا بالصورة التى يصرف بها فى اللغة اللاتينية القديمة أى :

أحب ، تحب ، يحب — (مفرد) متكلم ، مخاطب ، غائب — amo, amas, amat

ثم فى وطنها الأصلى . ومع ذلك فإنه على الرغم مما يقال من أن قائداً عربيا دفعته غيرته على الدين إلى أن يشعل النار فيما بقى من مكتبة الإسكندرية ، فإن الباحثين العرب انكبوا فى نهم بالغ على دراسة أعمال الفلاسفة والأطباء والعلماء القدماء ، وهذا هو السبب فى أن العلم لدى العرب قد أينع وازدهر ازدهاراً مشهودا ، فى وقت كانت فيه أوربا لم تزل تتخبط فى ظلمات الجهل .

والحقيقة أن جانبا عظيما من أوربا الغربية ظل لعدة قرون يعيش على لغة مشتركة وتقاليد مشتركة ، كما كان على اتصال دائم ، أثناء ذلك ، باللغة العظيمة الأخرى ، ألا وهى اللغة اليونانية . ولم تكن كارثة أدريانوبل عام ٣٧٦ أو تخريب روما عام ٤١٠ هما الحادثتان اللتان قطعتا هذه الحلقة المتصلة ، بل إن السبب فى ذلك هو وقوع غارتين ، الأولى : عندما استولى أحد ملوك الفاندال ويسمى كيزريك Caiseric — وقد بدأ حملته من قرطاجنة التى اتخذها قاعدة له — فى منتصف القرن الخامس ، على كل من صقلية وسردينيا وكورسيكا على التوالى ، ومن ثم أغلق طريق البحر الأبيض المتوسط الذى يقطع المسافة من أقصاها إلى أقصاها ، والثانية : عندما قطعت الغزوات المتلاحقة التى شنها الهانيون Huns والأفاريون Avars والسلافيون Slavs على ولايات الدانوب ، الطريق الرئيسى الذى كان يربط فى وقت ما بين بحر المانش والبحر الإدرياتيكى وخليج البسفور .

ومع ذلك فإنه وإن كانت الوحدة الجغرافية واللغوية قد انفصمت تماما ، فقد كتب البقاء لوحدة الشعوب ووحدة المبادئ . ولندقق النظر فيما تعنيه هذه العبارة . أما عن الشعب وهو الأهم ، فلنا أن نذكر ثلاث فئات منه هم المزارعون والصناع والإكليروس cleric . فقد احتفظ المزارعون وسط دوامة الغزوات وويلاتها واختلاف السادة على كراسى الحكم ، كما ورثوا الجيل بعد جيل المهارات والمعارف الضرورية لرعى الأغنام والماشية ، ولمباشرة

زراعة الغلال والكروم ولدراسة الأحوال الجوية والازمنة والمواسم . وعلى هذا النحو أيضا عاشت مهارات مختلف الصناع ، من نجارين وبنائين ، ومن صناع للعجلات والعربات ، ومن النقاشين ومغلفى الكتب والموشين بالذهب والصباغين والنساجين والقصارين وسباكى المعادن المختلفة والدباغين وصناع الجلود ، إن هؤلاء جميعاً وكثيراً غيرهم لم تنقطع حاجة الملوك والقصور والبارونات الأثرياء أو الكنائس العظيمة والمجتمعات الدينية إليهم قط ، ذلك لأن الكنيسة قامت بإحياء تلك الفنون الكمالية مثل الصباغة (سواء للجلود أو الأقمشة) والطلاء والتلبيع والتمويه بالذهب وأعمال الفسيفساء ونقش الزجاج . ومن بين أطرف النصوص التى آلت إلينا والتى تعد بالمئات نص يحمل عنوانا محليا بحتا يقول « الملف ٤٩٠ ، لوكا » ويحوى ما يزيد عن مائة إيصال عن أعمال فنية مثل الطلاء بالذهب والصباغة والتلبيع وأشغال الفسيفساء إلى آخره . أما الطبقة الثالثة : وهم الإكليروس فقد أمدوا الحكام لفترة طويلة من الزمن بالكتبة الماهرين والصناع الحاذقين أو أنتجوا بالعمل المثابر الجاد فى قاعات النسخ بالأديرة نسخاً من الكتاب المقدس ومن مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين العظيمة أيضا . وهكذا توارثت الأجيال معارف الفنون والحرف والعناصر الروحية التى يحيا بها البشر ، فكتب لها البقاء .

بيد أن ثمة أشياء أخرى قدر لها أن تحيا فى صورة ذكريات وأفكار وتقاليد . فرغم أن روما الإيطالية لم تعد بعد عاصمة الإمبراطورية . ورغم أن «روما الجديدة» التى زينها الحكام الواحد بعد الآخر وزادوها اتساعا على اتساع قد ورثت جانباً كبيراً من الصيت والمجد الذى كان لسالفتها ، فلم يكن هناك ما يحرم المدينة القديمة من مجدها المؤثل ، كما أنه ما إن ازداد نفوذ أساقفة روما (منذ عهد البابا جريجورى Gregory عام ٦٠٠ تقريبا وما تلاه) حتى اكتسب لقب « المدينة الخالدة » القديم قوة ومعنى جديدين . وكان بوسع البرابرة أن

يشاهدوا فى كل ناحية من أنحاء المنطقة التى كانت تحتلها الولايات فى القديم (والتى أصبحت الآن ممالك غريبة ناشئة) أسوار وآثار المدن الكبيرة والطرق والكبارى ومجارى المياه العالية التى تشهد بمجد غابر . إن ما أثار إعجاب هذه الأجناس الجديدة الفتية هو روعة نظام الحكم الرومانى وإحكامه . لقد صرح أحد رؤساء العشائر القوطية ويدعى أثولف بقوله : «كنت أتوق إلى أن أحطم الإمبراطورية الرومانية وأقوض بنيانها ، ولكنى لم ألبث — بعد أن أثبتت لى التجارب أنه ليس بوسع القوطيين أن يحترموا القانون لوحشيتهم التى لا حد لها — أن آليت على نفسى بدلا من ذلك أن أسعى لأنال شرفا رفيعاً بأن تسترد روما مكانتها الأولى وأؤيدها وأدعمها بقوة القوطيين ، آملا فى أن تعرف عنى الأجيال التالية أننى منقذ روما» . كان هذا هو سحر الإمبراطورية الذى أسر ألباب البرابرة ، ولم يكن مرد هذا السحر عظمتها وجلالها فحسب بل قوانينها ونظمها أيضا ، إذ كانت هذه قد بلغت ذروة الكمال والنضج على حين أنها لم تكن لديهم إلا جنينا فى دور التكوين . ومن بين الأركان الأساسية للدولة ، دور المحاكم ، حيث يقضى بالعدل قضاة مقسطون بموجب قانون عالمى معروف ، تتحدد فيه المخالفات والجرائم على نحو صحيح قاطع . لقد كانت روما تفاخر وتزهو بأن عدالتها عدالة صارمة منصفة مباحة للجميع ، وإن قراءة سفر أعمال الرسل أو قراءة ردود تراجان على بلينى (فى الكتاب العاشر من رسائله) لتقدم البرهان الدامغ على ذلك ، وعلى نزوع لرومانيين الفطرى أيضا إلى النظام والوقار والاحتشام . لقد شهد القرن الثانى تطوراً كبيراً لفكرة المساواة والإنسانية ، اقترن بالتأمل فى ماهية القانون الطبيعى ، وأسس القانون الدولى ، أما القرن الثالث فكان عصر أئمة المشرعين.

وإن ما يثير فزع المؤرخ الحديث هو اختفاء المحاكمات القانونية وسط هرج القرن الثالث واضطراب أحواله ، وإبان القرن الرابع أيضا حين زعم أن

الأمور قد عادت إلى مجاريها ، بالإضافة إلى ظهور اتهام جديد يسمى stellionatus كان على درجة من الغموض تكفل الإدانة العاجلة المؤكدة ، شأنه شأن اتهام « الوقاحة التامة » الجامع المطلق الذى كان يلفق زمنا ما فى الجيش البريطانى . ورغم ذلك ، فقد كان فى وسع الحكام البرابرة أن يعولوا على خدمات رجال المتمرسين فى تطبيق القانون ، لهم القدرة على تحديد نقط الخلاف وحسمها على أسس قانونية صحيحة .

وعندما وضع جستينيان Justinian فيما بعد (٥٢٧ — ٥٦٥) مجموعة القوانين الرومانية ، أصدر الملوك القوطيون فى الغرب مجموعات للقوانين تقوم على أساس الخبرة القانونية الرومانية ، وذلك لصالح مواطنيهم وصالح رعاياهم الرومانيين أيضا . ولعلهم قد تشربوا مع هذه القوانين بجانب من الخلتين اللتين تحلى بهما الرومان وهما المساواة وال humanitas وهى تعنى الاحترام المتبادل بين الإنسان باعتباره كائنا عاقلا وبين أخيه الإنسان ، وتشير إلى الفكرة القائلة بأن المقصود من القانون هو حماية حقوق المواطن لا السيطرة عليه . والخلاصة أن يقدس البشر بعضهم البعض .

والواقع أن من أطرف الموضوعات الجديرة بالبحث موضوع المعارف التى أخذها البرابرة عن الرومان ، فقد كان الكثيرون من أمثال هؤلاء الجرمانيين والماركومانيين Marcommani والساكسونيين والسكوتيين Scotti جنودا بالجيوش الرومانية ، تعلموا فيها فنون التحصين والمعمار ، والمعتقد أن آثار المتاريس والخنادق التى عثر عليها فى الدانمرك وشمال إيرلنده تدل على إلمام بالطرق الفنية الرومانية . كما لقن الرومان سكان أوربا الغربية أثناء احتلالهم لها مناهج فنية حديثة وجلبوا أنواع جديدة من النباتات وأشجار الفاكهة ، وتدل مصطلحات البناء والمعمار فى اللغات الولشية والفلمنكية والمانكسية والبرتغالية على انحدارها جميعا من أصل واحد ، كما هو الحال

أيضا ، بالنسبة لأسماء عدد من أشجار الفاكهة والخضروات . ومن المؤكد لدينا أن الرومانيين هم الذين نقلوا شجرة الكريز إلى إنجلترا ، وربما كان الإنجليز يدينون أيضا للرومان بالفضل فى جلب أنواع أخرى من الفاكهة . ولم يقف تأثير الرومان عند حدود دولتهم فحسب ، بل خلفوا آثارا تتجاوز هذه الحدود نظرا لانتشار تجارتهم وصادراتهم . فقد استمدت الألفاظ التى تعنى فى اللغة الايرلندية القديمة : قرمزى ، وذهب ، ونبيذ وغيرها من أصول لاتينية ، كما أخذ نظام الموازين والمقاييس القديم فى النرويج عن النظام الرومانى ، كما أن اللفظة الهندية الدالة على قطعة النقود الفضية « دينار » أخذت عن اللفظة اللاتينية denarius .

ولما كانت الممالك الجديدة حريصة على أن تضفى على نفسها صفة شرعية ، فقد زعمت أنها سليلة الإمبراطورية شرعاً أو أنها قد تفرعت عن أصلها ، كما واصلت استخدام شعارات الإمبراطورية الرومانية وألقابها . كما خلع أحد ملوك لمبارديا Lombardia على نفسه لقب فلافيوس Flavius ، لأن ذلك سيربطه بالأسرة الفلافية التى كان ينتسب إليها الإمبراطور العظيم قسطنطين ، وزعم أحد الملوك الانجليز فى القرن الثامن ، بعد أن عظم سلطانه واتسع ملكه ، بأنه برتفالد Bretwald(١) ، حتى أنه كما يقول بيد Bede : « كان يتقدمه حامل الراية ويلبس غطاء للرأس يسمى ثوف thuf فى رحلاته الملكية » . وكان الثوف غطاء للرأس يلبسه الأباطرة البيزنطيون ، وقد أراد ذلك الملك أن يضفى على نفسه صفة شرعية بارتداء هذا الغطاء . كما رأى الحكام الأنجلوساكسونيون

---

(١) وهذا اللقب نفسه « برتفالد » مأخوذ عن اللاتنية بطريق الإنجليزية ، لأن برتفالد هى اللفظة الأنجلوساكسونية للفظة البرطانية Prydein-Wledig (أى حاكم بريطانيا) وهى

الأوائل أو رأى صيارفتهم أن من الأوفق تصوير الرمن الرومانى الشهير وهو الذئبة وتوأماها على عملاتهم . وهنا تسكن التقاليد ويكمن الخلود .

وكانت نظم التربية والتعليم الرومانية فى القديم من الحكمة بحيث حرصت على المزج بين الخبرة المدنية والخبرة العسكرية ، فلا يبلغ المواطن رتبة البرايتور إلا ويكون قد أسهم فى بعض الحملات الحربية ، وتقلب فى عدد من الوظائف الإدارية الصغيرة ، وشهد بعض المحاكمات فى دور المحاكم الرومانية ، كانت هذه هى النظم التى تخرج عليها رجال من أمثال يوليوس قيصر وفسباسيان وأجريكولا وتراجان ، بيد أنها ما لبثت أن اندثرت واختفت شيئا فشيئا نتيجة لطغيان الناحية العسكرية على الناحية المدنية ، وما إن حل عهد سبتيميوس سيفيروس حتى أصبح للجيش اليد الطولى . وقد تلقى الأباطرة المقاتلون الذين تولوا الحكم فى أواسط القرن الثالث وأواخره ، الجانب الأعظم من تعليمهم داخل المعسكرات ، ولم تكن لهم خبرة بالشئون المدنية ، صحيح أنهم لم يفقهوا شيئا فى القانون أو الاقتصاد لكنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة كيف يتغلبون على العقبات فى ضراوة وشراسة . لقد كان العصر يتطلب عملا عاجلا حاسما ، وكان هؤلاء يضيقون بأساليب التدرج وعبارات الإغراء والإقناع ، فليس فى وسعهم إلا أن يلجأوا إلى القوة وأن يقابلوا مداورات القوم ومراوغاتهم بمزيد من الموانع والقيود . واضطرت الإمبراطورية شيئا فشيئا إلى أن تعيش فى « حالة طوارئ » دائمة يتلقى الجميع فيها أوامرهم من شخص واحد هو الإمبراطور وهو الشخص الذى يتخذ القرارات العاجلة الحاسمة ، والشخص الذى يجب أن يطاع أمره ، فقد كان من الطبيعى أن يعلى من شأن مركزه وسمو مكانته ، وبتعاقب الأجيال أصبح ينظر إلى الإمبراطور ، على اعتبار أنه هبة العناية الإلهية Providentia Deorum . فمركزه وفضائله هى من عند الله ، وما كان أيسر أن تتخذ بعد قسطنطين الخطوة التالية وهى أن يحكم الإمبراطورية بعناية الله

Dei Gratia . وحين يكون الإمبراطور خليفة لله على الأرض ، فلامفر من أن تكون سلطاته سلطات استبدادية مطلقة ، ومن من الناس يجرؤ على التعقيب عليه ؟ وقد اضطلعت الكنيسة المسيحية فترة من الزمن ، بعد أن نالت على نحو مفاجيء رضاء الأباطرة وحمايتهم ، بمسئولياتها كاملة ، وكان لأمثال القديس هيلارى أو القديس أمبروز أو الأسقف سينيسيوس الجرأة على توجيه عبارات اللوم أو التقدم بالنصح إلى حاكم مستبد لم تكن تقع على سمعه غير كلمات الإطراء والمديح من جانب الحاشية والمتآمرين وطلاب الحاجات . بيد أن مثل هذه الحرية والاستقلال والجرأة لم تكن لتبقى طويلا ، لأن الدولة ستسعى بطبيعة الحال إلى أن تجعل من الكنيسة (بما لها من سلطان كبير على نفوس البشر) أداة لتنفيذ أغراضها ، وما لبث رجال الكنيسة أن أحسوا بأنه لا سبيل إلى مقاومة سحر السلطة الدنيوية الطاغي وأن لا مفر من التحالف مع هذا النصير القوى .

بيد أن قصة العلاقة بين الدولة والكنيسة لا ترجع إلا إلى عصر متأخر ، أما خلال القرن الرابع فقد أدى رؤساء الدين المسيحى والمتحدثون باسمه دورهم فى شهامة وجسارة . فالكنيسة تستحق الحمد والثناء لسببين بالذات : فهى التى شجعت مراحل التعليم الأولى فى الأقاليم ، ودعمت اللغات والآداب الوطنية . لأن فرص التعليم فى العهد القديم ، كانت قاصرة فى الغالب على أبناء الطبقة القادرة على تحمل نفقات التعليم ، وكان التعليم لا يهتم بالجوهر بقدر ما يهتم بالمظهر ، بيد أن المعلمين المسيحيين شعروا بأن كلمة الله يجب أن تصل إلى مسامع الجميع دون استثناء ، وبأن إبراز جوهر الرسالة أعظم وأهم من انتقاء الأساليب المنمقة التى تغفلها ، فإذا ما عرف ابن الريف كلمة الخلاص فلا عليه أن يتحرج من لهجته القروية الفجة (rusticitas) حتى وإن كان يحادث ساكن المدينة . وحدا هذا الشعور نفسه بالمبشرين إلى تشجيع اللهجات واللغات المحلية حتى يتمكن أهل

الولايات جميعها ، مهما كان بعدها أو تخلفها الحضارى ، أن يتعرفوا بلغاتهم على « آيات الله العجيبة » . فينبغى أن يسمع الكابادوكيون والغاليون والأسبان والمصريون البشارة بلغاتهم الخاصة ، وما زالت اللغة القبطية وآدابها وكذلك اللغة الأرمينية وآدابها حية إلى اليوم . ولما كان من الواجب أيضا أن تتم هداية البرابرة الشماليين إلى طريق المسيح ، فقد اتجه ألفيلاس (الذى تعلم اللغة القوطية وهو فى الأسر فى صباه) صوب الشمال وترجم الإنجيل إلى اللغة القوطية ، على حين بعث بياتريك Patrick سنة ٤٣٢ من روما ليرسم أسقفاً على المسيحيين الموجودين فعلا فى أيرلنده ، وأن يقوم بالبشارة والدعوة إلى الدين المسيحى فى هذا البلد برمته ، حيث وجد الدارسون واللاجئون فيه الملاذ والملجأ إبان عهود البرابرة المظلمة .

وثمة خطأ يجب أن نتحرز منه . فعلى تلك الفئة التى تتحدث بذلاقة عن « الإمبراطورية المسيحية » أو تعمد إلى التنديد بالحكام والرعية لأنهم لم ينقلبوا إلى قديسين بين عشية وضحاها ، أن تعلم أنه لم يكن من الميسور أن يطاح بالعقيدة الوثنية طفرة واحدة ، ثم إن التردد على الكنيسة ليس فى ذاته طهرا وورعا . وليست العبرة بحال أن تدخل الألوف المؤلفة فى المعمودية أو أن يتبع أفراد قبيلة من القبائل شيخهم فى اعتناق الدين الجديد ، أو أن يرتفع عدد المسيحيين ارتفاعا مذهلا . فلم يكن الاشتراك فى الأعياد الكبيرة ، أو التعبد للإله نفسه الذى يتعبد له الإمبراطور (لا لآلهة الإمبراطور العديدة فى هذه المرة) إلا مجرد تعبير عن الولاء للحاكم . بيد أن أمر التشبع بالروح الجديدة والتخلص من العادات والخرافات القديمة قد يتطلب قرونا وقرونا . فقد ظل الإيمان بالآلهة القديمة — وإن لم تكن فى الغالب آلهة « الدولة » العظيمة مثل جوبيتر ومارس وهرقل بل آلهة الريف والبرارى مثل بان Pan وسلفانوس والحوريات والآلهة المحلية — بعد أن أعلن الدين المسيحى دينا رسميا للعالم

الرومانى بزمن طويل — راسخا ثابتا فى جميع أنحائه باستثناء المدن والعواصم التى كانت فيما يبدو قويمة الإيمان . قد يحتج رجال الكنيسة ويعلنون استنكارهم وقد يهدد الحكام ويتوعدون ، بيد أن أهل الريف لم يكونوا ليقلعوا عن الابتهال لمينيرفا Minerva قبل النسج وعن صب التقدمات عند مدفأة الدار أو تكديس الحجارة كما كانت عادتهم على كومات الحجارة التذكارية ، أو إيداع النذور لدى المعابد المقامة على جانبى الطريق . والأمر لا يختلف عن معتقدات الهنود المايا Maya Indians الذين يمارسون طقوساً دينية هى خليط غريب بين القديم والحديث إذ قال بعضهم ردا على سؤال سائل « إن الإله العظيم والعذراء وابنها والقديسين كلهم صالحون ، ولكن هنا فى الغابة قد يكون للآلهة القديمة بقية من سلطان » . وهذه حالة ذهنية معروفة ، تظهر بشكل واضح وقت الكوارث والأزمات ووقت سيطرة الذعر والهلع على النفوس . وما من شك فى أن شمس القرن الرابع الغاربة خلفت وراءها ظلمة ووحشة شديدتين، وعم التساؤل تحت وطأة الهزيمة والانكسار عما إذا لم يكن من الخطأ أن تهجر الآلهة القديمة إلى تلك العقيدة المسيحية المستحدثة ؟ فما من شك فى أن الآلهة المهجورة على هذا النحو كانت تنتقم إذاك لنفسها من قوم ضالين متقلبين . ولقيت هذه المشاعر ، نظرا لاتفاقها مع الطبيعة البشرية ، ذيوعا وانتشارا كبيرين ، إلى الحد الذى دعا القديس أوغسطين أن يطلب من صديق له اسمه أوروزيوس Orosius أن يدحضها بالاحتجاج بأن أرزاء الوقت الحاضر جميعها لا تقاس بالبلايا التى نزلت خلال العهود الوثنية الماضية . فلم يعتم أوروزيوس ، وهذا الغرض النبيل نصب عينيه ، أن ألف سبع كتب عن « التاريخ حيال الوثنيين » مليئة بذكر الفيضانات والحرائق والمجاعات والكوارث والمحن التى اجتاحت البشرية فى العصور الماضية ، رغبة منه فى أن يجد فيها أهل عصره شيئا من العزاء ، ولو أن ذلك كان أملا بعيدا .

ولكن الحديث عن ذلك إن هو إلا تطلع إلى أفق بعيد فى مؤلف ينتهى

بقسطنطين . لقد مرت الإمبراطورية ، فى ظل نظام الحكم الجديد الذى وضعه أوغسطس . وفى خلال ثلاثة قرون ونصف قرن ، بتقلبات عدة، وبدا فى القرن الثالث كما لو أنها قد أصيبت بضربة قاضية ، بيد أن إرادة حكامها التى لا تقهر وبسالتهم وضراوتهم أيضا أبت أن تعترف بالهزيمة ، فما لبثت أن أعادت للإمبراطورية كيانها ومجدها . وكان لقسطنطين أن يفخر بأنه وضع اللبنة الأخيرة فى صرح التجديد والإصلاح ، وهنا ينبغى أن نختتم قصتنا . ولكننا نود قبل أن نفعل ذلك أن نلقى نظرة عابرة على أوجه النقد التى رميت بها الإمبراطورية . قيل إن الإمبراطورية قد أقيمت بحد السيف ، وهذا حق فما قامت بالفعل إلا على الحرب والسلب والنهب وبمعاونة الأيدى العاملة من العبيد. وعلى الرغم من أنه قد ظهرت خلال القرنين الأول والثانى شواهد تدل على زيادة فى الأيدى العاملة الحرة ، إلا أن إمبراطورية القرن الرابع «المستصلحة» لم تلبث أن شعرت باضطرارها إلى الارتداد إلى نظام العمل الإجبارى الذى تتوارثه طوائف بعينها . وقيل إن الإمبراطورية لم تكن تتألف من عناصر متجانسة بالقدر الكافى ، وإن نظام حكمها لم يكن نظام حكم الشعب بالشعب ، وإن حكامها وقادتها لم يكونوا يفقهون الشيء الكثير عن مبادئ الاقتصاد . وبعض هذه الانتقادات صحيح لا غبار عليه ، بيد أنه لم يكن هناك مفر من وقوع تلك الأخطاء فى مجتمع إنسانى كبير ، كان مضطرا — حتى ذلك الحين — إلى الالتجاء عندما تعوزه الحيلة إلى القوة والبطش . كتب فوشيه Fouché إلى ولنجتون Wellington عام ١٨١٥ يقول « إن من يخدعون أنفسهم ويتوهمون أن فى الوسع حكم البشر بالعبارات المنمقة وبالتشدق بالمبادئ النظرية المجردة، ليجهلون طبيعة النفس البشرية ومنابع السلطة أيضا » . ربما كانت الإمبراطورية تفتقر إلى التجانس بين عناصرها ، بيد أنه كان فى مقدور وحدة المشاعر (وهى الوحدة التى حققتها روما) أن تتغلب على هذا النقص ، وليس أدل على ذلك من نجاح الإمبراطورية الباهر فى استعادة كيانها ومجدها خلال القرن الثالث . وفضلا عن

ذلك ، فمع أن العالم القديم برمته لم يكتشف « حقوق الإنسان » (رغم أن بعض الفلاسفة قد رسموا لها صورة إجمالية مهوشة بعض الشيء) فإن الحضارة اليونانية كشفت عن « حقوق المواطن » فجاءت الإمبراطورية الرومانية فشذبت هذه الحقوق وطورتها وبرهنت على أنه من الميسور أن يجمع الفرد بين المواطنة المحلية ومواطنة الإمبراطورية . أما عن الأسس الاقتصادية فلم يكن الأباطرة يفقهون فى الواقع منها شيئا ، ولعل مرد ذلك إلى أن هذه الأسس لم تكن بعد ، قد وضحت وتبلورت .

ولعلنا نلاحظ أن جميع هذه الانتقادات تجنح إلى النظر إلى الإمبراطورية كما لو كانت دولة معاصرة تقاس الحياة فيها بمقاييس القرن العشرين ، وليس هذا الحكم حكما جائرا فحسب ، بل إنه يتنافى أيضا مع القواعد الصحية للنظر إلى التاريخ ، وما أحسب أن هناك نجرا للإمبراطورية ، أعظم من أن تكون هذه هى نظرة هؤلاء المؤرخين الذين انبروا لمناقشتها الحساب . ذلك لأن الإمبراطورية هى التى مهدت الطريق لقيام العالم الحديث ، بمعنى أنها رسمت وحددت الإطار الذى كان على أوربا أن تنمو وتتطور داخله ، وبذلك خلفت لوريثاتها وخليفاتها بعض المثل العليا التى لا أمل فى حياة العالم الحديث بدونها .

ملحق

قائمة بأسماء الأباطرة الذين ورد ذكرهم فى النص

أوغسطس	Augustus	٢٧ ق.م. — ١٤ م
تيبريوس	Tiberius	١٤ — ٣٧
جايوس (وكنيته كاليجيولا)	Gaius (Caligula)	٣٧ — ٤١
كلوديوس الأول	Claudius I	٤١ — ٥٤
نيرون	Nero	٥٤ — ٦٨
فسباسيان	Vespasian	٦٩ — ٧٩
تيتوس	Titus	٧٩ — ٨١
دوميشيان	Domitian	٨١ — ٩٦
تراجان	Trajan	٩٨ — ١١٧
هادريان	Hadrian	١١٧ — ١٣٨
أنتونينوس بيوس	Antoninus Pius	١٣٨ — ١٦١
ماركوس أوريليوس	Marcus Aurelius	١٦١ — ١٨٠
كومّودوس	Commodus	١٨٠ — ١٩٣
سبتيميوس سيفيروس	Septimius Severus	١٩٣ — ٢١١
كاراكالا	Caracalla	٢١١ — ٢١٧
فيليب	Philip	٢٤٤ — ٢٤٩
ديكيوس	Decius	٢٤٩ — ١٥١

فاليريان	Valerian	٢٥٣ — ٢٦٠
وابنه		
جاليانوس	Gallienus	٢٥٣ — ٢٦٦
كلوديوس الثانى	Claudius II	٢٦٨ — ٢٧٠
أوريليان	Aurelian	٢٧٠ — ٢٧٥
تاكيتوس	Tacitus	٢٧٥ — ٢٧٦
بروبوس	Probus	٢٧٦ — ٢٨٢
دقلديانوس	Diocletian	٢٨٤ — ٣٠٥
ماكسيميان	Maximian	٢٨٥ — ٣٠٥
قسطنطين كلوروس	Constantine Chlorus	٢٩٢ — ٣٠٦
جاليريوس	Galerius	٢٩٣ — ٣١١
ماكسينتيوس	Maxentius	٣٠٦ — ٣١٢
لكينيوس	Licinius	٣١١ — ٣٢٣
قسطنطين	Constantine	٣٠٦ — ٣٣٧

الفهرس

فهرس أبجدى

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٨٧٣٣

I.S.B.N 977 - 01 - 6164 - 0